مدخل إلى معرفة الإلحاد وبرهان النظم

«مطرقة البرهان وزجاج الإلحاد»

محاضرات

فضيلة الشيخ الدكتور عدنان إبراهيم

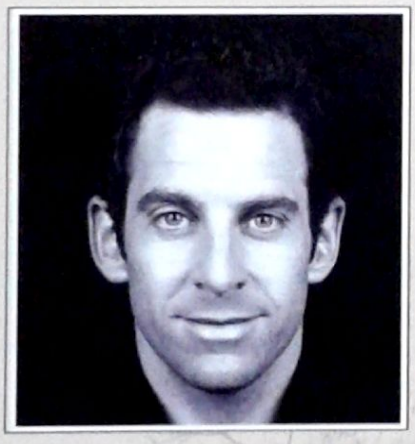

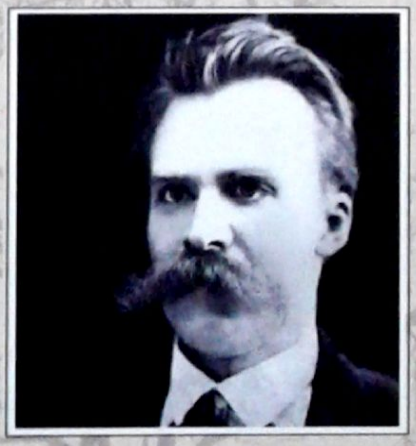

إعداد
مركز سلطان بن زايد للثقافة والإعلام

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

صفحة

في البدء كانَ الكلمة

facebook.com/reading.is.sacred

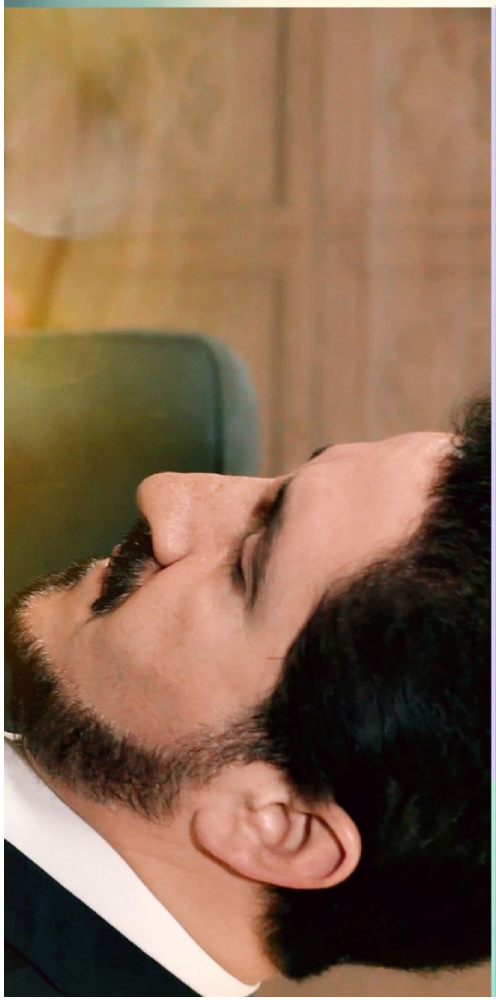

مدخل إلى معرفة الإلحاد وتاريخه
وبرهان النظم

«مطرقة البرهان وزجاج الإلحاد»

محاضرات

فضيلة الشيخ الدكتور عدنان إبراهيم

1434 - 2014

إعداد
مركز سلطان بن زايد للثقافة والإعلام

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله حقّ حمده والصلاة والسلام على خير خلقه وآله وحزبه.

أما بعد

فقد رغب إليَّ السادة الأكارم القائمون على مركز سلطان بن زايد للثقافة والإعلام مشكورين في نشر سلسلة المحاضرات المرئية التي كنت ألقيتها قبل بضع سنين بعنوان (مطرقة البرهان وزجاج الإلحاد) ليعمّ النفعُ بها، فترددتُ في البداية بسبب عدم اكتمال السلسلة المذكورة والتي حال دون إكمالها وعكة صحية ألمّت بجهازي الصوتي منعتني من الخطابة والتدريس زهاء نصف عام، وهكذا جاءت تلك المحاضراتُ مبتورةً لا تشكّل أكثر من مجرد تمهيد للموضوع الذي أدركُ مدى تعقيده وتشعبه وضرورة مقاربته على مستويات متعددة: فلسفية وعلمية ولاهوتية. ولكني مع إصرار المركز وتحمّس القائمين عليه لإفراغ المحاضرات في شكل مقروء حزمت أمري فطاوعتُهم على إنفاذ عزمهم متوكلاً على الله تعالى، معزِّياً النفسَ في ابتلائها بتقديم عمل ناقص إلى الجمهور الكريم بما صحّ مني العزم على إنجازه من وضع كتاب مسهب مفصّل في منازلة الإلحاد أرجّي أن يُجدي على مطالعه جدوى يشكرها وأن يسد من ثغور الفكر واليقين مسدّاً مقدوراً.

وقد اقتضى إخراجُ المحاضرات المذكورة كتاباً مقروءاً أن أعود إليها فأنالها بشيء من التشذيب بالحذف والزيادة وإعادة الترتيب ومسّ الصياغة بشيء من التغيير لتصير أليق بالمكتوب المقروء منها بالملفوظ المسموع.

والله تبارك وتعالى أسألُ أن يعمم به النفع ويتقبله بقبول حسن، وأن يُعظِمَ جزاءَ القائمين على مركز سلطان بن زايد كِفاءَ حرصهم على الدين ولقاءَ مدافعتهم المشككين والملحدين.

«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

عدنان إبراهيم

Scanned by CamScanner

محتويات الكتاب

الجزء الأول: مدخل إلى معرفة الإلحاد وتاريخه 15

الباب الأول: حول الجذور الأولى لظاهرة الإلحاد 17

الفصل الأول: تمهيد حول أهمية التحدي الإلحادي وراهنيته

المبحث الأول: غائية البحث 19

المبحث الثاني: ما هو الإلحاد؟ 28

الفصل الثاني: لمحة تاريخية عن بدايات الإلحاد

المبحث الأول: الإلحاد في الحضارات القديمة 39

المبحث الثاني: الإلحاد في القرون الوسطى 47

الباب الثاني: تطور الظاهرة الإلحادية من النهضة إلى العصر الحديث 53

الفصل الأول: النهضة الأوروبية والظاهرة الإلحادية

المبحث الأول: الإلحاد في معترك النهضة 55

المبحث الثاني: موقع الإلحاد من صراع العلم والكنيسة 63

الفصل الثاني: عصر التنوير ونقد الدين

المبحث الأول: الإلحاد من التنوير إلى الثورة 73

المبحث الثاني: الإلحاد في القرنين التاسع عشر والعشرين 84

الباب الثالث: تنبيهات حول أسباب الإلحاد 91

التنبيه الأول: تطورية الحركة الإنسانية والجمود الكنسي 92

التنبيه الثاني: السجل الأسود لمحاكم التفتيش 95

التنبيه الثالث: الحروب الدينية والتوظيف السياسي للدين 98

التنبيه الرابع: الفلسفة والإصلاح الديني 100

Scanned by CamScanner

الجزء الثاني: برهان النظم 103
الباب الأول: إشكالات الملاحدة والجواب عنها 105
الفصل الأول: مقدمات عامة
المبحث الأول: حول مشروعية البحث 107
المبحث الثاني: الإطار المعرفي للفكر الإلهي 111
الفصل الثاني: نظرة إجمالية على برهان النظم
المبحث الأول: تقديم برهان النظم 115
المبحث الثاني: الخصائص العامة لبرهان النظم 121
الباب الثاني: العشوائية والصدفة في الميزان 125
الفصل الأول: بين النظم والصدفة
المبحث الأول: المنظم والعشوائي 127
المبحث الثاني: الصدفة والاصطفاء الطبيعي 129
الفصل الثاني: العشوائية على محك التجربة
المبحث الأول: محاولة فاشلة لإثبات العشوائية 133
المبحث الثاني: نظرية الصدفة تسقط أمام الأرقام 136
المبحث الثالث: نظرية الانفجار العظيم ونقض العشوائية 143
الباب الثالث: شبهات حول النظم من هيوم إلى دوكينز 149
الفصل الأول: شبهات ديفيد هيوم
المبحث الأول: شبهتان مردودتان 151
المبحث الثاني: شبهة خاصية المادة 154
المبحث الثالث: شبهات حول أكملية النظم والناظم 163
الفصل الثاني: شبهات أخرى وردود
الشبهة الأولى: نظرية التطور الكيميائي 169
الشبهة الثانية: التكيف المسبق 175
الشبهة الثالثة: فرضية الإسقاط البشري.. 178
الشبهة الرابعة: شبهة الإدراك بأثر رجعي. 186
الشبهة الخامسة: إله الفجوات 188

Scanned by CamScanner

الجزء الأول

مدخل إلى
معرفة الإلحاد وتاريخه

Scanned by CamScanner

الجزء الأول

مدخل إلى معرفة الإلحاد وتاريخه

الباب الأول

حول
الجذور الأولى لظاهرة الإلحاد

Scanned by CamScanner

الفصل الأول
تمهيد
حول أهمية التحدي الإلحادي وراهنيته

المبحث الأول
غائية البحث

مشكلة قديمة وحلول تدعو للفخر

- ميراث يدعو للفخر

ربما يثير اسم هذه السلسلة، وهو: مطرقة البرهان وزجاج الإلحاد بعض الحساسيات.

فقد يلمس البعض فيه شيئاً من تبجح. ولكن، لستُ أنا من يتبجح ، ولئن جاز لأحد أن يتبجح فهم أولئك الذين أقاموا شتى أنواع البراهين على وجود الله وإبطال شبهات الملاحدة والمشككين، عبر آلاف السنين.

في القرن التاسع عشر، كتب الفيلسوف والمفكر الشهير: جون ستيوارت ميل[1]، ذلك الليبرالي العتيد، ما مفاده: «ستكون صدمة هائلة للعامة، لو أنهم وقفوا على حجم أولئكم النابهين الذين يتبنّون الإلحاد عقيدة ومذهباً»، في إشارة منه إلى كثرة الملاحدة بين المفكرين.

أما نحن من جهتنا فلن نُصدم لإدراكنا أننا لو جمعنا نابهي الملاحدة عبر شتى العصور فلن يشكلوا شيئاً في جنب جيوش المؤلهة من الفلاسفة والمفكرين والعلماء.

---

1 - جون ستيوارت ميل 1806 - 1873 (John Stuart Mill)، فيلسوف واقتصادي بريطاني، من مؤلفاته «مبادئ الاقتصاد السياسي» و«أسس الليبرالية السياسية».

Scanned by CamScanner

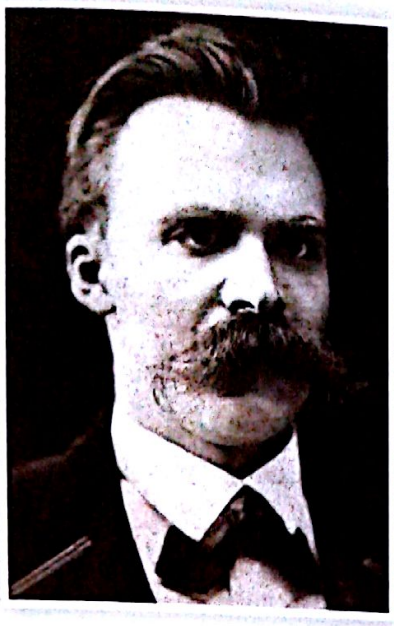

نيتشه

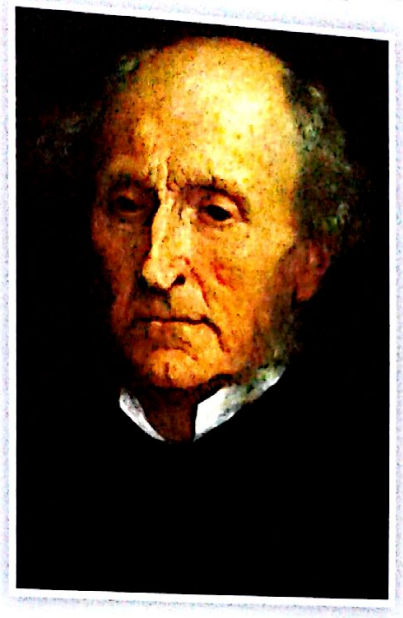

جون سيتوارت مل

ولسنا ندّعي أن هؤلاء أذكى من أولئك، لكنهم يقيناً لا يقلون ذكاء عنهم.

أما كونهم أذكى فهذا ما سيتضح إن شاء الله في تضاعيف هذه السلسلة حين نعرض لدليل الملحد وبرهان المؤله؛ ولا أقول شبهة الملحد أو تشاغيبه، لئلا يكون من باب المصادرة على المطلوب.

ولسوف نرى أيهم أحكم عقلاً، وأقوم بحجته، وأدفع عن مذهبه وطريقته.

• دوافع البحث وفائدته

قد يطرح هذا السؤال: لماذا نتناول أصلاً مثل هذا الموضوع ؟

فلو كنا تناولناه - كمسلمين - قبل عشرين أو ثلاثين سنة لربما كان سيقال: هذا من باب الترف الفلسفي واللاهوتي؛ إذ كان الناس أحوج إلى تعلم ما يشغل ذمتهم من تكاليف وأحكام فقهية عملية ، كأحكام الصلاة والصيام، وغيرها، ولم يكن الإلحاد حينها يشكّل مورد ابتلاء.

أما اليوم فقد صار للأسف الشديد لزاماً أن نتناوله ونمعن فيه وأن يشركنا في تناوله كل من لديه اللياقة الفكرية المناسبة.

ولسنا نهدف من ذلك إلى الذب عن معتقدنا، غاية الأمر أن الحقيقة من حيث هي ومن حيث أتت ثمينة غالية. وإذا ثبت أن الله تبارك وتعالى هو حقيقة الحقائق فإنه لخطير جداً، وخسارة فادحة، في الدنيا والآخرة أن يضل الإنسان طريقه إلى هذه الحقيقة.

Scanned by CamScanner

هذا وقد ظل موضوعنا هذا أعني: البحث في مسألة وجود الله تبارك وتعالى يستحوذ - عبر العصور - على مخيلة الناس، وعلى أذهان كبار المفكرين والعلماء والفلاسفة.

وسوف نتبين حين نتكلم عن براهين الإيمان ومن بينها برهان الفطرة، مدى قدرة الوحي الإلهي على تفسير نشأة الإيمان، أي نشأة العقيدة الإلهية في التاريخ البشري، مقارنة مع النظرية التطورية.

وسوف نرى في كلتا الحالتين، أن الإنسان القديم أي إنسان ما قبل التاريخ، لم يكفّ عن مواصلة البحث عن الله.

• صيغة استفزازية للإلحاد

إن مسألتنا هذه كانت مشغلة حتى بالنسبة لأولئك الذين أنكروا وجود الله تبارك وتعالى، ولجّوا إلى حدّ رفع شعار موته، مثل فرويد[2]، تأثراً بزمرة من الفلاسفة، كان من آخرهم نيتشه[3]. فقد كان فرويد يعتقد أن الإنسان هو الذي اخترع إلهه وليس العكس. على أنه تنبّأ في كتابه المشهور «مستقبل الوهم» بأنه: «سيأتي يوم - لكن ليس في المستقبل القريب، فالله لم يمت بعدُ - يتخفف فيه الإنسان من هذه العقيدة البالية، عقيدة وجود الله.

لكن المعاصر ميشيل أونفريه[4] صاحب كتاب «نفي اللاهوت»- عنوان الترجمة العربية لكتابه المشهور Atheist Manifesto - وهو ملحد عنيد ومتحمس يرى أن

---

2 - سيغموند فرويد (Sigmund Freud) 1856 - 1939، طبيب أعصاب نمساوي شهير، وهو من عائلة يهودية اشكنازية، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي واشتهر بنظريات العقل واللاوعي.

3 - فريديريخ ويلهلم نيتشه (Friedrich Wilhelm Nietzsche) 1844 - 1900، فيلسوف وشاعر ألماني. كان من أبرز المهدين لعلم النفس وكان عالم لغويات متميزا. كتب نصوصا وكتبا نقدية حول المبادئ الأخلاقية والنفعية والفلسفة المعاصرة المادية منها والمثالية الألمانية. وكتب عن الرومانسية الألمانية والحداثة أيضا. عموما بلغة ألمانية بارعة. يعد من بين الفلاسفة الأكثر شيوعا وتداولا بين القراء. ويعتبر من أشهر الفلاسفة الملحدين في العصر الحديث.

4 - ميشيل أونفريه (Michel Onfray)، مواليد 1959، فيلسوف فرنسي معاصر، اشتهر بإلحاده واعتقاده باللاسلطوية (Anarchism). لديه العديد من المؤلفات.

Scanned by CamScanner

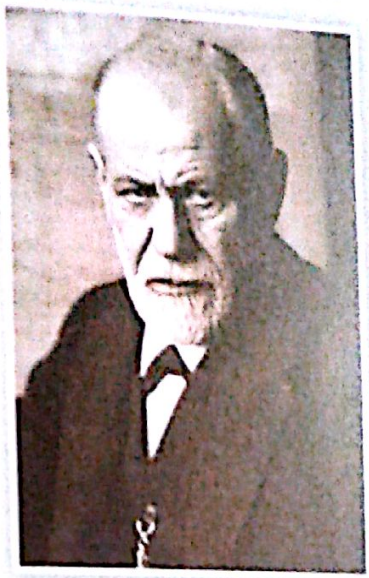

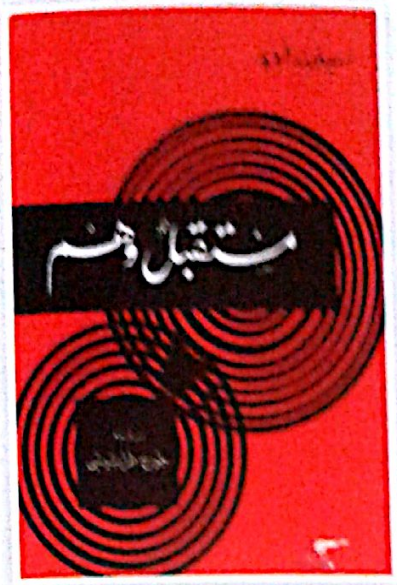

فرويد

الإله لم يمت ولن يموت، وسيموت آخر إله مع آخر إنسان. لأن الخرافة لا تموت، والحكايات التي يضلل بها الأطفال لا يمكن دحضها. بمعنى أن الإيمان بالله حكاية خرافية، انحدرت إلينا من عصور بدائية البشرية ، وتواصل حياتها بيننا لكونها تلبي احتياجات باطنية فينا كبشر ضعاف محدودي المعرفة عظيمي التطلع فعقل الإنسان لمّا يبلغ كماله بعدُ ولا يزال طفولياً قابلاً لتصديق الخرافة [5].

ويهدف تكتيك أونفري هذا إلى الاحتفاظ بخط رجعة،«شيك على بياض»،لأنه يمكّنه من القول دائماً: مهما كان عدد الناس الذين سيظلون يؤمنون بالله، ومهما كان من بينهم فلاسفة وعلماء، فذلك لن يمثل بالنسبة لي أي دليل!

وحين قال فرويد ما قال، رد عليه غير واحد، وكان الفيلسوف المسلم «علي عزت بيغوفيتش»[6] واحداً منهم، وقد تساءل قائلاً: فلم ظل الناس إذن يفعلون هذا ؟ بمعنى لم لا يزال الناس في عصر العلم والتقدم ومن بينهم جمع غفير من الفلاسفة والعلماء

---

5 - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وهنا لا بد من ملاحظة حول استخدامي لألفاظ الدعاء والاستغفار، سنحاول تجنبها في هذا البحث حتى لا نبعد عن الصياغة الحيادية والعلمية ولا يقال أننا نؤثر على الناس بخطاب عاطفي، لأن هدفنا ليس إفحام الخصم، لكن الوصول إلى الحقيقة بالدليل والبرهان والبحث معهم. وفي البحث العلمي يجب أن نكون محايدين، رغم أن هذه المقولة لم ولن تنطبق على أحد، فلا يوجد شخص ليست لديه ذرة تحيز، لكن هناك فرق بين تحيز علمي بدليل وتحيز طفولي. لهذا فنحن في صدد البحث في أدلتنا واختيار الأقوى بينها، فلو كان دليل الملاحدة أقوى فسنلحد مثلهم، لكننا لم نجد دليلهم مقنعاً إلى الآن (المحاضر).

6 - علي عزت بغوفيتش (1925- 2003 ،Alija Izetbegović) فيلسوف إسلامي وناشط سياسي بوسني، أول رئيس لجمهورية للبوسنة والهرسك بعد انتهاء الحرب اليوغسلافية، وكان معارضا للحكم الشيوعي إبان الحكم الديكتاتوري للماريشال تيتو وسجن عدة مرات.

Scanned by CamScanner

ميشال اونفريه

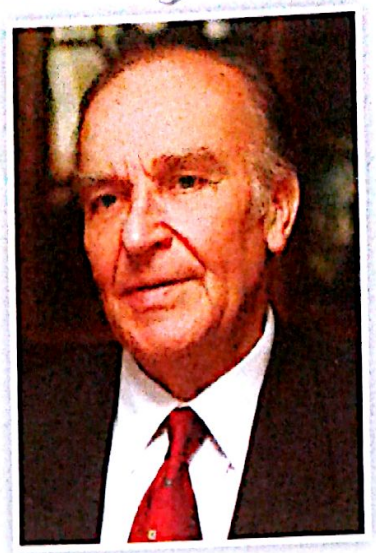

علي عزت بغوفيتش

فضلا عن كبار اللاهوتيين يدأبون على إعادة إنتاج الخرافة أي الإيمان بالله؟ وقد رأينا مناورة أونفريه المكشوفة للتهرب من مثل هذا الإيراد.

حسب دراسة إحصائية هناك فقط 2.13 % من سكان الأرض في القرن العشرين يصرحون بأنهم ملاحدة (atheists)، أما الذين يقولون بأننا لا نعلم هل هناك إله أم لا وهم المسمون بـ«اللا أدريين»(agnostics)، أو أتباع «الإلحاد الضمني» (implicit atheism)، فيبلغون زهاء 12 % من سكان الأرض. أما البقية فهم يؤمنون بالله بشتى الطرق سواء منها الطريقة المسيحية أو اليهودية أو الإسلامية وغيرها.

إذن مازال التأليه هو المذهب السائد والكاسح.

ومن جهته فقد تأثر أونفريه أيضاً بنيتشه الذي قال: «آخر مسيحي كان أيضاً أول مسيحي، وقد مات على الصليب». يشير إلى يسوع، أو عيسى المسيح، وهو تصريح بنفي المسيحية التاريخية إيماناً ولاهوتاً، فقابله أونفريه بادعاء أن آخر إله سيموت مع آخر إنسان؛ لأن كل إنسان يخلق إلهه ويفصله على قدْر احتياجاته، طبعاً ليس المقصود الإنسان كفرد، وإنما كجماعة لها ثقافتها وشروطها.

خطة البحث

أبدأ أولاً بتعريف الإلحاد وكيف تطور هذا المفهوم والإشكالات المثارة حول تعريفاته. وبعد ذلك أعقب بلمحة تاريخية سأحرص على أن تكون موجزة إلى حد ما، لأن

Scanned by CamScanner

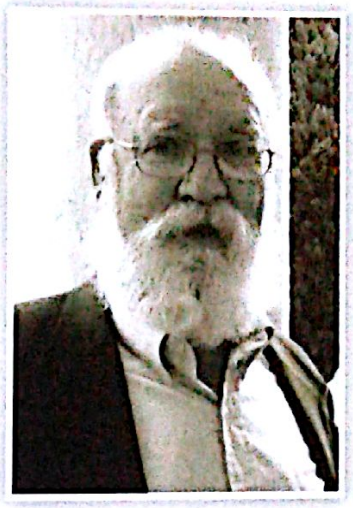

دانيل دينيت

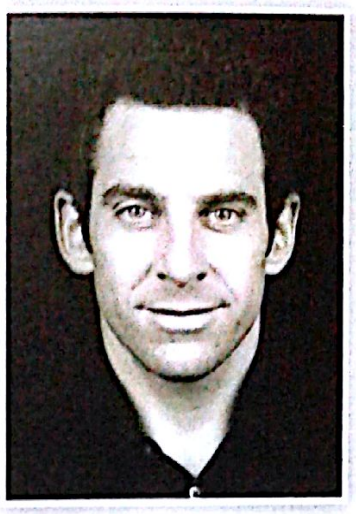

سام هيريس

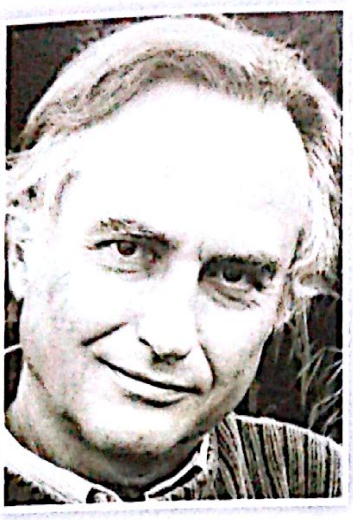

كلينتون ريتشارد دوكينز

عرضاً مفصلاً لتاريخ الإلحاد سيستغرق منا عشرات الساعات كما استوعب من غيرنا ألوف الصحائف.

وفي أثناء هذا العرض سأعرج على الأسباب التي دعت البعض إلى الإلحاد؛ مع اللفت إلى أن الكثير من تلك الأسباب لم تكن محض أسباب عقلية وبرهانية ، وإنما كانت من باب العوامل.

ومن الضروري، هنا، توضيح الفرق بين السبب والعامل.

والفرق بينهما يعود إلى الفرق بين الدليل والعلة: فالموضوع المستدل عليه هو الموضوع الذي يقوم دليل ما على برهنته، أصاب الاستدلال أم أخطأ.

أما الموضوع المعلل فهو الذي يتبرر بعوامل معينة، بعلل لا بأدلة. مثلاً لماذا المدينة الفلانية مسيحية كاثوليكية؟ هذا من قبيل المعلل وليس المدلل. لأن ثمة عوامل جعلت أهالي تلك المدينة مسيحيين كاثوليك عوض أن يكونوا مثلاً مسيحيين بروتستانت.

إن ما يعرف اليوم بالإلحاد الجديد (new atheism)، بخلاف الإلحاد الحديث، مثل إلحاد دوكينز[7] وسام هيريس[8] ودانيل دينيت[9] وأمثال هؤلاء، يستند كثيرا إلى علل وعوامل وليس على براهين وأدلة.

---

7 - كلينتون ريتشارد دوكينز (Clinton Richard Dawkins)، مواليد 1941، عالم بيولوجيا تطورية وفيلسوف في الأديان وكاتب بريطاني، من أبرز أعماله التأكيد على الدور الرئيسي للجينات كقوة دافعة للتطور. إلى جانب أعماله في البيولوجيا التطورية، دوكينز يقدم نفسه على أنه ملحد، إنساني-علماني، شكوكي، وعقلاني علمي، وهو معروف بآرائه في الإلحاد ونظرية التطور كما أنه من أبرز منتقدي نظرية الخلق ونظرية التصميم الذكي.

8 - سام هيريس (Sam Harris)، مواليد 1967، كاتب وفيلسوف أمريكي.

9 - دانيل دينيت (Daniel Dennett)، مواليد 1942، فيلسوف أمريكي اهتم بالبحث في فلسفة العقل وفلسفة العلوم وفلسفة البيولوجيا.

Scanned by CamScanner

نعم هناك من يزعم أن ما لديه هو من باب الأدلة، وسنرى حين نعرض لها أنها في جانبها الأكبر عوامل لا أدلة وكمثال على ذلك فإنهم يكثرون من القول بأن «الأديان سبب نكبة البشرية، انظروا إلى الحروب والمصائب التي سببتها الصراعات الدينية والتعصبات العقدية.» ومن ذا الذي يجهل البون الواسع بين مسألة وجود الله ومسائل التأويلات اللاهوتية والفقهية التي تتعرض لها الأديان على اختلافها، فتطوعها في أحيان كثيرة لمصالح فئة معينة بما يجني في النهاية على الدين نفسه ومبادئه ورسالته، لكن الملاحدة الجدد يغضون عن قصد الطرف عن مثل هذا الفرق الظاهر كيما يتسنى لهم تلفيق حجتهم.

إن موضوع الإلحاد، إذا أردنا أن نتعاطى معه بحجمه الحقيقي موضوع معقد جداً، فلا ينبغي التعرض له بطرق خطابية ووعظية أو دعوية تبشيرية وإنما بطريقة علمية فلسفية محترمة.

وتتلخص خطتنا في الابتداء بعرض ما لدينا من براهين؛ كاستجابة للتحدي. ذلك أن بعض اللاهوتيين عبر العصور كانوا يستندون إلى حجة الجهل فيطالبون الملاحدة أو المشككين بأدلتهم على عدم وجود الله، فإن عجزوا عن البرهنة على عدم وجوده صحّ أنه موجود ولا بد. وهذا في الحقيقة مثال على مغالطة برهان الجهل «argument from ignorance». ولعلنا نعرض لبيانها مع البرهان اللمي والبرهان الإني والفرق بينهما. ونسلف الآن القول على عجل بأن فحوى هذه المغالطة يتمثل في ادعاء أن دعوى ما تكون صحيحة ما لم يثبت بالدليل خطؤها، والعكس كذلك، ووفقاً لهذا فإن عدم الدليل أقيم مقام وجود الدليل، كما أن صاحب الدعوى لا يكون مطالباً بإثباتها، وإنما يلقى بعبء الإثبات على النافي.

وهناك مثال لطيف لحجة الجهل ضربه برتراند رسل[10] بالقول: « لو ادعى شخص ما أن هناك إبريق شاي خزفياً يدور على نحو ما حول الشمس بين المريخ والأرض فكيف يتسنى لأحد ما أن يدحض دعواه هذه؟

10 - برتراند راسل (Bertrand Russell) 1872 - 1970، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني. وفي مراحل مختلفة من حياته كان راسل ليبرالياً واشتراكياً وداعية سلام إلا أنه أقر أنه لم يكن أياً من هؤلاء بالمعنى العميق.

Scanned by CamScanner

أما سبب بدئنا نحن بالمواجهة، فلأن بعض الملاحدة في القرن العشرين آثروا أن يقذفوا بالكرة في ملعب المؤلهة. مثل أنطوني فلو[11] الذي فعل هذا في مرحلة إلحاده في كتابه «فرضية الإلحاد» The Presumption of Atheism، 1976، وقال: إنني فعلت هذا لأول مرة وقذفت بالكرة في ملعبهم، فليس الملحد هو المطالب بأن يثبت ويبرهن على عدم وجود الإله، وإنما أنتم المطالبون بإثبات وجوده فلا داعي له.

وقد استجبنا من طرفنا لهذا التحدي، وسنبدأ بعرض براهيننا. وفي الأثناء سنعرض لكل براهين وأدلة الملاحدة، المنافية والمعارضة. وسنجيب عنها واحدة واحدة بكل نزاهة وموضوعية. ولن نترك لهم حجة مكتوبة إلا ذكرناها.

تحرير محل النزاع

والآن، لنحرر محل النزاع الذي هو: «قضية وجود الله تبارك وتعالى كخالق ومبدع لهذا الوجود». أما المسائل العقائدية الأخرى مثل: وحيانية القرآن وصدق الرسول (ص) وكذلك العناية الإلهية ، فهي خارجة تماماً عن الموضوع. فالمطروح هو فقط وجود الله وخالقيته .

فهل يمكن تفسير الوجود والكون بغير افتراض وجود الله، كما يدعي الملاحدة، أم أن ذلك غير ممكن، فلسفياً وعلمياً؟ فكما هو معلوم فإن الإلحاد الحديث يستند إلى العلم، وخاصة إلى نظرية التطور. لذلك يتحتم علينا خوض غمار بحث طويل في نظريات التطور، لكونها تمثل أساساً مهماً من أسس الإلحاد الحديث.

وبعد ذلك، إن يسر الله، سنعقد حلقات جديدة نعرض فيها لضرورة النبوة، أي مسألة العناية والإدارة الإلهية للكون والمخلوقات وضرورتها من عدمها. ومن ثَم إلى بحث مسألة إمكان الوحي في نفسه، أي الإمكان النظري، وبعد ذلك ننتقل إلى

11 - أنطوني فلو (Antony Flew) 1923 - 2010، فيلسوف بريطاني، كان من أشرس المدافعين عن الإلحاد إلى سنة 2004 عندما تراجع عن إلحاده وأعلن إيمانه بالله وكان عمره حين إيمانه 81 سنة، ومات على الإيمان بالله.

Scanned by CamScanner

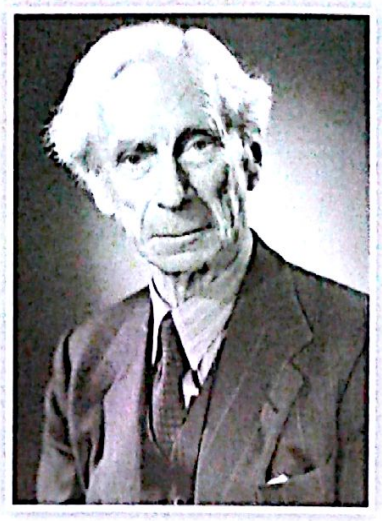

برتراند رسل

أنطوني فلو

المصاديق، أي تحقُّق النظري في الواقع.

وهكذا فإن بحثنا هذا سيعتمد أساساً على مباحث فلسفية ومنطقية ومباحث علمية وأخرى لاهوتية عقائدية.

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

ما هو الإلحاد؟

تعريف أوّلي للإلحاد

في كتابه «الإلحاد، مقدمة مختصرة جدا»[12]، عرّف جوليان باغايني[13] الإلحاد بأنه: « الإيمان بعدم وجود إله أو آلهة».

بهذه الكلمات، قدّم باغايني أكثر التعاريف اختصاراً. ثم أخذ يدفع تهمة رائجة، كثيراً ما وجهت للملاحدة، وهي الخلفية الأخلاقية للإلحاد.

• حول خلفية الملحد

لقد رفض باغايني الربط بين الموقف الإلحادي والخلفية الأخلاقية والفكرية للملحد. فانبرى ينحو باللائمة على الذين ربطوا بين الإلحاد وبين الانحراف المسلكي، عبر العصور، وخاصة العصور الحديثة، حيث آثر الناس أن يربطوا بين الإلحاد وبين الانحراف الخلقي، مثل الخيانة وإدمان الخمر، والفسق والفجور.

وقد تبنى هذا المنحى كثير من المدافعين عن الأديان خاصة السماوي منها ، ومن جهته يرى باغايني أن ذلك ليس إلا من باب التجني على الملاحدة[14].

كما رفض باغايني الربط بين الإلحاد وعدم رؤية معنى للحياة، وعدم طيبة الإنسان وخيريته.

---

12 - Atheism. a Very Short Introduction.

13 - جوليان باغايني(Julian Baggini)، مواليد 1968، فيلسوف بريطاني ملحد،من أعماله: الخنزير الذي يرغب في أن يؤكل، والبطلة التي فازت في لعبة اليانصيب.

14 - مسألة أن يكون الإنسان ملحداً وذا أخلاقيات عالية في الوقت نفسه، هي من المواضيع المطولة والمشوقة والتي لا يزال النقاش حولها محتدما بين المتدينين والملاحدة.

Scanned by CamScanner

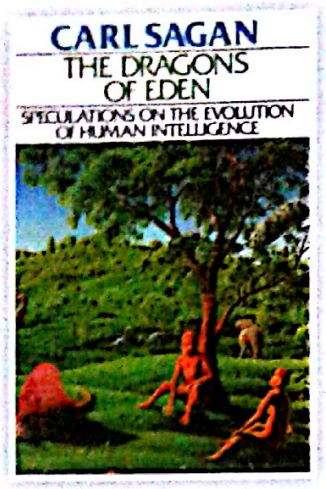

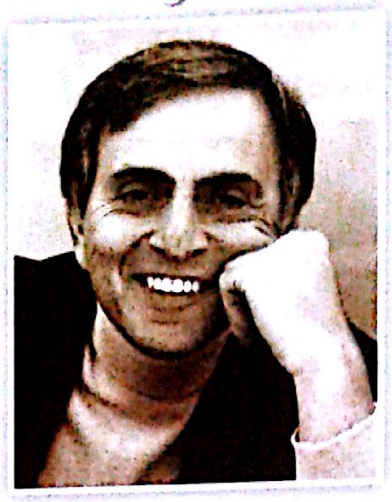

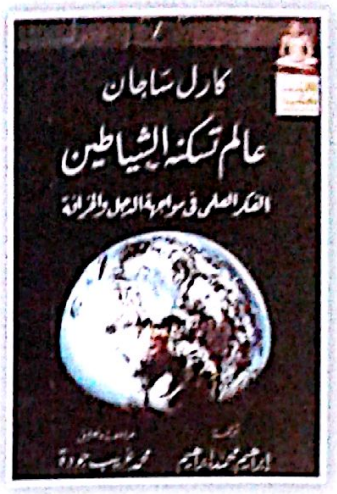

كارل ساجان

• تجنب الخوض وقتياً في مسألة الربط

مسألة الربط بين الإلحاد والاختيارات السلوكية أو الرؤية الكونية، من أعمق المسائل الفلسفية. وقد ظلّ هذا الموضوع محل نقاش بين أهل الفكر من المعسكرين. فالملاحدة من جانبهم يصرون على أن الإلحاد يوفّر أساساً أفضل للأخلاق ولفهم عبثية التطرق غير المستوعب لهذه المسألة، يكفي أن ننظر إلى ما يقوله كارل سيغن صاحب البرنامج الشهير «الكون» وهو ملحد، حيث يؤكد في كتابه «عالم تسكنه الشياطين»، على إمكان أن نضفي على الإنسان والحياة معنى أجمل بكثير في ظل مفاهيم الإلحاد. ونجد أساس هذه الفكرة عند هيغل وكل من تكلم عن الاغتراب الديني خاصة فوير باخ. ومن قبل جادل سيلفان ماريشال S. Marechal أحد الملاحدة الذين عاصروا الثورة الفرنسية بحماس مشبوب ليبرهن على أن الملحد أفضل فضيلة من المؤمن وحياته أسعد وأكثر استقراراً من حياة المؤمن.

لذا، من الأفضل اجتناب النقاش مع الملاحدة في هذه المواضيع وقتياً ريثما يُفرغ من نقاش مسألة وجود الله واستتباعاتها العديدة.

• تعريف مقابل

التعريف المتقدم للإلحاد تعريف معجمي يمكن أن نجده في أي قاموس، ومثل هذه التعريفات لا تُسمن ولا تُغني من جوع، ومن الأفضل تجنبها، لأنه قد يأتي أحدهم،

Scanned by CamScanner

بنفس المنهج ولكن في الاتجاه المعاكس، ويقول: الإلحاد هو الميل عن الحق: ألحد عن الحق يعني: مال عنه. فالإلحاد لغة يعني الميل؛ وبالتالي ليس من شرط الملحد أن يكون منكرا لوجود الله، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾(الأعراف:180)

الملاحدة، هنا، اعترفوا بوجوده ولكنهم ألحدوا في أسمائه ، ومن الواضح أن هذا ليس موضوعنا وإنما موضوعنا يدور حول الإلحاد بالمعنى المشهور، أي: مذهب النفي، أو مذهب اللا ربوبية.

تعريف نسبي للإلحاد

من الصعب أن نضع تعريفاً وحيداً للإلحاد، لأن هذا الموضوع تطور عبر العصور مواكبة لتطور مفهوم الإله. فالإله الذي تؤمن به حضارة ما ليس هو بالضرورة الإله نفسه الذي تؤمن به حضارة أخرى، فنفي إله ثقافة ما قد يكون شرطاً في تحقق الإيمان في ثقافة مغايرة في الوقت الذي يوصم النافي بالإلحاد لدى أبناء الثقافة الأولى.

• نظرية لالاند

يرى الفيلسوف الفرنسي الشهير أندريه لالاند[15]، في قاموسه الفلسفي أنه «لا يمكن تعريف لفظة الإلحاد إلا تعريفاً لفظياً، نظراً لأن مضمون فكرة التلحيد يتباين وجوباً حسب ترابطه بمختلف التصورات الممكنة لله» ، ثم نَقل عن فرانك قوله «ما من تهمة كانت أكثر تداولاً من الإلحاد؛ ففي الماضي، كان يكفي للمرء حتى يُتهم بهذه التهمة، أن لا يشاطر الناس الآراء السائدة والمعتقدات الرسمية، مهما تكن فاسقة أو فاحشة.» واختتم كلامه بقوله: « هذه المفردة لا تبدو لنا مشتملة إلا على قيمة تاريخية ينبغي

15 - أندريه لالاند 1867 - 1963، (André Lalande)، فيلسوف فرنسي، يعد في أعماله الفلسفية أبرز ممثل للعقلانية الكانطية في ظل الجمهورية الفرنسية الثالثة، ومن موضوعاته الرئيسة التي عالجها: النوايا أو المقاصد، الحرية، الحقيقة، ماهية العقل، في وجهيه المكون والمتكون.

Scanned by CamScanner

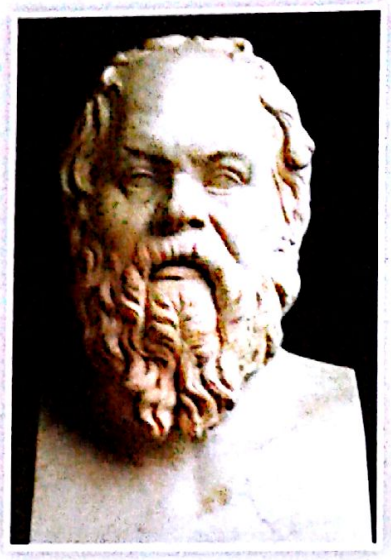

سقراط

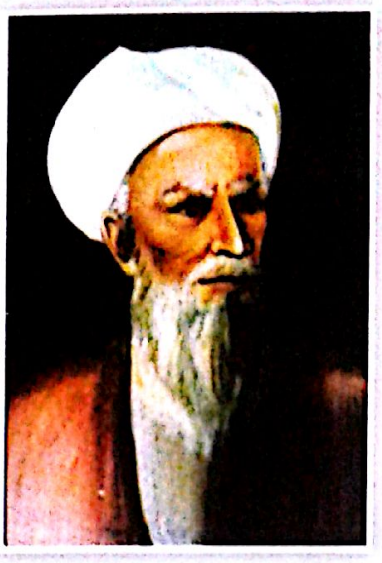

الرازي

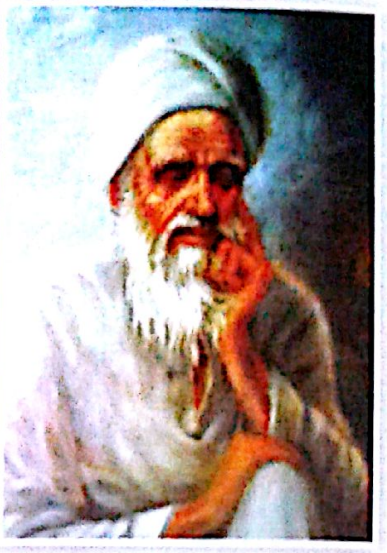

أبو العلاء المعري

تحديدها في كل حالة خاصة، ومن ثم، هي لا تحمل دلالة نظرية محددة. فما هو تأكيد للألوهية عند البعض يمكن أن يكون إلحاداً عند البعض الآخر[16].

• سقراط وتهمة الإلحاد

فسقراط، مثلا اتُّهم بالإلحاد. وقد ورد عنه دعوته لتوحيد الآلهة وعبادة إله واحد، الأمر الذي عُدّ في نظر قومه إلحاداً ومروقا، في حين سينظر إليه أتباع الديانات التوحيدية. فيما لو ثبت لديهم دعوته إلى توحيد الله. كموحد نبيل يستحق التبجيل.

• فتنة المسيحيين بتهمة الإلحاد

وقد وقع مثل ذلك، في العهد الروماني أيضاً؛ عندما أعدم الرومان الآلاف من المسيحيين فصلبوهم وأحرقوهم بتهمة الإلحاد، لأنهم أنكروا آلهة الرومان، وخصوصا عبادة الإمبراطور. لكن بعد حين من الدهر عندما أصبحت المسيحية

16 - فمثلا اتهم باروخ سبينوزا بالإلحاد ولعن أربع لعنات من أسقف أمستردام وصار ممنوعاً الاقتراب منه أكثر من أربع خطوات، لأجل أنه تبنى فكرة وحدة الوجود. بينما تتبنى الديانات الشرقية وحدة الوجود كمفهوم لله. وكذلك كفّر أبو حامد الغزالي، ابن سينا والفارابي لقولهما بقدم العالم، وإنكارهما المعاد الجسماني في مسائل أخر.

Scanned by CamScanner

الديانة الرسمية، صار من يدعو إلى تعدد الآلهة أو عبادة الإمبراطور ملحداً يستحق السجن والتنكيل.

• الإلحاد في السياق الإسلامي

ثمة توسع كبير في السياق الإسلامي في استخدام مصطلح الإلحاد، فالإلحاد يطلق على من أنكر شيئاً من أصول الدين أو من عطل شيئاً من صفات الله.

ولذلك، إذا عرفنا الملحد بأنه ذلك الذي أنكر وجود الذات الإلهية، فليس هناك في الحضارة الإسلامية ملحد واحد[17].

وهناك من اتهموا بالإلحاد للالتباس في عقائدهم، كأبي العلاء المعري أو محمد بن زكريا الرازي الطبيب أو ابن الراوندي، الذين اعتبروا من كبار الملاحدة في تاريخ الإسلام كما ذكر عبدالرحمن بدوي في كتابه عن «تاريخ الإلحاد في الإسلام»، ذلك رغم أن أحداً منهم لم ينكر وجود الله وإن كانو أنكروا أموراً أخرى. فمحمد بن زكريا الرازي أنكر النبوة وسخر منها، مع أنه مؤمن بوجود الله؛ ومثله في هذا ابن الراوندي.

أشكال الإلحاد بين أفلاطون وديدرو

• أشكال الإلحاد عند أفلاطون

في القوانين، - أو النواميس، كما ترجمها البعض- لأفلاطون، ذكر أفلاطون ثلاثة أشكال للإلحاد.

الأول: يتمثل في إنكار الألوهية أو الربوبية .

الثاني: يتمثل في إثبات الألوهية مع إنكار العناية الربانية.

17 - ربما يستثنى بعض الزنادقة من هذا العموم، مثل عبدالكريم ابن أبي العوجاء، إذا صح ما نسب إليه من إنكار الصانع.

Scanned by CamScanner

ابن سينا

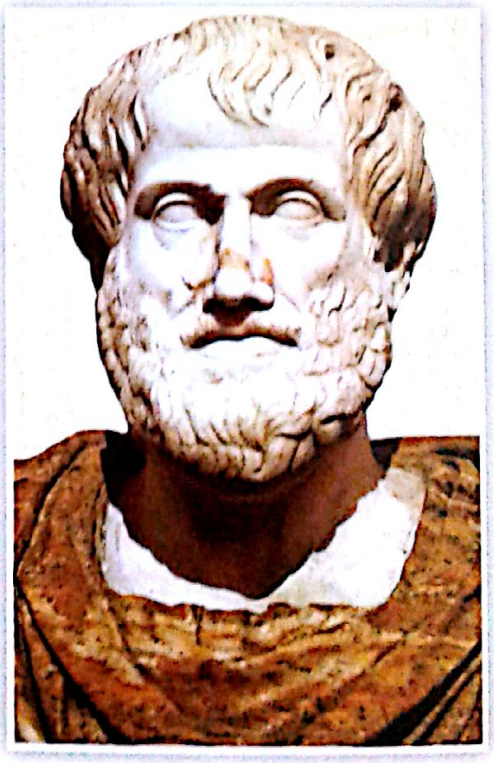

أرسطو

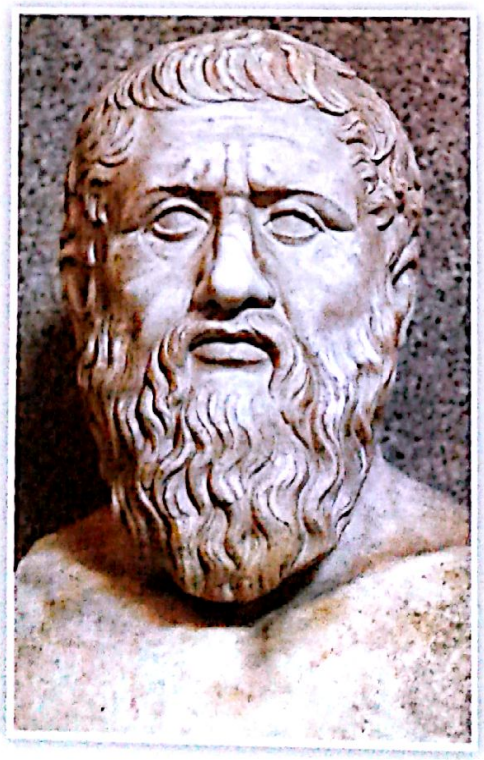

أفلاطون

Scanned by CamScanner

الثالث: يتمثل في الاعتقاد «بأن الآلهة يمكن أن يستجلب رضاها ويُستدفع سخطها بتقديم القرابين والأضاحي». والملاحظ أن هذا الشكل الثالث من الإلحاد حسب تعريف أفلاطون، يتكرر في جميع الديانات تقريباً.

ونجد الشكل الأول من الإلحاد عند الفلاسفة قبل سقراط؛ وهم الفلاسفة الطبيعيون، الذين وضعوا الأسس الأولى للمذهب الطبيعي، ومن هؤلاء مثلا ديموكريتوس صاحب النظرية الذرية [18]، وطاليس صاحب نظرية الماء كأصل في الوجود، وامبيدوكليس صاحب نظرية العناصر الأربعة [19].

أما الشكل الثاني فيرادف عند أفلاطون القول بكسل الآلهة وعدم إتقانها لعملها.

ويعادل الشكل الثالث عند أفلاطون القول بأن الآلهة سخيفة كالقضاة المرتشين[20].

• تقسيم ديدرو [21]

التقسيم الثلاثي لأفلاطون، ذكّرنا بتقسيم ثلاثي آخر للروائي والمفكر الموسوعي الفرنسي -والملحد- دينيس ديدرو الذي كان يقول: «أنا أميز بين ثلاث فئات من الملحدين: ملحد يقول أنا لا أعتقد بوجود الله وبالفعل هو كذلك وهذا هو الملحد الحقيقي. وآخر يجزم بعدم وجود الله مرة ومرة يُقرّ بوجوده، وهذا يعتبر شكوكياً أو متردداً. والنوع الثالث يتمنى أن الله غير موجود، من أجل أن يمضي في ارتكاب المعاصي دون وخز من الضمير.» ومن الطريف أن ديدرو لما سئل مرة : هل يوجد ملحد حقيقي؟ أجاب : وهل يوجد مسيحي حقيقي؟ في إشارة منه إلى صعوبة الإلحاد بقدر صعوبة الإيمان، وإلى أن حال معظم الناس هو الشك والتردد.

---

18 - صاحب النظرية الذرية التي ظلت مهجورة إلى القرن الثامن عشر، لأن الفلاسفة كانوا مأخوذين بنظرية الاتصال لأرسطو الذي قارع وسفّه نظرية ديموكريتوس .

19 - طبعا رغم أن نظريتهم أثبت عدم صحتها الآن لكنهم يعتبرون من وضعوا دعائم العلم التجريبي

20 - ولذلك فقد منع القرابين الفردية، لكن خضوعا للسائد المجتمعي وخشية منه أن يلقى مثل مصير أستاذه سقراط كان يقبل بالقرابين الجماعية وفق الطقوس المعينة!

21 - دنيس ديدرو (1713 - 1784) فيلسوف وأديب موسوعي فرنسي، من قادة التنوير، اشتهر بإشرافه على الموسوعة (موسوعة الفنون والعلوم والحرف) أول موسوعة حديثة في أوروبا.

Scanned by CamScanner

ديدرو

اصطلاحات أخرى للإلحاد

في العصور الحديثة، واجهنا طائفة من المصطلحات التي تتعلق بالإلحاد كنوع من التقييد أو التوصيف والتصنيف، مثل الإلحاد المطلق والنسبي، أو الإلحاد السالب والموجب، أو الضعيف والقوي، أو النظري والعملي.

الإلحاد المطلق والإلحاد النسبي

الإلحاد المطلق هو إنكار وجود الله بدون قيد أو شرط. أما الإلحاد النسبي هو تصورات معينة للألوهية، وليس إنكارها بالمطلق. ونظير ذلك، ما نسب إلى زينوفون[22] الذي يقول عن الآلهة: « أهل تراقيا تخيلوا آلهتهم على شاكلتهم : زرق العيون بيض البشرة شقر الشعر، ولو أن زنجياً أراد أن يمثل إلهه، لصوّره أسود البشرة، عظيم المشافر مفلفل الشعر، وأتخيل لو أن الأحصنة أرادت أن ترسم إلهها لرسمته حصانا.»

22 - زينوفون او كسينوفون Xenophon) 430- 354)ق.م، فيلسوف يوناني.

Scanned by CamScanner

وعلى ذلك وقد اتهم زينوفون بسبب قوله هذا بالإلحاد، رغم أنه لم ينكر الألوهية، لكنه أنكر النزعة الأنثروبومورفية أي الأنسنية أو التشبيهية في تصويرنا للآلهة.

• الإلحاد النظري والإلحاد العملي

الإلحاد النظري، هو موقف فكري: فلسفي أو علمي، ينكر وجود الإله أو الآلهة ويحاول أن يقيم البراهين على إنكارها ويدحض براهين إثباتها. في حين أن صاحب الإلحاد العملي لا ينخرط في المحاجات والسجالات النظرية؛ لكنه يعيش وكأن لا إله، ورغم هذا قد يجيب إذا سئل عن اعتقاده في قضية وجود الله بالإيجاب لا بالسلب. ومن الواضح أن هذا التوصيف لازم عن اعتقاد اقتضاء الإيمان بوجود الله الإيمان بالشرائع الإلهية أو في أضعف الأحوال بالنور الطبيعي على أنه من خلق الله تعالى.

ولدى التفحص الدقيق يتبين أن عددا ليس باليسير من البشر يعيشون بالفعل كملحدين وإن أصروا نظريا على كونهم مؤمنين .

• الإلحاد السلبي والإلحاد الإيجابي

الإلحاد السلبي هو الخلو من الفكرة المعتقدية، كحال الطفل حين الولادة، خلافاً للمنظور الديني الذي يعتقد بأن الطفل يولد على الفطرة والإيمان.

وفي هذا الخصوص ألف البارون دولباخ[23] كتاباً بمعونة دنيس ديدرو تحت اسم «نظام الطبيعة» دافع فيه عن الإلحاد بشراسة، وزعم فيه أن الأطفال يولدون ملاحدة.

وكان المفروض أن يوصف الطفل الذي يأتي إلى عالمنا هذا خلواً من أي معتقد إيماناً وإلحاداً في أسوأ الأحوال باللاأدري لا بالإلحاد كما زعم دولباخ.

وسنتعرض لاحقاً لمسألة مفطورية الطفل على الاستعداد للبحث عن الحقيقة والتساؤل بصدد أصل الوجود ومنبعه.

---

23 -البارون دولباخ (1723 - 1789) (D'Holbach م) فيلسوف فرنسي معاصر لديدرو وأحد المراجعين في الموسوعة الفرنسية وكان له صالون معروف يروّج فيه للإلحاد يؤمه مثقفون كبار وفلاسفة، رغم أنه لم يكن في أعضاء هذا الصالون ملحد حقيقي إلا أربعة يتصدرهم دولباخ ، والباقون كانوا ربوبيين (deists) يؤمنون بالله دون الإيمان بالوحي والشرائع الإلهية .

Scanned by CamScanner

البارون دولباخ

• الإلحاد الضمني والصريح والقوي والضعيف

الإلحاد الصريح explicit atheism هو الذي يصرح بالنفي ويستدل له، بمعنى أن الملحد المصرح ملحد واع بإلحاده. أما الإلحاد الضمني implicit atheism فهو الخلو من الاعتقاد في الله دون وعي بذلك فأشبه الطفل الذي يولد ولا فكرة لديه عن الإله في اعتقاد القائلين بالإلحاد السلبي.

أما الإلحاد القوي strong atheism فهو كالصريح والإيجابي، يجزم بالنفي ويقيم الأدلة على ذلك، بينما الضعيف weak atheism كالضمني والسالب، ما يعني أنه إلحاد يتمظهر عملياً، فيعيش الملحد حياته كأن الله غير موجود.

•••

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني
لمحة تاريخية عن بدايات الإلحاد

المبحث الأول
الإلحاد في الحضارات القديمة

غلبة رفض الإلحاد على أهم أديان الشرق

يمكن القول، بدون مجازفة، أن السمة الغالبة على عقائد الشرق الآسيوي هي رفض الإلحاد، بمعناه الأخص، الذي هو إنكار وجود إله مطلقاً.

ففي أهم ديانات الشرق، كالهندوسية مثلا، تجلى هذا الرفض واضحاً: فالهندوسية على ستة مدارس، ولم يعرف عن أي منها أنها نزعت نزوعاً إلحادياً. صحيح أن الهندوس يعتقدون في عدد هائل من الآلهة، فكل ظاهرة طبيعية تقريبا تفسّر بإله مسؤول عنها، لكنهم يعودون في نهاية المطاف فيعزون الآلهة كلها على تعددها إلى إله أكبر واحد مسيطر، يشهده الفرد المستنير. وهو الهندوسي الذي يبلغ المقام الذي يفنى فيه عن ملاحظة كل هذه المظاهر المتكاثرة، ولا يعود يرى إلا فعل الإله الواحد وآثاره، وهذه أعلى وأرقى درجة من درجات الاستنارة والتدين لديهم يعطى صاحبها أسماء تقديرية خاصة، من بينها «المهاتما» الذي عرف به الزعيم العالمي غاندي.

- استثناء غير صريح

نعم هناك استثناء من هذه السمة الغالبة على الهندوسية، ويتمثل في مدرسة اسمها لوكاياتا lokayata واسمها الحقيقي هو: كارافاكا carvaka ؛ وقد تأسست في القرن السادس قبل الميلاد. ورغم انتماء هذه المدرسة إلى الهندوسية فإنها لا تشكل واحدة من المدارس الست الرئيسة.

Scanned by CamScanner

معبد هندوسي

وقد طورت هذه المدرسة نزعات إلحادية مادية، تدعو إلى التمتع بالحياة لأن كل شيء زائل فان. ومن الواضح أنها تنكر الحياة الآخرة وخلودها، لكن إنكارها لله أو الآلهة ليس مصرحاً به. وإنما الأرجح أن المدارس الأخرى اتهمتها بذلك كما صرح النقاد الهنود المعاصرون.

- استثناءات مشكوك فيها

إذا نظرنا إلى أوسع تعريفات الإلحاد، فلا شك أن باب الوصم به واتهام هذه المدرسة الفكرية الهندوسية أو تلك به، حقاً أو زوراً، يصبح واسعاً ولا يمكن إغلاقه. فهناك عدة مدارس أخرى ذات نزعات إلحادية لكن ليست لدينا تفاصيل عنها، مثل « السامخيا » samkhya «والبورفا ميمامسا » purva mimamsa.

الإلحاد في الثقافة الإغريقية

ثمة رأيان متعارضان بخصوص ظهور الإلحاد: أحدهما يؤكد أنه من مختصات العصر الحديث والآخر يزعم قدمه.

Scanned by CamScanner

• هل وجد إلحاد قبل العصور الحديثة؟

فالرأي الأول يؤكد أن الإلحاد لم يولد إلا في أوروبا في العصور الحديثة، أما ما قبل ذلك، فلم يوجد إلحاد بالمعنى الحديث، وإنما كان هناك طفرات وشطحات فكرية، كما عند الإغريق، حيث تمثلت في السفسطائيين وغيرهم من أصحاب النزعات المضادة للخط العام. لكن لم يتجسد الإلحاد في مدرسة فكرية، طيلة العهد اليوناني الهيليني[24].

إلا أن هناك من يذهب إلى قدم الظاهرة الإلحادية في الفكر اليوناني الهيليني، فقد لقب الفيلسوف دياغوراس[25] بالملحد الأول، لأنه كان يتكلم في قضية الألوهية ويشكك فيها.

كما كان الفيلسوف كريتياس[26] يزعم أن الآلهة هي أفكار من صنع الخيال البشري يخوف بها الناس كوسيلة من وسائل الضبط والتحكم .

والعجيب أن هذه الفكرة ستتكرر عند العشرات من المفكرين في أوروبا الحديثة وكأنها من إبداعهم، في رأسهم فويرباخ وماركس ونيتشه وفرويد وسارتر ...الخ. ورغم أن كريتياس كان أول من قال بذلك-في رأي بعضهم- إلا أننا نجد هذه الفكرة منسوبة إلى هوميروس[27]، الشاعر المعروف صاحب الإلياذة، إن صح أنه كان شخصية تاريخية تتمتع بالواقعية. فمن رأي هوميروس أن التقديس المفرط للحكام أفضى في النهاية إلى اعتقاد تميزهم عن البشر بامتلاكهم خواصّ وقدرات خارقة، وهكذا ظهرت فكرة الإلهية، بمعنى أن الإلهية فكرة مخترعة. وجدير بالذكر أن هوميروس

---

24 . يرى بعض المؤرخين أن الحضارة الإغريقية تنقسم إلى حقبتين: الهيلينية وتمثل المرحلة اليونانية البحتة المقتصرة على العالم اليوناني وتمتد من الغزو الدوري إلى الاسكندر الأكبر، والحقبة الهيلينستية وتشمل البقاع التي تألفت منها امبراطورية الاسكندر أي بلاد اليونان والممالك الشرقية التي فتحها الاسكندر.

25 - دياغوراس Diagoras، فيلسوف يوناني، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، واشتهر بإلحاده وإنكاره للآلهة للآلة الإغريقية.

26 - كريتياس Critias، كاتب وسياسي يوناني، ولد في حدود 460 و450 قبل الميلاد ومات في 403 قبل الميلاد.

27 - هوميروس، شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة. بشكل عام، آمن الإغريق القدامى بأن هوميروس كان شخصية تاريخية، لكن الباحثين المحدثين يُشككون في هذا، ذلك أنه لا توجد ترجمات موثوقة لسيرة له باقية من الحقبة الهيلينية، كما أن الملاحم المأثورة عنه تمثل تراكما لقرونٍ عديدة من الروايات الشفوية. يعتقد المؤرخون أنه إن وجد فهو في القرن الثامن قبل الميلاد.

Scanned by CamScanner

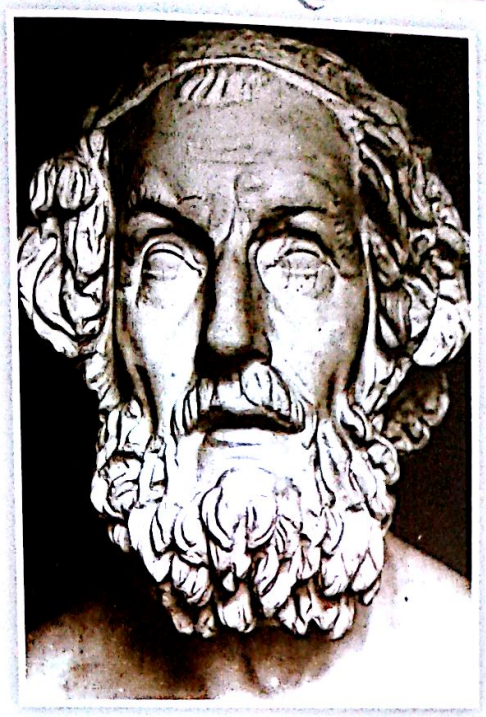

هوميروس

لم يصرح مرة بأنه ملحد وإنما سخر من الملاحدة في ملحمتيه الشهيرتين، ومع ذلك فقد ألصقت به تهمة الإلحاد.

• الذريّون والشكاكون والإلحاد

قد ذكرنا أن الذريّين، بشكل عام، وفي مقدمتهم أستاذهم الأكبر ديموكريتوس، شرحوا العالم الطبيعي بمبادئ طبيعية مادية ولم يحتاجوا إلى مبدأ مفارق؛ فمهدوا بهذا للإلحاد، كما أن بروتاغوراس الشكاك السفسطائي الشهير معدود من جملة الملاحدة. فقد نقل عنه شيشرون في كتابه (طبيعة الآلهة) أنه افتتح أحد كتبه بالقول: الآلهه لا أعرف هل هي موجودة أو غير موجودة؟ فطرده الأثينيون من بلادهم وتواصوا بحرق كتبه.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد أعلن فيلسوفان عدم إيمانهما بالآلهة، الأول ستراتو[28] والثاني تيودوروس[29].

---

28 – Strato of Lampsacus فيلسوف يوناني مشائي ، المدير الثالث لليسيوم (المدرسة التي أسسها أرسطو) بعد وفاة ثيوفراستوس 335 - 269 ق.م.

29 – 340 – 250 Theodorus of Cyrene ق.م فيلسوف من قورينا وهي مدينة الشحات بليبيا الحالية، آمن بأن المتعة هي غاية الحياة، وكلامه عن الآلهة موجود في كتابه (عن الآلهة) On the Gods

Scanned by CamScanner

• أبيقور وحجة الشر

كان أشهر من اتهم بالإلحاد في الثقافة الإغريقية هو الفيلسوف أبيقور Epicurus. وإلى الآن نرى الكثير من الملاحدة يحتجون بأبيقور ويعولون على حججه الإلحادية؛ فالرجل أبلغ من صاغ حجة الشر، ومفادها: كيف نؤمن بالله الخير المحب القدير، ونحن نرى العالم يعج بصور لا تحصى من الظلم والشرور والمعاناة.

فإما أن يكون الرب عالماً مطلعاً على كل هذه المظالم والشرور ويريد تغييرها وإزالتها ولكنه لا يستطيع، وبالتالي هو غير جدير بأن يكون إلهاً لأنه عاجز.

وإما أن يكون جاهلاً بما يجري في كونه والجاهل لا يليق به أن يكون إلهاً.

وإما أن يكون عالماً بما يجري وقادراً على تغييره ولكنه لا يريد تغييره فيكون في هذه الحالة إلهاً شريراً والشرير لا يكون إلهاً.

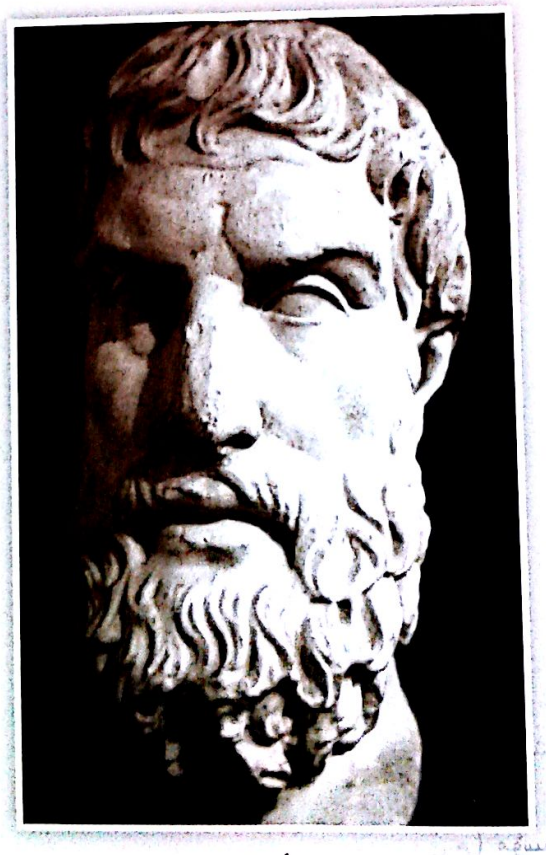

أبيقور

Scanned by CamScanner

وإما أنه يعلم ويريد ويقدر، لكننا مع ذلك لا نزال نرى العالم غاصاً بالشرور والعذابات وينتج من هذا أن ليس هناك إله أصلاً.

لقد ظل الملاحدة ينظرون إلى هذه الحجة على أنها واحدة من أقوى وأصلب الحجج الداعمة للإلحاد. وليس من النادر أن تصطدم بها في كل كتاب إلحادي وفي كل مواجهة مع الملاحدة المعاصرين كريتشارد دوكينز مثلا.

• إنكار العناية الإلهية من اليونان إلى الرومان

ينبغي التنبيه إلى أن أبيقور لم يكن ملحداً بالمعنى الأول من الثلاثة المعاني التي ذكرها أفلاطون، أي أنه لم ينكر وجود الآلهة، وإنما اعترف بوجودها وتحدث عن تركيبها، فقد كان من أتباع ديموكريتوس في مذهبة الذري، وقد قدم منظوراً ذرياً للآلهة، فصورهم مركبين من ذرات صغيرة متموضعين في عوالم وسيطة، لكنهم غير معنيين بمصير الإنسان، بمعنى أنه أنكر العناية الإلهية، فيكون ملحداً بالمعنى الثاني.

وكذلك أنكر الشاعر الروماني لوكريتيوس[30] العناية الإلهية إلى جانب إفصاحه عن لاأدريته فقد قال: «إذا كانت هناك ثمة آلهة، فيبدو أنها لا تعنى بأمر الإنسان». وهذا عطف وتنويع منه على حجة الشر. فهو يتردد حائراً بين أمرين: تفسير نشوء الكون الذي يستلزم وجود إله، وتبرير الشرور والمظالم التي تستبعد بدورها وجود العناية الإلهية، ولعل الرجل رأى أن من الأيسر إنكار العناية الإلهية بدل المجازفة بإنكار الإله رأساً.

• البيرونية والإلحاد

البيرونية Pyrrhonism[31] مدرسة شكوكية، أقرب ما تكون إلى اللا أدرية، بل هي

30 . لوكريتيوس كاروس Lucretius Carus (حوالي 99 - 55 ق.م) فيلسوف وشاعر روماني، ضمّن آراءه في الآلهة في عمله الوحيد المعروف لنا وهو قصيدته الفلسفية عن طبيعة الأشياء De rerum natura وهي على المشرب الأبيقوري.

31 . نسبة الى بيرو او بيرون من إليس 270- 360 (Pyrrho of Elis ق.م) مؤسس مذهب الشك المنسوب إليه-

Scanned by CamScanner

أسوأ؛ وذلك أنها ترى أن عقل الإنسان غير مؤهل أصلاً لمعرفة حقيقة الأشياء، أي جوهرها الكامن خلف ظواهرها.

وبناء على استحالة تلك المعرفة ترى هذه المدرسة أن من الخير للإنسان أن يعيش في حالة من السلام العقلي(peace of mind) أو راحة البال mental repose من غير أن ينغص حياته بالبحث في مسائل ليس مهيئاً للبحث فيها. وفي عالمنا اليوم هناك نسبة كبيرة من البشر في العديد من البلدان كاليابان مثلاً، تعيش وفق هذا المنطق، أو ما يسمى باليونانية (أتاراكسيا) Ataraxia.

وسوف نرى لهذه المدرسة آثاراً بعيدة في جماعة من كبار الفلاسفة خاصة ديفيد هيوم[32] الذي لقب نفسه بالفيلسوف الشكاك وكان يمتدح قدامى الشكوكيين وينوه بهم، وإيمانويل كانت[33] الذي وجّه ضربات موجعة لمذهب اليقين في عالم الفلسفة بعد أن أيقظه هيوم من سباته الدوغماطيقي، كما أنها ستترك آثارها القوية في المنطق التجريبي.

• الفرق بين الشكوكية Scepticism واللا أدرية Agnosticism

يرى بعضهم أن ثمة فرقاً جوهرياً بين الشكوكي واللاأدري، وإن كان الشائع أن اللاأدرية ضرب من ضروب الشكوكية خاص. فاللا أدري شخص إيجابي لم يركن إلى اليأس ابتداء، وإنما درس وفحص وقارن، ثم انتهى إلى تكافؤ أدلة الفريقين: المثبتين والنفاة، فآثر أن يقف موقف الحياد.

وفي المقابل، فإن الشكوكي شخص سلبي آثر الدعة ابتداء، فلم يشغل نفسه بالخوض

- (البيرونية)، ويُعد إمام الشك القديم بينما يعد ميشيل مونتاني Montaigne إمام الشك الحديث.

32 - ديفيد هيوم (1711 - 1776)David Humeم، فيلسوف شكوكي واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي وشخصية مهمة في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الاسكتلندي.

33 - إيمانويل كانت 1724 - 1804 (Immanuel Kant) فيلسوف ألماني شهير، تأثر كثيراً بهيوم، وعُرف بفلسفته النقدية المتمثلة في ثلاثيته: نقد العقل الخالص ونقد العقل العملي ونقد ملكة الحكم. يعتبره بعض النقاد آخر فيلسوف مؤثر في أوروبا الحديثة في التسلسل الكلاسيكي لنظرية المعرفة خلال عصر التنوير الذي بدأ بالمفكرين جون لوك، جورج بركلي وديفيد هيوم.

Scanned by CamScanner

في غمار مسألة لاح له مدى المشقة التي يمكن أن تلحقه من جرّاء تفحصها وسبر شتى الآراء والمذاهب فيها، فضرب عنها صفحاً معزياً نفسه بأن من الخير له العزوف عنها، مسترشداً بإمام الشك بيرون الذي قرّر أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة، فما جدوى إرهاق النفس إذن وإطماعها في غير مطمع؟ فالأفضل أن يعلق المرء الحكم ابتداء ما دامت النتيجة معروفة سلفاً suspension of judgment. فالشكوكي فاقد للثقة في قدرة عقله قبل فقده إياها في موضوع البحث.

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

الإلحاد في القرون الوسطى

الإلحاد في الحضارة الإسلامية

في العصر الوسيط الإسلامي، لم يُعرّف الإلحاد بمعنى إنكار الربوبية، وإنما عرف بمعاني أخرى، أهمها الطعن في النبوات والرسالات السماوية، أو الطعن في تصور معين لله تعالى، وكان هؤلاء الطاعنون، أحيانا، من مشاهير العلماء، مثل محمد بن زكريا الرازي[34].

- الطعن في الرسالة وحجته

يحتج الرازي على إبطال النبوة بالقول: إن التشريعات التي يأتي بها النبي لا تخلو من أن تكون مطابقة للعقل أو منافية له، فإن طابقته ففيه غنية عنها فلم تبق حاجة إلى إرسال الرسل، وإن خالفته فهي باطلة غير معقولة وهذه الحجة مقتبسة من الهندوسية.

ومن قبلُ نهج ابن الراوندي قريباً من هذا النهج [35]، فقد طعن في النبوة والقرآن؛ وله في ذلك كتب وضعها منها: مخاريق الأنبياء، والقضيب، والزمرد، وغيرها.

34 - أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي عالم وطبيب فارسي (250 هـ/864 م311-هـ/ 923م)، وهو أحد أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق كما وصفته زغريد هونكه. ألف كتاب «الحاوي» في الطب الذي ضم خلاصة المعارف الطبية اليونانية والفارسية والهندية فضلا عن العربية. وظل المرجع الطبي الرئيس في أوروبا لمدة 400 عام بعد ذلك التاريخ. وله 200 كتاب ومقال في مختلف جوانب العلوم.

35 - ابن الراوندي هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين أصفهان وكاشان في فارس، ولد عام 210 هـ، وتوفي في الأربعين من عمره. شهدت حياته تحولات مذهبية وفكرية كبيرة فقد كان في بداياته العلمية واحدا من أعلام المعتزلة في القرن الثالث الهجري ولكنه تحول عنهم وانتقدهم بشدّة في كتابه «فضيحة المعتزلة» ردا على كتاب الجاحظ «فضيلة المعتزلة» ثم اعتنق لبرهة وجيزة المذهب الشيعي الإمامي وله كتاب «الإمامة» من آثار تشيعه القصير ولكن لقاءه بأبي عيسى الوراق الملحد قد أخرجه من التشيع والإسلام وتحول بعده ابن الراوندي إلى أحد أهم اللاأدريين والزنادقة في التاريخ الإسلامي. لم يصل إلينا شيء من تآليفه إلا ما نقله عنه خصومه أو ما نسبه إليه المعجبون به. فكتاب «الانتصار» للخيّاط المعتزلي هو ردّ وتفنيد لمقولات ابن الراوندي التي أودعها في كتابه «الزمرّد».

Scanned by CamScanner

• الطعن في تصور الله

تصور الإله كان دائماً محل نزاع بين الفلاسفة المؤمنين بالله من جهة وبين اللاهوتيين والمتكلمين من الجهة الأخرى، لا في الإسلام وحده وإنما في الأديان كافة. فصورة الله عند الفلاسفة الإسلاميين كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن عربي الصوفي تختلف عنها لدى المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والإمامية والزيدية وسواهم، وكذلك الحال في السياق المسيحي. كما أن الفلاسفة فيما بينهم يختلفون في تصورهم لله اختلافاً ليس باليسير، فها هو باروخ سبينوزا الذي تمحورت فلسفته كلها على الله يُقدّم تصوراً له يختلف كثيراً عن تصور ديكارت[36] مثلا، وإله مالبرانش يختلف كثيراً عن إله هيغل. ففي الفلسفة كما في الدين توجد تصورات وحدوية لله وأخرى حلولية وثالثة تشبيهية أنسنية إلى جانب التصورات التنزيهية.

الإلحاد والهرطقة المسيحية

في أوروبا الوسيطة كان من المستحيل تقريباً أن يعلن أحد إلحاده وذلك بسبب طغيان السلطة الكنسية في ذلك الوقت. لكن ظهرت في أواخر العهد الوسيط حركات هرطقية، وتماثل ظاهرة البدع الاعتقادية في التراث الإسلامي، ما يجعلها من باب الانحراف عن الخط المستقيم للعقيدة (الأرثوذكسية) لا من باب إلحاد الإنكار والنفي.

• نماذج من الهرطقة

وقد عومل الهراطقة معاملة في منتهى القسوة من طرف الكنيسة، ومع ذلك نجح

36 - رينيه ديكارت 1596- 1650 (Rene Descartes)، فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ«أبو الفلسفة الحديثة»، من مؤلفاته : «مقال في المنهج»، و«تأملات في الفلسفة الأولى». وهو صاحب الكوجيتو الشهير :«أنا أفكر، إذن أنا موجود».

Scanned by CamScanner

مارتن لوثر

ويليام الأوكامي

بعضهم في النجاة ببدعته وتمريرها إلى الأجيال اللاحقة . وكان من بين أولئك نيكولاس الكوزي(1401 - 1460) Nicholas of Cuza ، الذي طور فهما خاصا للإيمان عبر قوله بالاعتقاد الجاهل، وقد نظر إليه على فهم هرطوقي، ومؤداه أنه لا يمكن التعاطي مع الله تعالى بالعقل، فالعقل ليس أداة كافية ولا أمينة في هذا الصدد، فالأفضل سلوك سبيل التسليم وإيلاء الأنبياء والقديسين ثقتنا الكاملة العمياء.

كذلك برز ويليام الأوكامي[37] بمذهبه الاسمي الذي أنكر وجود المفاهيم الكلية. واضعاً بذلك حجراً كبيراً في أساس المذهب المادي لأن إنكار المفاهيم الكلية ينجرّ عنه بالتبع إنكار مشروعية الميتافيزيقا رأساً، وكان من رأي ويليام الأوكامي ذاك أن العقل الإنساني عاجز بطبيعته عن معرفة الله ، وقد قدّم بمثل هذه الأفكار المسوّغ لمن ينادي بالإيمان سبيلاً للفهم: أؤمنُ لأفهم، عوض أن يكون الفهم والعقل هما سبيل الإيمان.

37 - ويليام الأوكامي 1288 - 1348 (William of Ockham) فيلسوف إنكليزي وأحد كبار مفكري العصور الوسطى.. وهو صاحب المبدأ الشهير بنصل أوكام Occam`s razor الذي ينص على ضرورة الاقتصار على أقل عدد ممكن من المبادئ في تفسير الظاهرة.

Scanned by CamScanner

• البرهان الوجودي ومعارضوه

لعل أول من حاول أن يعكس هذه المقولة: أؤمن لأفهم هو أنزيلم من كانتربيري[38].

صاحب البرهان الوجودي. فرغم أنه كان دائماً يؤكدها فإنه ببرهانه الوجودي جعل الفهم مقدمة للإيمان، وقد شكّل هذا تطوراً في الدرس اللاهوتي نحو العقلنة.

وخلاصة هذا البرهان أنه ما من شيء يمكننا تصوره إلا أمكن أن نتصور ما هو أعظم منه إلى أن نصل إلى تصور شيء لا يقدر الذهن على تصور ما هو أعظم منه وذلك هو الله.

وقد تعرض هذا البرهان لجملة من الانتقادات لعل من أشهرها ما قدّمه ايمانويل كانت بقوله: «يمكنني أن أتصور كثيراً من الأشياء وهي غير موجودة» بمعنى أن جريان شيء ما في تصورنا ليس مبرراً كافياً للاعتقاد بوجوده وإعطائه واقعية ما.

لقد أثرت هذه الاستقطابية الثنائية: (العقل والإيمان) في كبار اللاهوتيين، مثل جون ويكليف[39]، وجون هاس[40]، ومارتن لوثر[41].

---

38 - القديس انزيلم من كانتيربيري 1033 - 1109.(Saint Anselm of Canterbury) كانتربيري-انكلترا، لقب بأوغسطين الثاني بسبب تأثره الكبير بأفكاره. يعد أبا للفلسفة المدرسية.

39 -جون ويكليف 1328 - 1384 ،(John Wycliffe)، ثيولوجي ومترجم ومصلح مسيحي إنكليزي. عمل مستشارا لاهوتيا لملك إنكلترا، هاجم سلطة البابا المطلقة، ومبدأ الاستحالة الجوهرية في الافخارستيا. أعظم إسهاماته كان ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنكليزية الدارجة. ثارت الكنيسة عليه بسبب ذلك ومنعت نشر الكتاب لاحقا. آمن بأن سلطة الكتاب المقدس هي فوق كل سلطة أخرى. بعد موته أدين بالهرطقة، وأحرقت كتبه بل وحتى عظامه أخرجت من القبر وأحرقت بأمر من البابا. تكمن أهمية ويكليف في أنه يعتبر مع جون هس أبرز المصلحين قبل الإصلاح البروتستانتي.

40 -جون هس (1372 -1415) (Jan HUS). مفكر ديني، وفيلسوف ومصلح تشيكي. درس في جامعة تشارلز في براغ. لجون ويكليف المصلح الإنكليزي تأثير واضح في أعماله. اقترح هس فكرة إصلاح الكنيسة في التشيك، واتبعه العديد من الناس في بلاده، وسمي المعتدلون منهم بالهوسيتيين بينما أطلق اسم التابوريتيين على أتباعه الراديكاليين (التابوريتيون رفضوا أي إجراءات تتبعها الكنيسة لا يوجد لها أصل في الكتاب المقدس). اتهم جون هس من قبل الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة وأعدم حرقا عام 1415. لجون هس تأثير كبير على حركة الإصلاح البروتستانتي وعلى مارتن لوثر نفسه.

41 - مارتن لوثر 1483 - 1546 ،(Martin Luther)، راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران. نشر في عام 1517 رسالته الشهيرة المؤلفة من خمس وتسعين نقطة تدور على مسائل التكفير عن الخطايا وحدود سلطة البابا في روما وأهمية أعمال البر في التكفير والخلاص، وهي الاعتراضات التي شكلت انطلاق البروتستانتية.

Scanned by CamScanner

ومهما يكن موقفنا من هذه الثنائية فمن الصعب - ربما - أن نتهرب من الإقرار بأن في الإيمان في نهاية الأمر جزءاً تسليمياً، يمكنك أن تدعوه رهاناً كما فعل باسكال أو قفزة في المجهول كما صنع كيركيجور أو تبقى مؤثراً للمصطلح السائد: التسليم.

•••

Scanned by CamScanner

الباب الثاني

تطور الظاهرة الإلحادية من النهضة إلى العصر الحديث

Scanned by CamScanner

الفصل الأول
النهضة الأوروبية والظاهرة الإلحادية

المبحث الأول
الإلحاد في معترك النهضة

الميراث الأول للنهضة: التجربة والتشكيك

من المعلوم أن عصر «الرنيسانس»، أو عصر النهضة، قد ساهم في اتساع نطاق التفكير التشكيكي، والتساؤل حول صدقية الغيبيات. كما مهّد ذلك العصر لاعتماد التجربة وسيلة للتحقق العلمي مرهصاً ببزوغ الفلسفة التجريبية المادية..

- **دافينشي والتجربة**

فقد طرح أحد أكبر رموز النهضة - إن لم يكن أكبرهم طرّاً - الرسام والمخترع ليوناردو دافينشي[42] التجربة كوسيلة للإيضاح، وهو ما لم يكن معروفاً في السياق الأوروبي قبل ذلك؛ السياق الذي كان محكوماً بالنظام الفكري الأرسطي، الذي حقق بفضل الفلسفة المدرسية Scholasticism التفوق على النظام الفكري الأفلاطوني الذي كان غالباً على اللاهوت الكنسي.

ومن المعروف أن أرسطو لم يكن يقيم كبير وزن للتجربة وإن مارسها أحياناً، فالفيلسوف الحق عنده من يتمكن من استلال نظام الوجود والأشياء بالعقل النظري عبر الفكر والتأمل بعيداً عن التجريب والاختبار العملي..

---

42 - ليوناردو دافينشي 1452 - 1519 (Léonardo Da Vinci م)، صاحب اللوحة المعروفة «موناليزا» يعد من أشهر رسامي النهضة الإيطاليين على الإطلاق وهو إلى جانب ذلك نحات، معماري، وعالم.

Scanned by CamScanner

وبعد أن طرح دافينشي التجربة كوسيلة أساسية للإيضاح أصبحت فيما بعد وسيلة للبرهنة إلى أن غدت مع استبحار النزعة العلموية الوسيلة الوحيدة تقريباً، وأصبح كل ما لا يمكن التحقق منه تجريبياً لا مصداقية له.

- استفحال التشكيك والانشقاقات الكنسية

استفحل الأمر بحيث تطرق التشكيك إلى كل الأنظمة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والدينية. وقد تجلى هذا في كتب ماكيافللي[43] الذي شكك في النظام القيمي على المستوى السياسي.

أما الإصلاح الديني فقد عمل على طرح وجهات نظر مختلفة عن السائد الكاثوليكي. فانقسم المسيحيون إلى كاثوليك وبروتستانت؛ ثم طال الانقسام البروتستانتية ذاتها التي انقسمت،منذ البداية، إلى كالفينية ولوثرية ومذهب زفنغلي، والبروتستانتية اليوم في الولايات المتحدة وحدها زهاء ألف فرقة.

وبالطبع دفع هذا في اتجاه مزيد من مساءلة المعتقدات الدينية بما شمل صدقية الدين نفسه من حيث هو؛ فضلاً عن صدقية النصوص المقدسة التي انحدرت إلينا من عهود بعيدة مرت مسّها فيها غير قليل من الإضافة والتعديل والتبديل.

تصور الإله بين ديكارت وسبينوزا

في الوقت الذي انتشر النقد للدين وتعاليمه وللمؤسسة الكنسية بدأنا نشهد بروز جهود فلسفية جديدة في مضمار البرهنة على وجود الله. فرينيه ديكارت. على سبيل المثال . يؤكد وجود الأفكار الفطرية الواضحة بذاتها والتي لا يُطلب عليها برهان وإنما هي أساس البرهان، ليمضي بعد ذلك إلى إثبات الذات الإلهية. هذا وقد انتهى ديكارت إلى تقرير أن وجود الله تبارك وتعالى هو الضمانة للتفكير الصحيح عند

43 - نيكولو ماكيافيللي، 1463 - 1527 (Nicollo Machiavelli)، سياسي ومؤرخ إيطالي، من رواد عصر النهضة الإيطالية. اشتهر بكتاب «الأمير»، حيث فصل فيه الحديث عن أساليب الحكم الناجحة وعرف لدى الكافة بمقولته الشهيرة: الغاية تبرر الوسيلة، المقولة التي تلخص روح الميكافيلية.

Scanned by CamScanner

سبينوزا

ديكارت

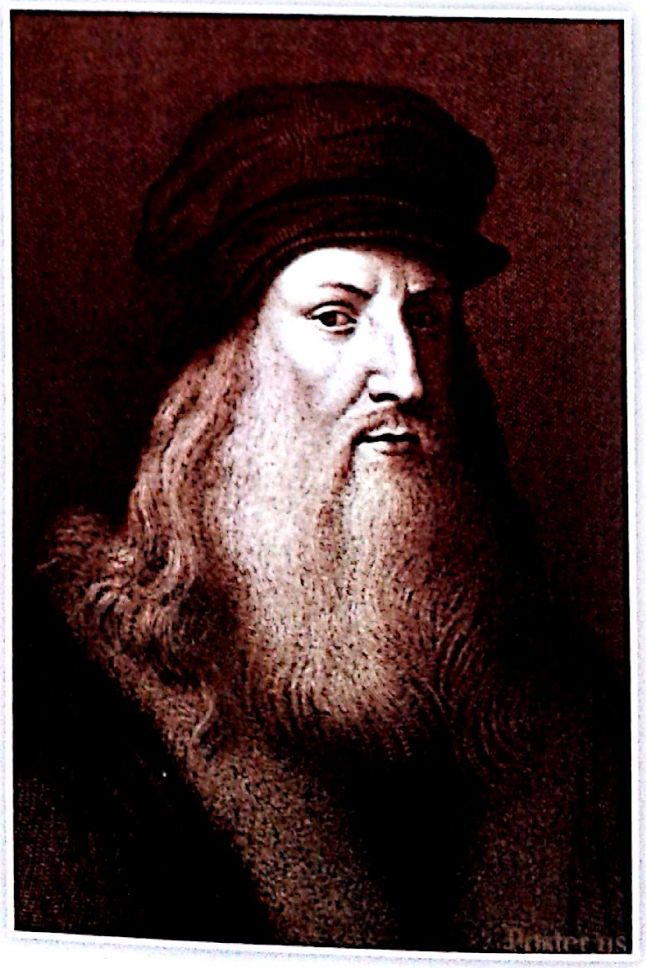

دافنشي

Scanned by CamScanner

الإنسان. وقد أحدث ديكارت بأفكاره حراكاً فلسفياً عارماً تجلى في عدد من نابهي الفلاسفة الذين عرفوا بالديكارتيين.

لكن ديكارت من خلال أفكاره ولّد أيضاً نقيضه؛ ومن هؤلاء يمكن تسمية سبينوزا[44]؛ حيث لم يؤمن سبينوزا بالإله المفارق الذي يمكن أن يقام برهان وجوده على حجج عقلية، وذلك خلافاً لديكارت.

• إله متعالٍ أم إله متدخل؟

إن دراسة تطور الفكر الديني في مختلف الثقافات - بما فيها البدائية - تؤكد حقيقة أن الإله يُفقد إذا تم تصويره في صورة المتسامي المتعالي بالمطلق، أي ينصرف الناس عن الإيمان به، فما حاجة الناس إليه ما دام لا يلتفت إليهم ولا يعنى بهم، وهكذا يمحوه الزمن شيئاً فشيئاً من وجدان الناس إلى أن يصير نسياً منسياً. إن أقواماً آمنوا بالإله وعبدوه لكنهم ما إن جردوه وخلعوا عليه كامل التسامي والتعالي حتى فقدوه.

وقد صرح جان بول سارتر[45]- أحد ملاحدة العصر الكبار - أنه لا ينكر وجود الإله بالمطلق، لكن هذا الإله كان موجوداً في يوم من الأيام، وكان ينطق ويتصل بالإنسان، ثم صمت ففقدناه ولم نعد بحاجة إليه، وسنعيش بدونه وذلك أفضل على كل حال، لأننا سنضطر في هذه الحالة إلى مواجهة مسؤولياتنا وحدنا ومباشرة، الأمر الذي سيعمل على إنضاجنا وتنمية إمكاناتنا وقدراتنا.

من جهته رفض الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين[46] فكرة الإله المشخصن

---

44 -باروخ سبينوزا: 1632 - 1677 ،(Baruch Spinoza)، هو فيلسوف يهودي هولندي من أشهر فلاسفة القرن 17. فكرته عن الله وحدوية. وقد ورطته أفكاره في صراع مع أبناء جاليته اليهودية والمجتمع بشكل عام، فكان منبوذا من أهله وتعرض لمحاولة طعن من قبل أحد المتشددين،من كتبه:رسالة في اللاهوت والسياسة، والأخلاق.

45 - جان بول سارتر (1905 - 1980) (Jean-Paul Sartre) هو فيلسوف وجودي ملحد وروائي وكاتب مسرحي وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي. من أهم كتبه «الوجود والعدم».

46 -لودفيغ فتغنشتاين (1889 -1951) ،(Ludwig Wittgenstein) فيلسوف نمساوي مهتم بفلسفة اللغة وأسس المنطق، أثّر كثيرا في الوضعية المنطقية وفلسفة التحليل، من أهم كتبه: رسالة منطقية فلسفية، وتحقيقات فلسفية.

Scanned by CamScanner

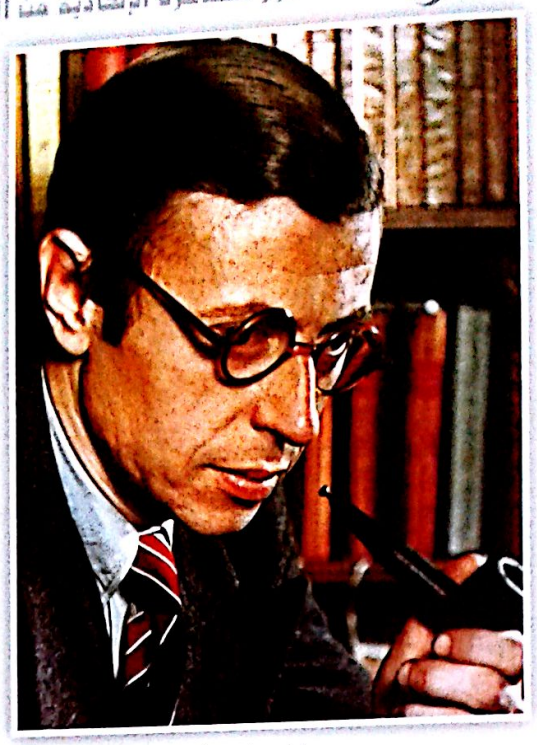

جان بول سارتر

المتعالي، فكتب يقول: «إذا ظللنا نصر على أن الله متعالٍ عنا، فهذا يلزمني أن أعلن له التحدي.» أنت هناك وأنا هنا، أنت وأنا.

ومن قبل لم يؤمن هيغل بإله متعال متسام، وإنما آمن بإله يتطور عبر تجلياته في الطبيعة، وذلك أقرب في العموم إلى إله المسيحية من إله اليهودية.

لكن ما ظلّ يتكرر ويتردد خاصة في لاهوت الأديان التوحيدية هو العكس تماماً، فالإله يتدخل في الشأن الطبيعي والإنساني معاً بشكل ينتهك حرمة الحرية الإنسانية والقوانين الطبيعية جميعاً، وهذا ما سيرفضه العقل العلمي في العصر الحديث لأسباب كثيرة.

وهنا تكمن المشكلة: لا حاجة بنا إلى إله متسام عنا بالمطلق، لكن في المقابل فإننا لم نعد مستعدين لمواصلة قبول ما لم ير أسلافنا أدنى حرج في قبوله، أعني التدخل السافر للإله في مجرى الحوادث الطبيعية وانتهاكه لحرية البشر، فأين نقطة الوسط؟

• سبينوزا والثنائية الديكارتية

وهي مشكلة لا يعانيها النسق الفلسفي الميتافيزيقي الذي قدّمه سبينوزا، فالإله الذي آمن به مغاير تماماً للإله المشخصن الذي يؤمن به أتباع الديانات التوحيدية

Scanned by CamScanner

وهو الإله الذي آمن به ديكارت. فإله سبينوزا ليس شيئاً وراء الطبيعة والعالم أو غيرهما، ليس إلهاً مفارقاً لكنه إله محايث مندمج في كل شيء وإنكاره يستلزم إنكار الطبيعة على حد تعبيره. وقد آمن ألبرت آينشتين بإله سبينوزا لا بإله التوراة.

وبديهي أن هذا الاعتقاد يستلزم إنكار العناية الإلهية، لأن العناية تنتظر من إله مفارق يرقب ويتدخل ويغير، لا من إله مندمج في كل شيء غير خارج عن العالم.

إن أشهر الديكارتيين هم «مالبرانش[47]» «لايبنيتز[48]» و«باروخ سبينوزا». ووحده من بين هؤلاء استطاع سبينوزا أن يخطو الخطوة التي لم يجرؤ ديكارت على أن يخطوها: التخلي عن هذه الثنائية والإيمان بالواحدية، وفي هذا بالذات تمثلت «عقلانية سبينوزا».

صحيح أن سبينوزا في أول كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة» يؤكد الثنائية ويصرح بأن الدين له مجاله، والفلسفة لها مجالها، ويجب أن يحتفظ لكل منهما بمجاله الخاص. وهكذا يكون سبينوزا قد اجترح حلاً توفيقياً بين المجالين المتخاصمين على الزمن، ربما كحل وسط لجأ إليه تحت ضغط المجتمع؛ لكنك بعد أن تمضي معه أشواطاً في رسالته المذكورة لن تخطئ ملاحظة إعطائه العقل الأولوية على الدين بشكل فاقع.

وتجدر الإشارة إلى أن الفلسفة في ذلك الزمن كانت تضم الميتافيزيقا والعلم الطبيعي معاً، فالعلم الطبيعي لم يكن إلى ذلك الحين قد أنجز مهمة انفصاله التام عن الفلسفة واستقلاله عنها منهجاً وموضوعاً. لذلك لما ألف إسحاق نيوتن كتابه «البرنسيبيا»، سماه المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية، وكان يريد بالفلسفة الطبيعية الفيزياء والميكانيك.

لقد زرع سبينوزا بأفكاره القنابل الموقوتة[49] التي انفجرت في عصر التنوير، أي

47 -نيكولا مالبرانش (Nicolas Malebranche)؛ 1638 –1715، كان خطابيا وفيلسوفا عقلانيا فرنسيا. في أعماله، سعى إلى تجميع أفكار القديس أوستين وديكارت؛ بهدف إظهار الدور الفعال لله في كل جانب من العالم. اشتهر مالبرانش لمذاهبه الخاصة بإدراك الله والعرضية.

48 -غوتفريد فيلهيلم لايبنتز (1646 - 1716) (Gottfried Wilhelm Leibniz). هو فيلسوف وعالم طبيعة وعالم رياضيات ودبلوماسي ومكتبي ومحام ألماني.

49 - قال حسن حنفي مترجم رسالة سبينوزا : «ان الألغام التي زرعها سبينوزا في عصره، انفجرت فيما بعد، ولا تزال تنفجر إلى اليوم».

Scanned by CamScanner

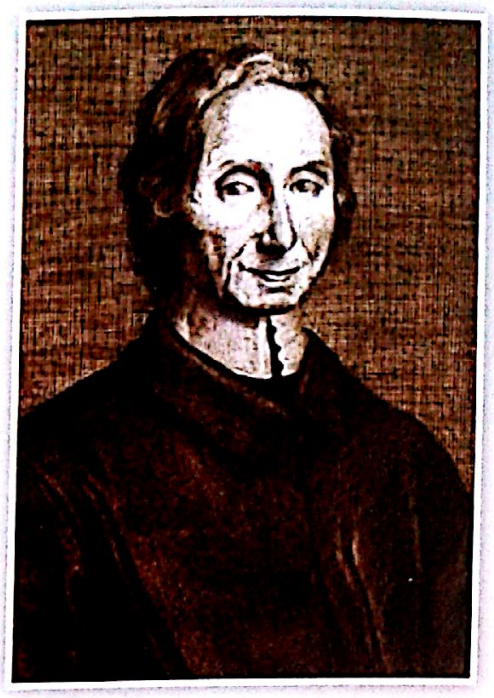

مالبرانش

نيوتن

القرن الثامن عشر، فقد مثّلت تلك الأفكار الجسورة الجموحة خطوة البدء في مشوار التشكيك في مصداقية الكتاب المقدس والتراث الديني المسيحي واليهودي بعامة.

هذه هي الصورة الكلية غير المأنوسة للمفكر: سبينوزا الذي لاينكر وجود الإله ولكنه لا يؤمن بإله اللاهوت المتشخصن المفارق للعالم، وبالتالي فهو منكر للعناية الإلهية، وأما الكتاب المقدس فرغم عدم تصريحه بالكفر به إلا أن النقود التي وجهها إليه عملت على خلخلة لا ثقته هو وحده بمصداقيته وإنما ثقة الألوف من المفكرين والدارسين الذين سيتلونه.

• ديكارت في نظر باسكال

كتب الفيلسوف والعالم المؤمن المتحمس بليز باسكال يقول: «لن أغفر لديكارت فعلته، فقد كان يسعى في كل فلسفته إلى أن يستغني عن الرب» ثم يقول «على أنه لما لم يكن قادراً على البوح بهذا القصد اكتفى بأن يسند إلى الرب وظيفة النقر بالإصبع من أجل تحريك الكون، وبعدئذ استغنى عنه ولم يعد بحاجة إليه.» وبالفعل هذا ما حدث مع إسحاق نيوتن، الذي أعطى لله فقط دور ملء ساعة الكون وإصلاح بعض ما يعتري عملها من خلل. وقد بلغت هذه الفلسفة نهايتها المنطقية مع العالم الفلكي والرياضي الفرنسي بيير سيمون لابلاس(1749-1827) الذي أهدى نسخة من كتابه «ميكانيكا الأجرام السماوية» إلى نابليون الذي ريع من عدم ذكر «لابلاس» لله ولو مرة واحدة

Scanned by CamScanner

في كتابه، فسأله عن سر ذلك مذكرا إياه بأن نيوتن نفسه كان من المؤمنين بوجود الله، فأجابه بأنه لم يجد نفسه محتاجاً لفرضية (الله) لتفسير الكون. وبوثوقية - سيثبت العلم لاحقاً مدى فجاجتها وغرورها - ادّعى لابلاس أنه قادر في حال توفرت له المعطيات الأولية الخاصة بأي جسم على التنبؤ بمساره ومصيره إلى ألوف السنين في المستقبل، إنها النظرة الميكانيكية في شكلها الحتمي الصلب.

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

موقع الإلحاد من صراع العلم والكنيسة

النزاع بين العقائد اللاهوتية والعلم

كانت الفلسفة المسيحية المدرسية ترى أن الطبيعة لا يمكنها أن تقول شيئاً عن الله وأنها صامتة في هذه المسائل على حد تعبير توما الأكويني[50]. فقط هو الوحي الذي يتكلم، وبفهمه يمكننا إصابة الحقيقة. وذلك على العكس تماما من موقف العلم الذي يرى أن الطبيعة تتكلم وتنبئ عن الله وصفاته وقدرته وأبديّته وأزليته وكليته في العلم وكليته في الإرادة وكليته في الحضور[51]. لقد كان هذا التعارض الحاد في النظرة سبباً لنشوب نزاع آخر بين العلم واللاهوت لن يرجح فيه ميزان اللاهوت، وسيجد الشكاك والملاحدة في العلم عوناً لهم في خصامهم مع الدين.

في سياق مختلف أتت الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر وما ترتب عليها من اكتشاف ثقافات وحضارات وأديان أخرى غير مألوفة، لمجتمعات وشعوب كبرى وصغرى لتشكل مدداً جديداً للشك، فالمسيح الذي كان يُعتقد أنه مخلص الجنس البشري كله لم تسمع به حتى شعوب كبيرة لها تاريخها وإنجازاتها كما أن لديها من القيم والنظم والمفاهيم ما يمكنها من تسيير حياتها على نحو معجب ينأى بها عن الهمجية والبدائية، فما هو الحجم الحقيقي لدور المخلص الذي لم يسمع به مئات ملايين البشر؟ وهكذا طرّقت تلك الكشوف طرقاً جديدة للتشكيك في الموروث الديني الذي فقد كونيته المظنونة، نعم لم تدفع تلك الكشوف بالناس إلى أحضان الإلحاد

---

50 – القديس توما الأكويني ، (1225 – 1274)، قسيس كاثوليكي إيطالي من الرهبانية الدومينيكانية، فيلسوف ولاهوتي مؤثر ضمن تقليد الفلسفة المدرسية. أحد معلمي الكنيسة الثلاثة والثلاثين، ويعرف بالعالم الأنغليكاني (Doctor Angelicus) والعالم المحيط (Doctor Universalis). كان أحد الشخصيات المؤثرة في مذهب اللاهوت الطبيعي، وهو أبو المدرسة التوماوية في الفلسفة واللاهوت. تأثيره واسع في الفلسفة الغربية، وكثيرٌ من أفكار الفلسفة الغربية الحديثة إما ثورة ضد أفكاره أو اتفاقٌ معها، خصوصا في مسائل الأخلاق والقانون الطبيعي ونظرية السياسة. له «الخلاصة اللاهوتية».

51 – هذا ما عبر عنه نيوتن.

Scanned by CamScanner

الذي كان لا يزال يعتبر عاراً كبيراً في ذلك الوقت، فإلى القرن الثامن عشر كانت القاعدة عدم تجرؤ أحد على التصريح بإلحاده.

• نموذجية اضطهاد جيوردانو برونو

كان رد فعل الكنيسة على كل حركة تشكيك قاسياً للغاية. ولعل مأساة جيوردانو برونو[52] أيقونية الطابع. فقد طرح الكاهن جيوردانو برونو فكرة تعدد العوالم ووجود بشر آخرين في كواكب أخرى، وهي فكرة فلسفية تجد أصلها عند الفيلسوف اليوناني أناكساغوراس[53] .كما تبنى برونو نظرية كوبرنيكوس[54] حول مركزية الشمس Heliocentrism وصدع بها، فعدته الكنيسة مهرطقاً يجب وقفه بأي ثمن قبل أن يستفحل خطره. أما وجه الهرطقة في دعوى تعدد العوالم فيظهر بالالتفات إلى حقيقة أن المسيح المخلص لن تشمل بشارته سكان تلك العوالم. وقد زج ببرونو في غيابات السجن ثماني سنين أبى خلالها أن يعود عن رأيه، وفي النهاية، أعدم حرقاً بعد أن قطعوا لسانه، وذلك في السابع عشر من فبراير لعام 1600 ميلادية.

وفي التاسع من يونيو 1989 في المكان الذي أعدم فيه برونو وهو حقل الزهور بروما نصب لبرونو في افتتاح كبير تمثال إحياء لذكراه ورداً لاعتباره، الأمر الذي أحزن البابا ليون الثالث عشر فأمضى يومه في صوم وحداد. وقد أصبح مألوفاً في أيامنا هذه أن تقام النصب التذكارية في روما للذين أعدمتهم الكنيسة بسبب آرائهم.

---

52 – جيوردانو برونو، 1548 – 1600 ، Giordano Bruno كاهن ايطالي وفيلسوف تبنى نظرية كوبرنيكوس وقال بلانهائية العالم وبتعدد العوالم التي تقطنها كائنات عاقلة، وقد عاقبته الكنيسة بالموت حرقا جزاء على آرائه هذه.

53 –أناكساغوراس، 500 - 428 ق.م، أناكسوغوراس يمثل نقطة تحول كبيرة في تاريخ الفلسفة اليونانية، فمذهبه العقلي (نيوس) اعتمد من قبل أرسطو،كما أن مذهبه في الذرات مهد الطريق لنظرية الذرية لديموقريطوس الفيلسوف.

54 –نيكولاس كوبرنيكوس(1473 – 1543).(Nicolaus Copernicus بالبولندية: Mikołaj Kopernik)،م، راهب وعالم رياضياتي وفلكي وقانوني وطبيب وإداري ودبلوماسي وجندي بولندي كان أحد أعظم علماء عصره، يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرما يدور في فلكها في كتابه «دوران الأجرام السماوية». وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.

Scanned by CamScanner

• نظرية كوبرنيكوس والضربة القاضية

لعل الضربة القاضية التي تلقتها سطوة الكنيسة كانت على يد نيكولاس كوبرنيكوس الذي نفى الاعتقاد الكنسي السائد في مركزية الأرض للكون وصرّح بأن الشمس هي مركز الكون[55]، وقد نشر كتابه بعد وفاته مباشرة. وكان غاليليو غاليليه[56] أشهر وأخطر من تأثّر بأفكار كوبرنيكوس، وقد عرض لنظرية مركزية الشمس في كتابه الكبير المعنون «حوار حول نظامي العالم الرئيسين» وكما هو متوقع واجه غاليليو غضب الكنيسة ووقف بين يدي قضاة محكمة التفتيش سنة 1633 معلناً تنازله عن آرائه الملعونة الخاطئة التي تخالف الكنيسة وفي رأسها اعتقاده بدوران الأرض حول الشمس، وقضي عليه بالسجن مدى الحياة لكن بفضل مساعي الكاردينال باربيريني خفف الحكم الى الإقامة الجبرية في بيت غاليليو حيث قضى ما تبقى من عمره وقد كف بصره وبعد أقل من عشر سنوات قضى نحبه وذلك في عام 1642.

إسحق نيوتن والنموذج الميكانيكي للكون

في السنة التي مات فيها غاليليو وهي سنة 1642، ولد إسحق نيوتن[57]. الرجل الذي يرى كثير من العلماء ومؤرخي العلم أنه أكبر عالم عرفته الدنيا. وقد كان رينيه ديكارت طمح إلى الإحاطة بعلم شمولي يفسر كل شيء، وكانت الرياضيات هي ذلك العلم في تقدير ديكارت، لكن نيوتن نظر من جهته إلى الميكانيك كعلم شمولي[58] وأبدع فيه بوضعه لقوانينه المعروفة. وقد اعتقد نيوتن أن الطبيعة ليست صامتة، وإنما هي مخلوقة كيما تخبرنا الكثير عن الرب خالقها ومبدعها، وسيختار بعض ذوي النزعات

55 -تبين لاحقا أن لا الشمس ولا الأرض هما مركز الكون، بل هما مجرد جرمين في هذا الكون.

56 -غاليليو غاليليه 1564 - 1642،(Galileo Galilei)، عالم فلكي وفيزيائي إيطالي كبير. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها على الضد من موقف الكنيسة، فحكمَت عليه محكمة التفتيش الكنسية عام 1633 بالإقامة الجبرية، ووضعت كتبه في القائمة السوداء. ولم تعتذر الكنيسة عن سوء معاملته إلا في سنة 1992.

57 -السّير إسحاق نيوتن 1642 - 1727 ،(Sir Isaac Newton)، عالم فيزيائي إنكليزي، من أعظم علماء القرن الثامن عشر. واضع قانون الجاذبية وممهد الطريق لعلم الميكانيكا الكلاسيكية عن طريق قوانين الحركة. يشارك نيوتن لايبنيتز شرف اكتشاف علم الحساب التفاضلي المتفرع من الرياضيات.

58 - والميكانيك تعتمد على الرياضيات كما نعلم.

Scanned by CamScanner

المادية أن يفهموا قولته هذه على هذا النحو: إن ما لا تخبرنا به الطبيعة لا حاجة لنا إليه. أما نيوتن نفسه فمن الواضح انه كان يولي الكتاب المقدس ثقته بخصوص الأمور الغيبية ، يدل على هذا رسالته في طبوغرافية جهنم!! رغم إيمانه بأن وجود الجنة والنار ليس من قبيل الوجود الفيزيائي كما أفصح عن هذا في كتابه «نبوءات دانيال وسفر الرؤيا» prophecies of daniel and apocalypse

• اللاهوت العلمي عند نيوتن

لقد كان لاهوت نيوتن لاهوتاً علمياً يقوم على التأكيد - خلافاً لنظرية توما الأكويني والقديس أغوسطين[59] حول صمت الطبيعة - على أن الطبيعة ناطقة تخبرنا عن الله. لكن النموذج الذي قدمه نيوتن ومن سار في نهجه نموذج ميكانيكي صارم، يصور الله وكأنما هو صانع ماهر أبدع آلة هائلة محكمة دقيقة الصنع هي الكون، لا تحتاج إلى قيامه عليها وتدبيره لها ،وإنما هي متروكة لقوانينها المضبوطة تسيرها وتحكمها، وهو تصور ليس يخفى استلزامه لنفي العناية الإلهية وتأكيد فكرة (الإله الغائب).

وقد صبّ هذا في محيط منظور جديد للإيمان، إنه «الربوبية» (Deism)، أي الإيمان بالله كرب خالق فقط، لكن لا كإله مشرع ومعبود. إن إله الربوبيين من هذه الناحية أقرب شيء إلى إله أرسطو الذي وُصف بأنه خلق العالم وأدار له ظهره.

• نيوتن والربوبية

وتعتبر رسائل نيوتن إلى صديقه ريتشارد بنتلي Richard Bentley- عالم الكلاسيكيات الشهير- من أهم الوثائق التي تطلعنا على إيمان نيوتن الذي حاول صادقا أن يحتفظ بمكان لله في نظامه الميكانيكي الصارم، وقد تساءل فيها بصدد

59 -القديس أوريليوس أغسطينوس (354 - 430) ، (Aurelius Augustinus)، لاهوتي وفيلسوف من أصل نوميدي-لاتيني ولد في طاغاست (حاليا سوق أهراس، الجزائر) . يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية والكنيسة القبطية قديسا وأحد آباء الكنيسة البارزين. يعتبره العديد من البروتستانت،لاسيما الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. ومن أعماله: مدينة الله، والاعترافات.

Scanned by CamScanner

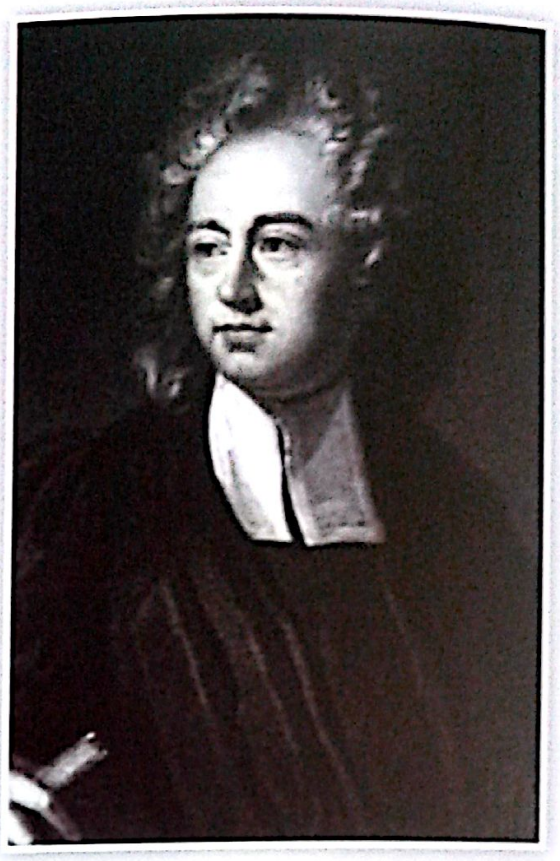

ريتشارد بنتلي

توما الأكويني

جوردانو برونو

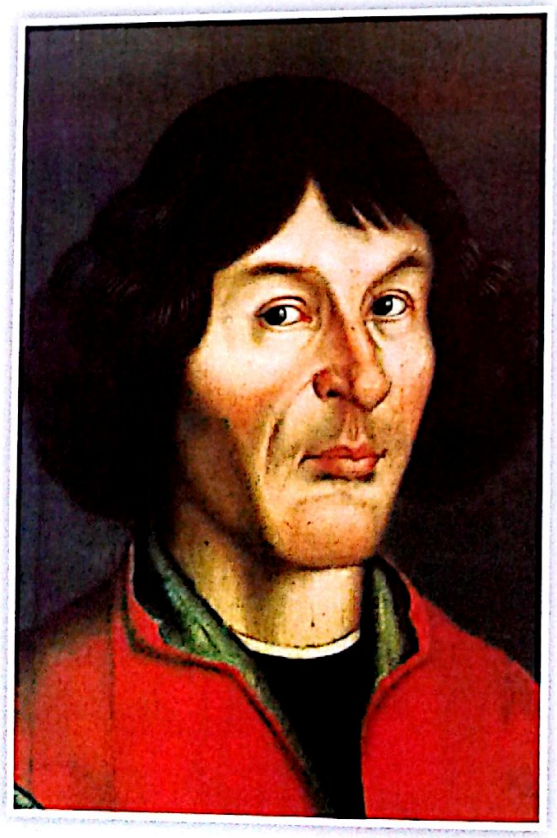

كوبرنيكوس

Scanned by CamScanner

مصدر القوانين الطبيعية رافضاً تماماً أن تكون الطبيعة أو الصدفة مصدرها، فهل تدرك الطبيعة خصائص الضوء وتعمل على ملاءمة أعين الحيوانات والحشرات معها؟ وقد جزم نيوتن فيها بأن حركات الكواكب الراهنة لا يمكن أن تكون قد انبثقت عن أي علة طبيعية وإنما فرضتها قوة عاقلة [60].

ومسألة - مَنْ الذي قنّن القوانين- لا تزال مطروحةً وبقوة في فلسفة العلوم الطبيعية خاصة الفيزياء والفلك، وقد أوردها ديفيد هيوم وتابعه الكثير من الملاحدة الجدد الذين أنكروا واقعية القوانين العلمية وجعلوها مجرد تكيفات عقلية وهمية تهدف إلى تفسير الطبيعة. وهذا الفهم لا ينال من برهان الإيمان بقدر ما ينال من صدقية العلم أو حتى صدقية العقل ذاته.

• استطراد: الإلحاد والتضحية بالعقل

وهكذا يهون على بعض الملاحدة أن يضحوا بالعقل نفسه على أن يبدو شيئاً من الاستجابة لبعض منطق الإيمان، إنها حالة من الانتحار العقلي. ومن هنا تمسّ الحاجةُ إلى البحث الأبيستمولوجي بمعالجة السؤال: هل يتمتع العقل بأهلية معرفة الحقائق أم لا؟

• هل كان نيوتن ربوبياً حقّاً؟

لقد جعل نيوتن اللاهوت تحت رحمة العلم، ولسوف تظهر عواقب منهجه لاحقاً في عصر التنوير، فعندما نشر البارون دولباخ كتابه «نظام الطبيعة» ردّ عليه رجال الدين بالتأكيد على خمول الطبيعة، فوقعوا في الفخ، وذلك أن العلم قد تجاوز من زمن الاعتقاد بخمول الطبيعة. خاصة بعد التراث الغني لنيوتن الذي برهن على نشاط وحركية الطبيعة. وفي الوقت عينه كان نيوتن يعتقد ببساطة العقيدة ويرفض

60 -يمكن مراجعة رسائل نيوتن إلى بنتلي في كتاب: Issac Newten: Philosophical Writing تحرير Andrew Janiak

Scanned by CamScanner

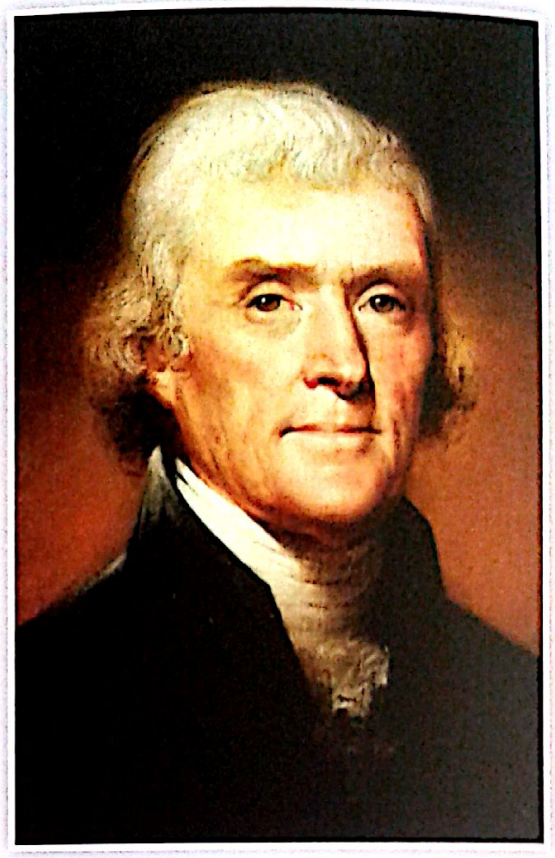

توماس جيفرسون

ديفيد هيوم

فولتير

Scanned by CamScanner

التعقيد المتكلف لاهوتياً فيها، وفي مرحلة مبكرة أدرك نيوتن أن الآيات المؤيدة للتثليث في الكتاب المقدس مجرد إقحامات فاسدة أو تأويلات خاطئة. كما كان من أشد المعارضين للأسرار الدينية. ومن هنا عدّه البعض ربوبياً، رغم أنه كان يؤمن بالكتاب المقدس ويعتمده في دراساته اللاهوتية. فالظاهر تعذّر القطع بربوبية نيوتن ونظمه في سلك واحد مع أمثال: شافتسبري وتندال وفولتير وتوماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين وجين روسو وايثان إلن وغيرهم، كما أن من المباهتة إدعاء أنه كان مؤلهاً على طريقة لاهوتيي الكنيسة، والأرجح أن الرجل يقف في منطقة وسطى بين الربوبية والألوهية.

تبلور اللاهوت العلمي

لقد ولّد اللاهوت العلمي الذي ساهم نيوتن في تشييد عمارته مشكلة مزدوجة:

فمن جهة هو يمدنا بتصور وتعريف مفاهيمي لله، يعتمد على النظريات والاستخلاصات العلمية، ولكن طبيعة العلم – كما يعرف الجميع – متحركة مترقية بل متناسخة أحياناً، بما يعني أن ذاك التصور سيظل عرضة للتغير والحركة.

ومن جهة ثانية دعم النموذج النيوتني التصور السائد لإله الفجوات.

• من إله الفجوات إلى نظرية الساعة

المفهوم الشائع «لإله الفجوات» God of the gaps يتمثل في الاعتقاد في إله نُعلل به كل ما لا نجد له تعليلاً علمياً مقبولاً[61]، وهكذا يعمل نقص معرفتنا العلمية في اتجاه تأييد وجود الله، ويمكن التعبير عن هذا المعنى بصيغة أخرى: ما يتمكّن الإنسان من فهمه وتفسيره يكون خارجاً عن اختصاص الله، وبالطبع يلزم من هذا المفهوم أن إله الفجوات يتراجع حظُّه باستمرار مع الزمن بسبب نجاح العلم في إحراز تقدم مستمر

61 – يقول جان بول سارتر: «يبدو أن في ذهن الإنسان ثقبا يمكن أن ندعوه ثقب الله، وهذا الثقب هو الذي حمل الإنسان عبر العصور على التشبث بالإيمان بالله، من أجل أن يضفي المعنى على عالم لا معنى له.»

Scanned by CamScanner

على طريق تفسير الكون وإدراك ظواهره المختلفة، بمعنى أن مملكة العلم ستظل تتسع على حساب مملكة الرب التي ستظل تضيق إلى أن تصير في النهاية لائقة بأي شيء عدا أن يكون ربّاً.

أما المفهوم الثاني لإله الفجوات أو الفراغات – وهو مرتبط على كل حال بالمفهوم الأول – فقد ساهم نيوتن بنموذجه الميكانيكي في بلورته، فالعالم وفق الرؤية النيوتونية أشبه بساعة مملوءة تسير بانضباط وإحكام بمنأى عن صانعها، لكن حين يعتريها شيء من التأخير أو الخلل يضطر صاحبها إلى التدخل لإصلاحها وإعادتها إلى سوائها. وبالتالي كلما نجح العلم في تصحيح نظرتنا إلى الظاهرة المدروسة بحيث تختفي الشذوذات والاختلالات الناتجة لا عن خلل واقعي وإنما عن قصور فهمنا ونموذجنا التفسيري المعتمد فإن دور الإله سيأخذ في التقلص والتراجع، ومرة أخرى سيعمل تقدم العلم بشكل متزايد على تغييب الإله.

• جذور اللاهوت العلمي

يبدو أن الجذور البعيدة لهذا اللاهوت العلمي ترقى إلى الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى، وتحديداً مع توما الأكويني الذي تأثر بابن رشد[62] القائل بازدواجية الحقيقة. مع رينيه ديكارت ستتأكد هذه الازدواجية، فرغم أن ديكارت هو منشئ المذهب العقلي Rationalism في الفلسفة الأوروبية إلا أنه ذهب إلى أن حقائق الوحي لا توزن بالعقل لأنها نزلت من السماء بطريقة خارقة للمألوف، لكن أحد الديكارتيين العظام (باروخ سبينوزا) لن يقنع بهذا التمييز الذي يحدُّ من سلطان العقل ونفوذه وسيعمل – في رسالته المعروفة – على تفسير كل ما يبدو فائقاً للطبيعة من أمور

62 -أبو الوليد محمد بن رشد المتوفى سنة 598 هجري بقرطبة، من أكبر علماء وفقهاء وفلاسفة المسلمين، عرف بشروحه الدقيقة لأعمال أرسطو، وكان قاضي قضاة الموحدين ومجتهدا في الفقه المالكي، قبل أن يمتحن وتحرق كتبه على الملأ . وقد نجت أعمال هذا الفيلسوف الكبير من الحرق بفضل نسخة فريدة كان ابن الخليفة الموحدي قد احتفظ بها لنفسه فأرسلها إلى مصر حيث تم استنساخها. من أشهر من تأثر بأفكاره الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون. ويعرف ابن رشد في الحضارة الأوروبية باسم (Averroès). من أهم أعماله «تهافت التهافت» وهو رده على كتاب الإمام الغزالي «تهافت الفلاسفة» وكتاب «فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال».

Scanned by CamScanner

الوحي والدين تفسيراً عقلياً بحيث يغدو مصطلح العقلانية مقابلاً للمذهب القائل بخوارق العادات Supernaturalism. وقد كتب الغلبُ لهذا المسعى في النهاية بما أثر على وضع الدين سلباً وساهم في دعم قضية الشك وبالتبع مساندة الإلحاد.

•••

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني
عصر التنوير ونقد الدين

المبحث الأول
الإلحاد من التنوير إلى الثورة

نحو الفكر التجريبي

سنشهد مع بداية القرن السادس عشر صعود الفكر التجريبي على أيدي نفر من مشاهير العلماء مثل: يوهانس كيبلر[63]، وغاليليو، وإسحاق نيوتن. فرانسيس بيكون[64] من جهته قدّم التبرير النظري للفكر التجريبي خصوصا في كتابه «الآلة الجديدة» Novum Organum ليدشن فلسفة تجريبية ستأخذ في التنامي والتكامل باستمرار منتزعة السلطة من المذهب العقلي الذي أشاده وبشر به ديكارت. ومع جون لوك[65] أحد أشهر الفلاسفة التجريبيين سيقع التشكيك بل الإنكار للأفكار الفطرية التي نادى بها ديكارت واعتمدها في التدليل على وجود الله، فمن رأي لوك أن الإنسان يولد صفحة بيضاء أو لوحا فارغا Tabula rasa خلوا من أي أفكار أو تصورات، والحواس وحدها هي منفذه إلى هذا العالم. توماس هوبز (1679)[66] في إنجلترا

---

63 -يوهانس كيبلر 1571 - 1630، (Johannes Kepler)، عالم رياضيات وفلكي وفيزيائي ألماني كان أول من وضع قوانين تصف حركة الكواكب بعد اعتماد نموذج مركزية الشمس الكوبرنيكي.

64 -فرانسيس بيكون (1561 - 1626) (Francis Bacon) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، من الرواد القائلين بفاياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس، ومن أشهر المنادين بالفلسفة التجريبية.

65 -جون لوك 1632 - 1704، (John Locke)، فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. وهو أكبر فيلسوف ابيستمولوجي ويعده البعض مؤسس الأبيستمولوجيا الحديثة.

66 - توماس هوبز 1588 - 1679، (Thomas Hobbes)، فيلسوف إنجليزي مبرز في مجال القانون والفلسفة السياسية إضافة إلى اشتغاله بالأخلاق والتاريخ. ترك كتابه الشهير «ليفايثن أي التنين» Leviathan أثرا كبيرا في الفلسفة السياسية الغربية.

Scanned by CamScanner

موطن لوك، وكوندياك(1780) Condillace في فرنسا من دعاة المذهب الحسي Sensationalism سيردان بدورهما كل صور المعرفة إلى الإحساس باعتباره المنبع الحقيقي للقوة العاقلة، فالموجود هو المحسوس بحسب تعبير هوبز.

• من نقد ميسلي إلى يقظة كانت

نصح فولتير كل رجل صادق بحمل كتاب القسيس الصالح ميسلي –كما يصفه فولتير– في جيبه دائما، وقد نشر فولتير مقتطفات Extrait من ميسلي حوّر فيها ليظهر صاحبها ربوبياً مثله، فمن هو ميسلي هذا؟

جان ميسلي 1664 - 1729 (Jean Meslier) قسيس فرنسي عرف باستقامته وتبرعه بأمواله للفقراء، فاجأ الناس بعد موته بوصيته المخطوطة التي تركها في بيته le testament وتقع في 633 صحيفة[67] يدين فيها الدين المُمأسَسْ واصفاً إياه بقلعة في الهواء كما شجب فيها اللاهوت ناعتاً إياه بالجهالة، وكان مثيراً جداً أن الرجل لم ينكر إله المسيحية التقليدية فقط، ولكن صرح أيضاً بإنكار إله الربوبيين بسبب وجود الشرور في العالم، فقد رأى فيها ميسلي تناقضاً مع الاعتقاد بوجود إله خيّر رحيم، وفي الفصل الخامس من وصيته يكتب: إذا كان الله غير مفهوم للإنسان فالعقل يقضي بترك التفكير فيه بالمرة، وقد كرّر وصف الله عبر مئات الصفحات بالوهم a chimera وأنكر أن يكون الإيمان بالله شرطاً للأخلاقية. كما صرح ميسلي بإنكار وجود الروح. ويستشهد ميسلي برغبة ذلك الرجل الذي تمنى أن يشنق كل الرجال العظماء والنبلاء بأمعاء القسيسين، ولعل ديدرو اعتمد هذا ملخصاً إياه بمقولته: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

مع الاسكتلندي ديفيد هيوم سيتلقى المذهب العقلي ضربات موجعة لحساب الحسية والتجريبية، فالسببية Causality عنده ليست أكثر من عادة ذهنية تنشأ عن ملاحظة الاقتران بين الحوادث، وأما المعارف الأولية السابقة على التجربة فلا مكان لها في نسق هيوم الذي أكّد في كتابه « بحث في العقل البشري» على رفض كل تفكير قبلي

67 - نظراً إلى الحجم الكبير لوصية ميسلي صرّح الملحد المعاصر ميشيل أونفريه Michel Onfray في كتابه In Defence of Atheism بأن كتاب ميسلي هو اول نص مكتمل يكتب دفاعا عن الإلحاد ونصرة لقضيته.

Scanned by CamScanner

يوهانس كيبلر

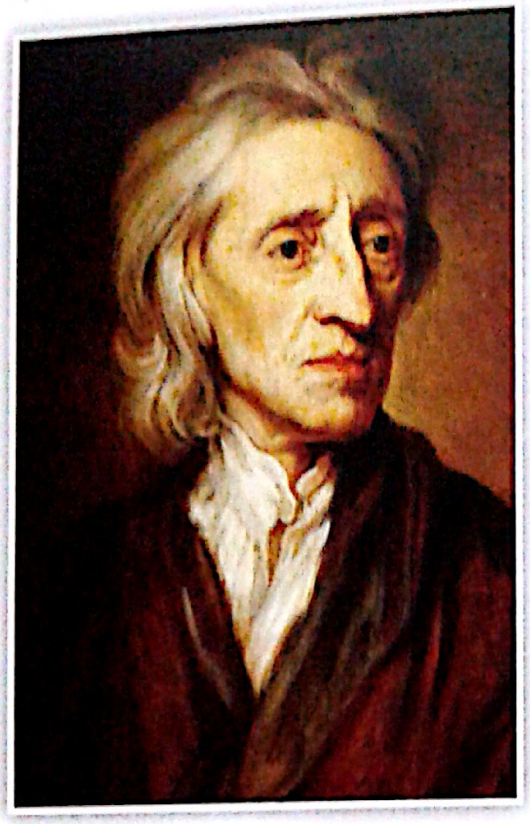

جون لوك

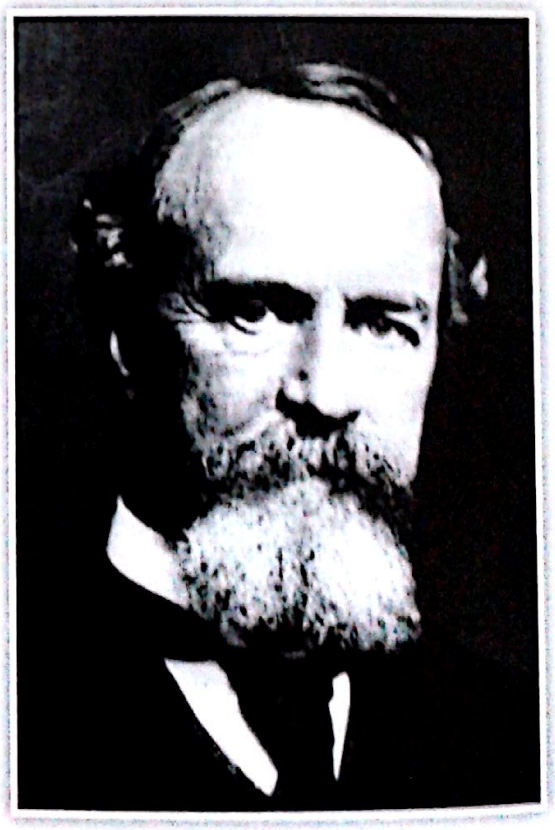

ويليام جيمس

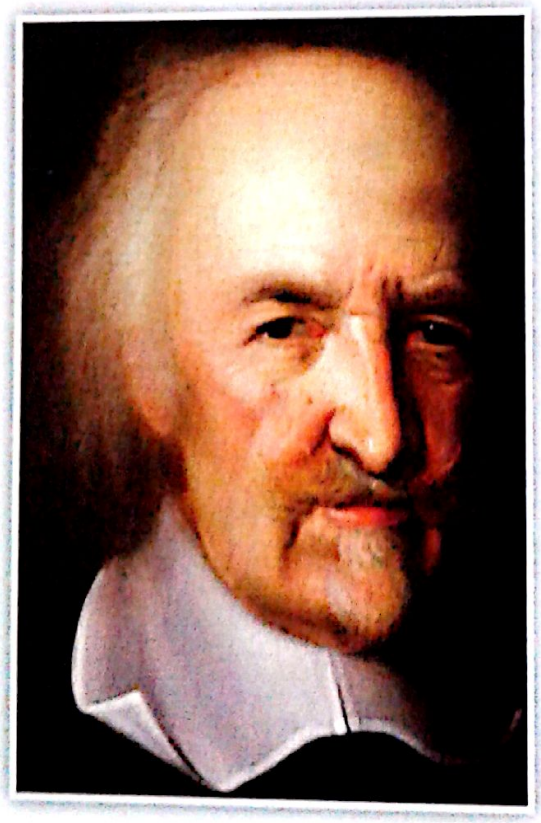

توماس هوبز

Scanned by CamScanner

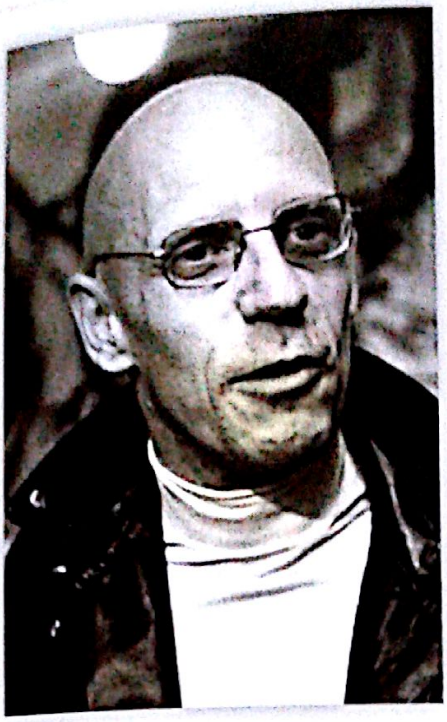

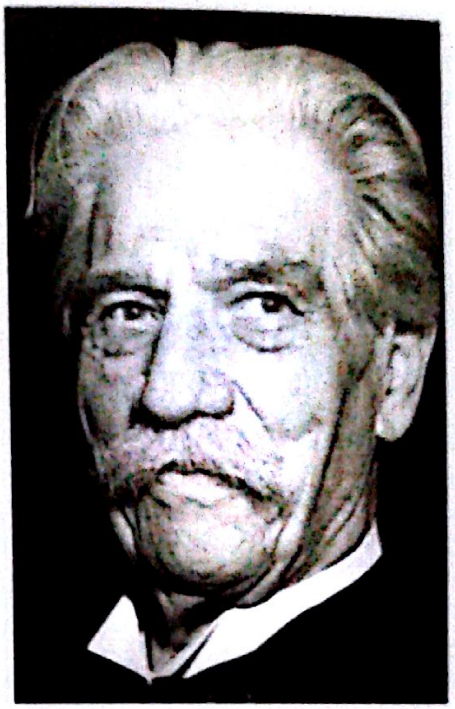

البرت شفايتزر

ميشيل فوكو

سبيلاً لفهم الكون وداعياً بحماس إلى ضرورة اعتماد الرياضيات والتجربة وحدهما مصدراً لكل فهم، وهذا وحده كاف عند من يقتنع به في هدم صرح الميتافيزيقا من أساسه، وبالفعل كان هيوم يدعو إلى تحريق كل الكتب عدا كتب الرياضيات والعلوم التجريبية. فماذا بقي للاهوت الطبيعي من أساس لينهض عليه؟

على خطى هيوم، سار الفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل «كانت» الذي عبّر عن حجم مديونيته لهيوم بالقول: «لقد أيقظني هيوم من سباتي الدوغماطيقي». ولقد تأثر «كانت» بفيزياء نيوتن بشكل كبير إلى درجة أنه كان يتعاطى معها وكأنها علم كامل نهائي، وسيكون لهذا التأثر بلا شك دوره في مجمل التفكير الفلسفي له.

و«كانت» يرى أن العقل الإنساني غير مؤهل لإدراك الأشياء في ذاتها، وإنما لا يتعدى المدى الذي يبلغه العقل في التعاطي مع موضوعاته ظواهر الأشياء. ودون الدخول في تفاصيل نظريته المعقدة المرهقة يمكن ملاحظة أنها تلغي كل مشروعية ومصداقية للميتافيزيقا. ولن يغدو مقبولا من بعد كانت –لدى المتابعين له في فلسفته- الزعم بقدرة العقل على البرهنة على وجود الله. صحيح أنّ «كانت» لم يكن ملحداً وإنما صرح بإيمانه بالله لكن لا على أساس عقلي صرف، وإنما على أساس أخلاقي ولاعتبارات عملية. كان كانت يقول : إنه يخالف قناعاته العقلية ليتيح مجالاً للإيمان. وشبيه بموقفه هذا موقف ويليام جيمس من بعده الذي كان يقول: «عندما نحتار في المسائل

Scanned by CamScanner

العقدية نستفتي قلوبنا» في إلماحة إلى باسكال الذي كان يشيد بسبل القلب التي لا يدري العقل عنها شيئاً.

ولمعرفة الأهمية البالغة لما أحدثه «كانت» نشير فقط إلى دعوى ميشيل فوكو[68] أن هناك قطيعتين معرفيتين كبريين في العصر الحديث: قطيعة ديكارت، وقطيعة كانت.

القرن الثامن عشر، قرن التنوير

سمي القرن الثامن عشر بقرن التنوير أو فترة أزمة الوعي الأوروبي، ودعي فلاسفة ذلك القرن بفلاسفة التنوير. وما جمع بين أولئك الفلاسفة تقريبا هو نقدهم للدين وللكنيسة، وإن بدرجات متفاوتة، على أنهم لم يكونوا كلهم ملاحدة أو حتى لاأدريين، وإنما كان من بينهم الملحد والمؤمن الربوبي والشكوكي واللاأدري، ولعل الربوبيين كانوا هم الأكثر عددا من بينهم.

وقد تصاعد الاتجاه الربوبي كردة فعل طبيعية ناقمة ومعارضة لسلطان الكنيسة وعسفها وتاريخها الطويل غير المشرف لمواقفها من العقل والعلم والحريات. وقد اضطلع العلم الحديث بمهمة دراسة العالم وتفسيره فجاءت كثير من نتائجه معارضة على طول الخط لنصوص الكتاب المقدس وللعلوم الطبيعية الكنسية من تاريخ وجغرافيا وفيزياء وفلك وسواها، مما دفع باتجاه التشكيك في مصداقية هذا الكتاب وثم في مصداقية ظاهر الوحي والنبوة أساساً، وهكذا نالت النزعة الربوبية مزيدا من الدعم والتسويغ.

68 - ميشيل فوكو (Michel Foucault)، متوفى 1980، فيلسوف فرنسي صاحب نظريات بنيوية مبتكرة وآراء نقدية عميقة. من أهم مؤلفاته «تاريخ الجنون»، و«الكلمات والأشياء».

Scanned by CamScanner

• أهم مميزات الفكر الربوبي

يبدو أن الشك الذي أحدق بالكتاب المقدس للسبب المذكور أعلاه حمل نفراً من المفكرين على إعادة النظر في فكرة الألوهية لينتهوا إلى رفض عقيدة الإله المتدخل في الحياة والطبيعة، وليدعموا عقيدة الإله الغائب الذي اكتفى بخلق العالم والإنسان تاركاً الأول تسيّره قوانينه المودعة فيه والثاني للنور الطبيعي الكامن فيه يهديه سبيله وعلى ضوئه يتمكن من التمييز بين النور والظلام والخير والشر، فلا مبرر للاعتقاد بالخوارق والمعجزات التي تنتهك قوانين الطبيعة ولا داعي للنبوة والرسالة والشرائع الهابطة من السماء لهداية الإنسان، فالإنسان يُهدى بأمرين: طبيعته الباطنة أي نوره الداخلي - وقد آمن الربوبيون بصلاح الإنسان رافضين نظرية الخطيئة الأصلية الموروثة - ونظام الكون من خارج، وقد كتب «كانت» يقول: شيئان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاظمين أبدا: السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا، والقانون الأخلاقي في داخلنا. لقد أولى الربوبيون أهمية بالغة للأخلاقيات والسلوكات الحميدة ودعوا إلى التعايش السلمي والتسامح الفكري مع الاقتصاد في العقائد اللاهوتية الغامضة، فها هو فولتير[69] في قاموسه الفلسفي ينادي: «نريد منه -أي المذهب الربوبي- أن يعلّم الناس الكثير من السلوك الأخلاقي والقليل من العقائد الدينية.» ولسوف يتردد صدى هذا النداء عبر القرون لينتهي إلى ألبرت شفايتزر[70] في القرن العشرين الذي سجّل توقعه أن يكون المستقبل للأديان الأخلاقية[71].

---

69 -فرانسوا ماري أرويه فولتير (1694 - 1778) (François-Marie Arouet Voltaire) فيلسوف وأديب فرنسي من أعلام عصر التنوير وأعظمهم تأثيرا في معاصريه وخالفيه. عرف بأسلوبه الناقد الساخر خصوصا للكنيسة الكاثوليكية. واشتهر بدفاعه المستميت في قضية جان كالاس والتي بنى عليها رسالته في التسامح ، من مؤلفاته:القاموس الفلسفي،مسرحية محمد، وكانديد أو القدر.

70 -ألبرت شفايتزر 1875 - 1965 ، (Albert Schweitzer) فيلسوف وطبيب ولاهوتي ألماني. حصل عام 1952 على جائزة نوبل للسلام عن فلسفته في تقديس الحياة التي كثفها في كتابه «فلسفة الحضارة». من أعماله تأسيس وإدارة مستشفى في الغابون، غرب وسط أفريقيا. ومن رأيه أن اضمحلال الحضارة الغربية يعود إلى انحطاطها الأخلاقي.

71 - ومن جهتي أحسب إن إصرار بعض المسلمين على ترجمة الاسلام تشريعيا ومواصلة تأجيج نيران التعصب والطائفية على أسس عقدية مبتعدين عن اعتبار الجانب الأخلاقي للإسلام سيسلم دينهم في النهاية إلى مصير مشابه لذاك الذي واجهته المسيحية الغربية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطريقة السائدة في فهم-

Scanned by CamScanner

• هل الربوبية خطوة نحو الإلحاد؟

إن الربوبية التي انتشرت في القرن التنويري، كانت خطوة في طريق الإلحاد الذي سيفشو بشكل منكر في القرن التاسع عشر. ويمكن تعليل ذلك بجملة أمور في مقدمها ما سبقت الإشارة إليه من ترشح الإله للاختفاء والفقد بمجرد الإمعان في تغايبه عبر تساميه وكف يده عن التدخل في العالم الطبيعي والاجتماعي، ومن جملة الأسباب أيضاً ما يدل عليه علم الاجتماع الديني من أن الإيمان أو الدين عموما يستمر في حياة الناس لا بالأفكار النظرية وحدها لكن إلى جانبها بالنظم التشريعية والطقوسية والتقاليد والتاريخ والحكايات المؤسطرة عن الأنبياء والأولياء والقديسين وإجمالاً عبر تجليات المقدس الكثيرة، وكل ذلك لا قبل للنزعة الربوبية بتوفيره لكونه يتعارض معها أصلاً ويأتي على الضد منها. إن الإيمان الذي ورثه الناس عبر عديد القرون هو الإيمان الألوهي – على الأقل فيما يخص أوروبا في حالتنا هنا – ولن يفلح الإيمان الربوبي أن يحل محله بالثقل نفسه والكثافة ذاتها المدعومة بمواريث القرون.

في سنة 1751 بدأ دينيس ديدرو ودالامبير D' Alembert وآخرون في إصدار الموسوعة الفرنسية (الإنسيكلوبيديا) التي قال عنها فولتير: الإنسيكلوبيديا نصب تذكاري يشرف ويمجد فرنسا، وما لبثت السلطات أن أمرت بوقفها في سنة 1752 وأدرجتها الكنيسة في إنديكس الكتب المحرمة، فديدرو وزملاؤه أولوا العقل ثقة مطلقة فاقت الثقة في الكتاب المقدس. وقد اتجه الموسوعيون إلى دراسة الكتاب المقدس كما يدرسون أي نص تاريخي أو أدبي دونما أدنى فرق. في المجلد الثالث عشر من الموسوعة(طبعة 1966) يكتب ديدرو ودالامبير:حيث يكون قرار العقل واضحاً قاطعاً لا يمكن أن نجبر على رفضه لاعتناق رأي مضاد بحجة أنه مادة إيمانية محضة، والسبب في هذا أننا بشر قبل أن نكون مسيحيين! بعد بضع سنوات استأنفت الموسوعة الظهور مرة أخرى. مجددا يخسر الدين في جولات صراعه مع العلم والعقل الحر.

-الإسلام لا تتناغم مع القرآن وإنما تتعارض معه حتى بمنطق إحصائي للآيات القرآنية التي لا تحظى قضايا التشريع فيها بأكثر من زهاء مئتي آية.

Scanned by CamScanner

روبسبير

جيمس آشر

الثورة الفرنسية والثورة على الدين

في 1789 – وذلك في أخريات سني «كانت»-، اشتعلت نيران الثورة الفرنسية التي سرعان ما سيتبين للناس أنها لم تكن ثورة على الملكية وحدها وإنما فضلا عن ذلك كانت ثورة على الكنيسة ورجالها ويمكن القول: ثورة على المقدس الديني التقليدي بعامة.

وقد أعلن جاك رينيه هيبير[72] عبادة العقل، فتمّ تتويج العقل إلهاً مكان الصليب في مذبح كنيسة نوتردام. وأعطى هيبير إذناً بنهب الكنائس ونفي رجال الدين أو قتلهم. وبدوره أعلن روبسبير[73]-زعيم عهد الإرهاب- عبادة الطبيعة فيما عرف بـ: عبادة الكائن الأسمى[74] وبدل الصلاة الربانية Oratio dominica : أبانا الذي في السموات .. ولا تدخلنا في التجربة ولكن نجنا من الشرير،أي الشيطان، اتخذت الثورة نشيداً يبدأ بـ: جمهوريتنا التي على الأرض، ويختم بالقول: ولكن نجنا من رجال الدين الفاسدين.

---

72 -جاك رينيه هيبير 1757 - 1794، (Jacques-René Hébert)، من أشهر الصحافيين والثوريين الفرنسيين. كان شديد الاندفاع ضد خصوم الثورة، لا يكاد يستثني أحدا ممن يخالف آراءه حتى وصل باتهاماته إلى روبسبير، أحد أبرز قادة الثورة المتشددين، إلى أن تم إلقاء القبض عليه وزج به في السجن ثم حكم عليه بالإعدام 1794 م.

73 -ماكسيميليان دو روبسبير 1758 - 1794، (Maximilien de Robespierre)، محام فرنسي وزعيم سياسي. أصبح إحدى أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، والنصير الرئيسي لعهد الإرهاب الذي كثرت فيه الإعدامات. أطيح بانقلاب وأعدم بالمقصلة سنة 1794.

74 -l'Être Suprême وبالانجليزية Cult of the Supreme Being

Scanned by CamScanner

نابليون بونابارت

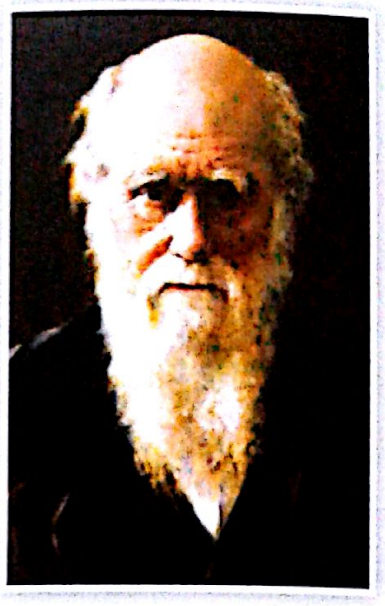

تشارلز داروين

في عهد نابليون بونابارت[75] تمّت عملية علمنة فرنسة رسمياً، لكنه ما لبث أن أعاد للكنيسة الكاثوليكية الكثير من الاعتبار لأهداف سياسية ليس إلا.

- الإلحاد وحقوق الإنسان

لقد لعبت رمزيةُ العلاقة الإيجابية بين الأهداف الجذّابة للثورة - الحرية والإخاء والمساواة – من جهة وبين الإلحاد من الجهة الأخرى، دوراً كبيراً ومارست تأثيراً هائلا على الذهنية الأوروبية انعكس في شكل ربط آلي بين هذه الأهداف المرحّب بها عند عامّة الأوروبيين وبين الإلحاد ومعاداة الدين.

ظاهرة التقابل بين العلم والكتاب المقدس

لقد تسببت الأزمة التي عرفت بأزمة الوعي الأوروبي في عصر التنوير عن ظاهرة

75 -نابليون بونابرت الأول: 1769 -1821، (Napoléon Bonaparte)، هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين. حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلا عامًا، ثم بصفته إمبراطورًا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، حيث كان لأعماله وتنظيماته تأثير كبير على السياسة الأوروبية، كان عهده مليئا بالحروب سواء قبل تسلمه زمام السلطة، كحروب ايطاليا وغزو مصر، أو بعد تسلمه زمام السلطة كحربه ضد إمبراطورية النمسا، وحربه ضد الإمبراطورية الروسية. تحالفت معظم الدول الأوروبية وفي رأسها بريطانيا ضده فمني بالهزيمة في معركة واترلو، التي اضطر للتنازل عن العرش بعدها ليتم نفيه إلى جزيرة القديسة هيلينا في المحيط الأطلسي، حيث قضى هناك.

Scanned by CamScanner

نقد الكتاب المقدس، ثم استفحلت بفعل النظريات التطورية في علم الأحياء.

فقد قام ريشارد سيمون الفرنسي[76] المعاصر لسبينوزا – الذي أسهم بشكل مؤثر في النقد العلمي للكتاب المقدس - بدراسة نقدية جريئة للكتاب المقدس أنجزها في ثلاثة أجزاء حملت العنوان: التاريخ النقدي للعهد القديم Histoire Critique du Vieux Testament تناول فيها بصفة أساسية مشكلة كاتبي العهد القديم الحقيقيين، أحدثت تشكيكاً قوياً في المعتقدات السائدة بهذا الخصوص، ودعمت الاتجاه الجديد - الذي أغناه سبينوزا – في النظر في الكتاب المقدس على ضوء المقررات العقلية والعلمية. وبعد زهاء قرن تمّ الاعتراف بسيمون كأب للنقد الأعلى High Critic.

• داروين ونظرية التطور

اكتسب تشارلز داروين[77] شهرته من خلال نظريته الصادمة في تطور الأنواع بالانتخاب الطبيعي، النظرية التي عارضت بشكل صارخ الاعتقاد الديني العتيد بالخلق المستقل، أي بخلق الله للأنواع كل على حدة بشكل مباشر ومستقل في سبعة أيام كما يبين سفر التكوين، فاقترحت نشوء الأنواع كلها من أصل واحد ظل يتطور ويتغير بفعل عوامل كثيرة – في رأسها عامل الانتخاب الطبيعي - حتى صارت الحياة تغص بأعداد هائلة من الأنواع النباتية والحيوانية . ولعل الجزء الأكثر صادمية واستفزازا للمنظور الديني في نظرية دارون يتمثل في الآلية الأساسية للتطور وهو مبدأ الانتخاب الطبيعي المعبّر عن عملية غير واعية وغير هادفة لكنها في الوقت نفسه غير عشوائية يتم بموجبها استبقاء الكائنات الأكثر والأنجح تكيفاً وتلاؤماً مع ظروفها البيئية واستبعاد تلك التي تفشل في حيازة الحد المطلوب من التكيف ومن ثم تختفي من مسرح الحياة، وفي النهاية يؤدي تراكم التغيرات الناجمة عن التكيف الناجح

76 - ريشارد سيمون 1638 -1712، (Richard Simon)، ناقد فرنسي، عرف بجرأته على نقد الكتاب المقدس.

77 - تشارلز روبرت داروين 1809 - 1882، (Charles Robert Darwin) عالم طبيعي بريطاني، يعد من أشهر علماء الأحياء. أشهر كتبه «في أصل الأنواع» الذي عرض فيه لنظريته في التطور العضوي والتي جوبهت بانتقادات كثيرة خصوصا من طرف رجال الدين.

Scanned by CamScanner

إلى ظهور أنواع جديدة. فالأنواع بحسب داروين لم تظهر مرة واحدة وإنما في فترات متباعدة جدا يفصل بينها مئات الألوف والملايين من السنين. وقد أتى التطور بهذه الصورة التي قدمها داروين مدداً جديداً للاتجاه الربوبي كما للإلحاد وذلك بحسب توجه من يروم توظيفه فلسفياً.

نشر داروين كتابه: «في أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي»[78] سنة 1859 وبعد هذا التاريخ بسنة ظهر في ألمانيا كتاب ألّفه سبعة من العلماء البروتستانت أثار ضجة أكبر من تلك التي أحدثها كتاب داروين بعنوان «مقالات ومراجعات»، اشتمل على دراسات متقدمة عما قدمه ريشارد سيمون حول الكتاب المقدس. وقد تجاوزت ردود الأفعال والانتقادات الموجهة إليه الأربعمائة. ولم يكن تزامن ظهور الكتابين في صالح الكنيسة. فنظرية داروين تعمل في اتجاه تغييب وعزل الله عن العالم في الوقت الذي يضطر من يطمئن إليها إلى التشكك في صحة الكتاب المقدس، والمقالات والمراجعات تضع صدقية الكتاب المقدس موضع مساءلة جادّة.

كم كانت صدمة المؤمنين ممن يتجرؤون على استعمال عقولهم؟ فداروين يؤكد أن الخلق عملية ممتدة عبر ملايين السنين، وعلماء الجيولوجيا يتكلمون بلغة الملايين، لكن من أين لنا بملايين السنين والتوراة تدل على أن عمر الأرض لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين، ومعروفة هي حكاية رئيس أساقفة إيرلندا جيمس اشر James Ussher 1581- 1656 الذي أجرى حساباته الدقيقة مستهدياً بالكتاب المقدس ليخلص إلى أن الله خلق الأرض في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 4004 قبل ميلاد السيد المسيح زاعماً أن كل الشواهد والأدلة التي تدل على خلاف هذا هي من صنع الشيطان بغاية إضلال الناس. لم يعد الدين في وضع يحسد عليه.

•••

78- On the Origin of Species by Means of Natural Selection.

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

الإلحاد في القرنين التاسع عشر والعشرين

من إنكار الإله إلى إعلان موته

تطور الإلحاد في القرن التاسع عشر من الإنكار البسيط للإله المفارق للطبيعة إلى إعلان جريء عن موته.

ويمكن الانطلاق بعد سبينوزا في القرن السابع عشر من هيغل[79] في قرننا التاسع عشر هذا الذي أكّد بروح حلولية أنّ على الرب – إذا ما رغب حقاً في نيل اعترافنا وإيماننا به - أن يتواضع وينزل من عليائه ليخوض معنا التجربة في هذا العالم. إن جوهر الحلولية يتمثل في القول بأن الإله لا يمتلك حضوراً ما إلا عبر الطبيعة، وهو قول يقابل على طول الخط نظرية الإله الشخص التي يعتقد بها أتباع الديانات التوحيدية الثلاث.

قد يكون من المفيد أن نلفت النظر إلى أن هذا التفاوت في مفهوم الله يدفع باتجاه الإلحاد لا في اتجاه الايمان، وقد دأب الملاحدة على تذكير المؤمنين بأن الإله الذي يعتقدونه ليس شيئاً واحداً، إنه تشكيلة مرهقة جداً من الآلهة المتعارضة المتشاكسة.

لودفيغ فويرباخ[80] - من تلاميذ هيغل – يصدر بدوره عن روح حلولية ترفض الاعتقاد في الإله المفارق المتسامي- فيكرر في كتابه «جوهر المسيحية» كلام هيغل وإن بصياغة مختلفة : «الإيمان بإله خارج هذا العالم يعني أن العالم والإنسان لا يساوون إزاءه شيئاً».

ففوير باخ قد أنكر الإله واعتبره نتاجاً للأحلام البشرية التي تتصور في إله قادر حتى تغطي على ضعفها.

---

79 - جورج فيلهلم فريدريش هيغل (1770 - 1831) (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) فيلسوف مثالي ألماني يعد من أهم الفلاسفة الألمان.

80 - لودفيغ أندرياس فويرباخ (1804 - 1872)، (Ludwig Andreas von Feuerbach)، فيلسوف مادي ألماني، كان في البداية تلميذا لهيغل ثم أصبح من أبرز معارضيه.

Scanned by CamScanner

الكثير من الفلاسفة الألمان في تلك الحقبة أعلنوا إلحادهم، مثل آرثر شوبنهاور[81] صاحب «العالم فكرة وإرادة»، الذي أودعه زبدة فلسفته رابطاً فيه بين الإرادة والعقل وذاهبا إلى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها.

لدينا أيضاً كارل ماركس[82] وصاحبه فريدريك إنغلز[83].

فأما ماركس فقد طرح مسألة عدم وجود الإله كمسلمة ولم يقدم حجة فلسفية على ذلك، ربما لأنه لم يكن معنياً بذلك قدر عنوّه بتغيير شروط الناس الاقتصادية أولا وبالتبع سائرها، فقد كان يؤكد أن وظيفة الفلسفة هي تغيير العالم الإنساني وقال: «لقد دأب الفلاسفة عبر العصور على أن يتأملوا العالم، أما نحن فنرى أن علينا تغييره». وعليه يمكن عدّه – بمعنى ما - ملحداً سلبياً. وينتقد الماركسيون الإلحاد البورجوازي في إرجاعه وضعية الإنسان الاجتماعية إلى وعي هذا الإنسان مؤكدين على العكس تماما، أي على دور الوضع الاجتماعي للإنسان في صياغة وعيه وتكييفه، فالبنى الفوقية ناتجة عن البنى التحتية لا العكس. والماركسيون يرون- خلافاً للبورجوازيين- أن التنوير الثقافي وحده غير كاف في تحرير الإنسان من ربقة العقائد الدينية الباطلة وأنه لابد من العمل على تغيير الشروط الاجتماعية - أو البنى التحتية كما يروق لهم أن يعبروا عنها- التي تشكل الجذور الحقيقية للدين - وهو من البنى الفوقية- والبيئة المناسبة لنموه، وفي حال تغيرت هذه الشروط فإن الدين سيختفي من تلقائه إلى غير رجعة.

وقد خُتم القرن التاسع عشر بأعتى وأوقح ملاحدته وأشدهم مباشرة : نيتشه المتوفى سنة 1900 الذي أعلن على لسان زرادشت موت الإله وأنه لم يبق منه إلا ظلاله التي يجب محوها. لقد حدّد نيتشه مهمته الرئيسة بتحطيم الأصنام والتي ليست إلا عقائد المجتمع ومقدساته ويقف الإله في رأس تلك الأصنام.

---

81 -آرثر شوبنهاور (1788 - 1860)، Arthur Schopenhauer، فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية يرى في الحياة شرا مطلقا.

82 -كارل ماركس(818 -1883) Karl Marx، فيلسوف مادي وناشط سياسي ومنظّر اجتماعي ألماني مؤسس الفلسفة الماركسية المنسوبة اليه. اشهر اعماله «رأس المال»، أصدر مع انجلز البيان الشيوعي.

83 - فريدريك إنغلز (1820 -1895)، Friedrich Engels ، فيلسوف ورجل صناعة ألماني. ساهم إلى جانب كارل ماركس في وضع أسس الفلسفة الماركسية.

Scanned by CamScanner

الإلحاد والمنطق التجريبي

في القرن العشرين استمرّ الإلحادُ بشكل متنام، خاصّة بعد الثورة البلشفية عام1917 وانتشار الشيوعية التي تولّى الترويج لها عملاقٌ سياسي ناهض هو الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه.

كما ساهمت الوجوديةُ في جناحها الملحد في انتشار الإلحاد. وكان من أبرز أعلام هذا الجناح هايدغر[84] الذي كان إلحاده سلبياً وتلميذه جان بول سارتر.

• الخلفيةُ المنطقية التجريبية للإلحاد المعاصر

جديرٌ بالإشارة هنا أنّ الاختيار المنطقي السائد عند هؤلاء كان المنطق التجريبي وهو المعيار الرئيس في شتّى الاتجاهات الوضعية، فالتجريب هو مصدر الحقائق العتيد. وقد أكّدت الوضعيةُ المنطقيةُ - تراسلاً مع ديفيد هيوم- على مبدأ التحقق Principle of Verification معياراً لاختبار كل عبارة وميّز ما ينطوي منها على دلالة مما يعد فارغاً من المعنى، ووفقاً لهذا المعيار فالعبارات الحاملة للمعنى فقط هي التحليلية كما هي حال قضايا المنطق والرياضيات، والتركيبية كقضايا العلوم الطبيعية التي يمكن التثبت منها عن طريق الخبرة الحسية، وما سواهما لا يزيد على كونه كلاماً فارغاً nonsense لا يقال فيه صحيح ولا غالط كما لا يوصف الحائط بذكورة ولا بأنوثة. وأمام النقود التي وجهت إلى مبدأ التحقق اضطر أحد كبار الوضعيين المناطقة وهو الفيلسوف الفريد آير (1910 - 1989) Alfred Ayer إلى توسيع مدلول التحقق بحيث يشمل الامكان النظري إلى جانب الإمكان العملي، فقولة: ثمة جبال على الوجه المظلم للقمر ليست فارغة مع أنها لا تشير إلى شيء يمكن مشاهدته بالفعل ولكنها في الوقت عينه تشير إلى ما يمكن أن يرى في حال تيسر للإنسان مشاهدة ذلك الوجه من القمر ووجود جبال على ذلك الوجه لا يدخل في باب الممتنع منطقياً.

---

84 - مارتن هايدغر (Martin Heidegger). فيلسوف ألماني (1889-1976) وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل. ومن أبرز مؤلفاته: «الوجود والزمان» «المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا» «نداء الحقيقة» و«نيتشه»... وغيرها.

Scanned by CamScanner

على كلّ حالٍ إن خصومة الوضعية المنطقية مع الميتافيزيقا عنيفة لا هوادة فيها، فقضية: (الله موجود) بحسب مبدأ التحقق ليست تحليلية كما أنها ليست تركيبية- بالشرط المذكور أعلاه- وبالتالي لم يبق إلا أن تكون قضية فارغة لا تقبل التحقق بوجه من الوجوه.

• الإقرار بعجز الإنسان عن التأله

المعروف عن لودفيغ فيتغنشتاين أنه كان يتبنى في البداية القول بأن اللغة تتسع فقط ولوصف الوقائع ذات الأساس الحسي القابل للتجريب، وبذا يكون قد استبعد كل قضية غير تجريبية. لكنه عاد فتراجع فيما بعد عن رأيه هذا، حين التفت إلى حقيقة تعاطي اللغة مع الأوامر مثلا، ثم عطف فاعتبر اللغة الدينية ذات منطق مختلف، وذلك دون أن يتزحزح قيد أنملة عن نزعته الإلحادية.

ومن عباراته المثيرة: «لو استطعت أن أتحكم في كل شيء لجعلت الله يطلبني ويأتي إلي»، يلمح بذلك إلى أن الإنسان في حال تمكنه من تسخير الكون والتحكم في كل شيء، سيصبح هو الإله! لكن هل هناك من يؤمن حقاً بأن الإنسان سيصل يوماً إلى هذه الغاية؟ فكل ما تمكن الإنسان إلى اليوم من السيطرة عليه ضمن كوكبه الذي يدبّ عليه ربما لا يشكل واحدا في المليون، فلا يزال الإنسان عاجزاً تماما أمام الزلازل والفيضانات والأعاصير وتقلبات المناخ، هذا وكوكب الأرض الذي يقطعه الضوء في ثُمن ثانية تقريبا لا يمثّل قطرةً في محيط مترامٍ نسبةً إلى الكون الفسيح بقطر حوالي93مليار سنة ضوئية!!!

تمردت يا نفس فوق الأرض فاهدئي ولا تذهبي في العجب كل مذهب
فما أنت إلا ذرة فوق متنها
و ما هي إلا ذرة في الكواكب
عجائب هذا الكون شتى وفتنتي
بهيمنتي فوق الكون كبرى العجائب

Scanned by CamScanner

التيارات الإلحادية المتأخرة

اتصف الكثير من المذاهب الفكرية والأدبية في القرن العشرين بشيء من الإلحادية: مثل المذهب الطبيعي لجورج سانتيانا[85] وجون ديوي[86]، الحركة النسائية Feminism، والعلموية Scientism أي الاكتفاء بالعلم ومنهجه التجريبي كمصدر موثوق وحيد للمعرفة المقبولة ، والفوضوية (أو الفوضانية) Anarchism.

ثم أتت الثمانينات بما يعرف بالإلحاد الجديد، الذي يمثله ريتشارد دوكينز، دانيل دينيت، كريستوفر هيتشينز[87]، فيكتور ستينجر[88] وكارل سيغان[89] إلى حد ما ثم سام هاريس من بعد في آخرين.

•••

85 -جورج سانتيانا 1863 - 1952، (Jorge Santayana)، فيلسوف براغماتي وشاعر إسباني-أمريكي ملحد.

86 -جون ديوي 1859 - 1952، (John Dewey)، فيلسوف ملحد أمريكي وزعيم من زعماء الفلسفة البراغماتية ويعتبر من أوائل المؤسسين لها.

87 -كريستوفر إريك هيتشنز (1949 - 2011، Christopher Eric Hitchens) هو كاتب وصحفي إنجليزي-أمريكي، وكان له عمود ثابت في عدد كبير من المجلات والجرائد بالإضافة إلى كتاباته المعروفة في النقد الأدبي، وهو معروف بإلحاده ونقده اللاذع للأديان، ومن أشهر كتبه الناقدة للأديان كتاب «الرب ليس عظيما» (God Is Not Great) الذي انتقد فيه الديانات الإبراهيمية بالإضافة إلى الديانات التي لم تكن تُنتقد في الأوساط الغربية مثل الهندوسية، كما أنه معروف بمعاداته ونقده للصهيونية.

88 - فيكتور جون ستينجر (Victor John Stenger)، مواليد 1935، عالم فيزيائي ذري وباحث في مجال الفلسفة والأديان، ومن المدافعين عن الإلحاد.

89 -كارل إدوارد سيغان 1934 - 1996، (Carl Sagan)، هو فلكي أمريكي من أبرز المساهمين في تبسيط علوم الفلك والفيزياء الفلكية وغيرها من العلوم الطبيعية. وكان له دور رائد في تعزيز البحث عن المخلوقات الذكية خارج الكرة الأرضية.

Scanned by CamScanner

مارتن هايدغر

كريستوفر إريك هيتشنز

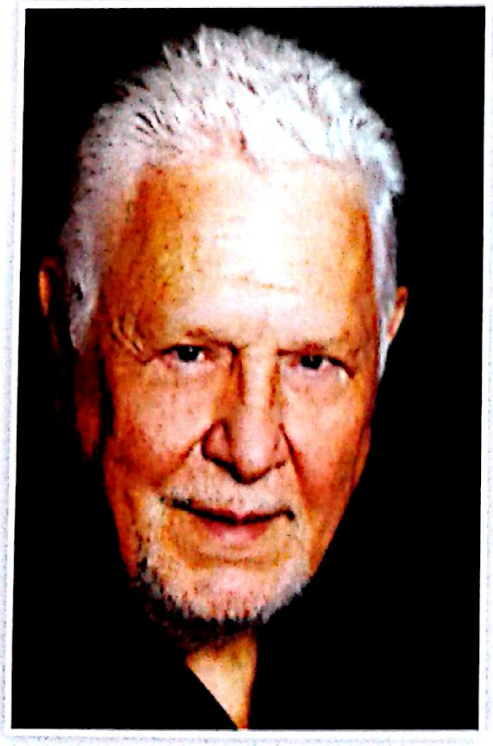

فيكتور جون ستينجر

Scanned by CamScanner

الباب الثالث

تنبيهات حول أسباب الإلحاد

Scanned by CamScanner

التنبيه الأول
تطورية الحركة الإنسانية والجمود الكنسي

بعد هذه الإلماعة التاريخية العجلى يمكنُ أن نجمل الأسباب التي ساعدت على وجود الإلحاد في التجربة الأوروبية الحديثة. وهي أسباب كثيرة يمكن حصرها في عدّة نقاط.

الحركة الإنسانية

لعل أوّل تلك الأسباب يتمثل في الحركة الإنسانية Humanism التي عملت على إحياء الآداب الكلاسيكية: اليونانية والرومانية التي تمحور اهتمامها على الإنسان عقلاً وجسداً، وكان إحياء هذا الاهتمام وبعثه من جديد مخالفاً تماماً للروح الكنسية التي حقرت الجسد الإنساني وتنكرت للعقل لحساب النص المقدس.

لقد جعلت الحركة الإنسانية شعارها «أن الإنسان مقياس للأشياء جميعها»، وهي نقلة دراماتيكية لمركز الاهتمام من (الإله) إلى (الإنسان).

- موقف الكنيسة من العلم

في الجملة لم يكن موقف الكنيسة من العلم والعلماء ودوداً أو متفهماً، وإنما على العكس كان موقف صدام وتصد جحود اتسم بالقسوة البالغة والجمود الأعمى.

ومن أبرز وقائع الصدام بين الكنيسة والعلم وأشهرها على مر الزمن، واقعة محاكمة غاليليو وإلجائه الى الرجوع عن آرائه المخالفة لتعاليم الكنيسة وإلزامه أخيراً بالإقامة الجبرية في بيته إلى لحظة مماته. ومن أسوأ ما وصم سجل محاكم التفتيش الكنسية واقعة محاكمة وسجن وإعدام جيوردانو برونو حرقا بالنار بعد قطع لسانه وذلك في عام 1600، ومن قبل ذلك واقعة إعدام الطبيب والعالم ورجل الدين،

Scanned by CamScanner

جون كالفن

سيرفيتوس[90] حرقاً على يد جون كالفن[91] في جينيف سنة 1553. وذلك بعد المكر به واستدراجه من قبل صديقه القديم كالفن المحترق تعصباً، بتهمة إنكار التثليث بين تهم أخرى.

ومن الطريف فيما يتعلق بقضية غاليليو أن البابا يوحنا بولس الثاني أصدر أمراً في عام 1981 باستئناف فتح ملف غاليليو لإعادة النظر فيه، فتشكلت لجنة لهذا الغرض لم تخرج بقرارها إلا بعد عشر سنوات في 1992 والذي نصّ على أنه بقدر ما كانت الكنيسة مخطئة كان غاليليو أيضا مخطئاً، حيث لم يتقبل النصيحة بأن نظرية كوبرنيكوس كانت مجرد فرضية.

الإندكس

وكانت الكنيسة – بدءا من عام 1600 - تصدر بين الحين والآخر قائمة بالكتب المحظورة عرفت اختصارا بالإندكس وهو اختصار لـ Index Librorum Prohibitorum اي قائمة الكتب المحظورة. ولم تتوقف القائمة عن الصدور إلا في

90 - ميغايل سيرفيتوس 1511 - 1553 (Miguel Servet)، فيزيائي وطبيب ومترجم وعالم دين إسباني، تضمنت اهتماماته العديد من العلوم: علم الفلك وعلم الأرصاد الجوية؛ والجغرافية، وعلم التشريح، ودراسة التوراة، والرياضيات، وعلم التشريح، والطب. مال في دراساته اللاهوتية إلى التوحيد وأنكر التثليث مما جرّ عليه النقمة والدمار.

91 - جون كالفن (Jean Calvin)؛ 1509 - 1564، مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفيني المنتشر في سويسرا وفرنسا، عرف بتجربته في حكم جنيف حكما دينيا صارما متزمتا لم يلبث أن انتهى إلى فشل ذريع.

Scanned by CamScanner

سنة 1966 عندما أصدر البابا بولس السادس أمره بوقفها. وكان من ضمن الكتب المدرجة فيها كتاب يوهانس كبلر عن علم الفلك الجديد وتناغم العالم New Astronomy and World Harmony وكذلك - بالطبع - كتب مارتن لوثر، وجون كالفن، وهولدريخ زفينغلي، وفرنسيس بيكون، ورينيه ديكارت، وحتى بليز باسكال، وجان جاك روسو، وفولتير، و«الموسوعة الفرنسية» التي كانت تصدر بإشراف ديدرو، وكان يحكم بالكفر على الكتاب فيها وعلى قارئيها أيضا، ومن الكتب الواردة في الإندكس (نقد العقل المحض) لإيمانويل كانت، ومن المؤكد إدراج أعمال نيتشه وجان بول سارتر والروائي الإيطالي آلبرتو مورافيا. ولا تزال الكنيسة تمارس التحريم وإن بشكل مقنّع، كما فعلت أخيرا مع شيفرة دافينشي لدان براون حيث حرّمت قراءتها.

وينبغي أن لا ننسى تاريخ الكنيسة المخزي في تحريق الكتب المغضوب عليها، وبديهي أن كل كتاب يحظر يغدو مباحاً بل واجباً حرقه وإفناؤه. وبحسب سفر (أعمال الرسل) من العهد الجديد فقد قام مسيحيون في إفسوس في عصر الرسل بحرق كتب وثنية قدرت قيمتها بخمسين ألف فضية، فكانت أول محرقة للكتب في تاريخ المسيحية.

•••

Scanned by CamScanner

التنبيه الثاني
السجل الأسود لمحاكم التفتيش

إن قمع الكنيسة للمخالفين وتوقيعها أقسى العقوبات التي تصل إلى الإعدام على الخازوق والتحريق بالنار فضلا عن إنزالها صنوف العذابات بضحاياها جرّ عليها – بلا شك – نقمة الجماهير وسخطها.

وستظل مأساة قتل الفيلسوفة الشابة هيباتيا Hypatia في سنة 415 ميلادية وصمة عار في تاريخ الكنيسة تطاردها إلى الأبد. وهيباتيا هذه هي ابنة الفيلسوف تيون Theonخازن مكتبة الإسكندرية، فيلسوفة وعالمة رياضيات، رأست جامعة الإسكندرية. حكم عليها أسقف كنيسة الإسكندرية سيريل Cyril بالكفر والزندقة في حين كان السبب الحقيقي لنقمته عليها اختلافه مع حاكم الإسكندرية أرستيز لعدم استجابته لطلب الأسقف بطرد اليهود من المدينة، وكانت هيباتيا من جهتها على علاقة حسنة بالحاكم، فلحقها البلاء بهذا السبب. وقد قام جماعة من أتباع الأسقف المتزمت بخطف الفيلسوفة الشابة واقتادوها إلى كنيسة حيث مزقوا جسدها بقطع الخزف إربا إربا. وكان من نتائج تلك الجريمة المروعة أن فرّ جميع الفلاسفة والعلماء من الإسكندرية إلى أثينا خوفاً من أن يصيبهم مثل ما أصاب هيباتيا.

أما محاكم التفتيش الكنسية التي أسّست في النصف الأول من القرن الثالث عشر - وأغلق آخرها في إسبانيا في عام 1836 - فلا يزال مجرد ذكرها يثير الفزع في النفوس. كانت الأساليب التي تصطنعها تلك المحاكم في تقرير المتهمين واستجوابهم مروعة إلى أبعد حد. وإمعانا في إرهاق المتهم كانت المحكمة تجشمه دفع تكاليف التجسس عليه وملاحقته ونقله وكذلك تكلفة أدوات التعذيب والإعدام أيضا في حال حكم عليه بالموت !!

وأما الضحايا فكان من بينهم إلى جانب الهراطقة المبتدعين والسحرة والساحرات الفلاسفة والعلماء وأحرار الفكر. أما سن المتهم التي تخول المحكمة اتهامه والتفتيش عليه فكانت الرابعة عشرة للرجال فما فوق وللنساء بدءاً من الثانية عشرة!

Scanned by CamScanner

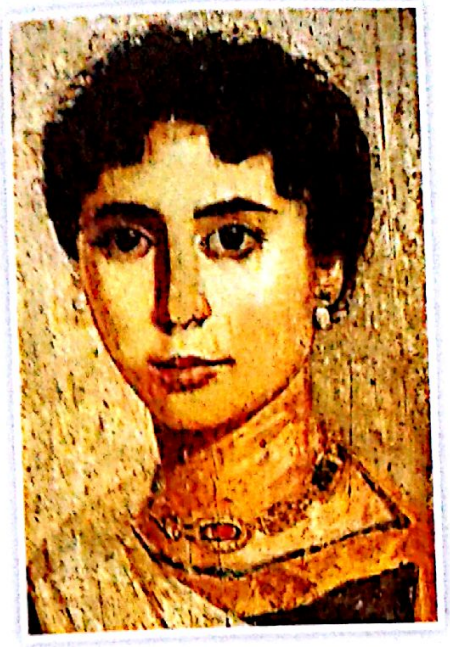

هيباتيا

لكن ثمة حالات موثقة جرت فيها محاكمة وإعدام أطفال دون السابعة! والأكثر فظاعة أن ابن من يدان بالهرطقة كان ربما أدين مع أبيه وألحق به في الحكم!!

ولم تكن التوبة مهما بدت صادقة تنجي صاحبها من العقاب كلية، نعم كانت تمثل أحيانا وسيلة للإفلات من الموت لكن ليس من السجن مدى العمر!! وفي حالات وأزمان أخرى لم تكن تجدي في الإفلات من الموت ولكنها كانت تنفع في التخفيف من بشاعة الإعدام، فيعفى الضحية من الحرق مثلاً ويعدم خنقاً.

وبخصوص ممتلكات الضحية فكانت تصادر كلها ويحرم الورثة من ميراثه، أما بيت الضال فيتم تحريقه ويمنع إعادة بنائه ثانية، هكذا قضى البابا غريغوري التاسع.

ورغم المبالغة الظاهرة في دعوى البعض أنه تم إعدام مليون ساحر وساحرة، لكن المرجح أن الأعداد كانت من فئة المئة ألف ومضاعفاتها. وقد كانت المدن تتسابق بفخر إلى تقديم السحّار للإعدام كقرابين.

• التبرير اللاهوتي لمحاكم التفتيش

أحيانا يكون تبرير الجرم أقبح من الجرم نفسه . ولم نعدم رجال دين كبارا تطوعوا بتقديم تسويغات لتلك المخازي، فها هو اللاهوتي العظيم القديس توما الأكويني يكتب في خلاصته اللاهوتية عن حق السلطة الزمنية في إعدام الهراطقة وإن لم يفسدوا

Scanned by CamScanner

الآخرين وذلك جزاء على تجديفهم على الرب باتباعهم إيماناً زائفاً، ومن رأيه أن جريمة من يزيف الإيمان أشنع من جريمة من يزيف النقود، ولذا كان من العدل أن يعدموا!

أيضا كان تحالف الكنيسة مع الإقطاعيين من جهة ومع السلطات الظالمة من جهة أخرى إحدى أسوأ سماتها التي باعدت بينها وبين دعاة الحرية والعقلانية. وقد ذكر القس البريطاني بيتر دي روزا Peter de Rosa في «أساقفة المسيح: الجانب الأسود للبابوية» The Vicars of Christ: Dark Side of Papacy مخازي البابوية منذ بداياتها وعبر تاريخها الطويل. وبخصوص عصرنا هذا ذكّر بدعمها لهتلر في الانتخابات، وسكوتها بعد ذلك على جرائمه وامتناعها عن إدانته. كما أشار إلى أنها أيدت ديكتاتور إسبانيا الفاشي الجنرال فرانكو؛ وبيّضت صحيفة الماريشال بيتان عميل الألمان في فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وأطلقت شعار بيتان هو فرنسا.

ومن مظاهر دعم الكنيسة للاستبداد، نفي الأب ليوناردو بوف - (1938) Leonardo Boff - أحد رموز لاهوت التحرير في البرازيل، المناضل من أجل التخفيف من معاناة البائسين المطحونين - إلى الفيلبين وحرمانه من نشر أي كتاب أو مقال، بعد أن استدعته إلى روما، وأقعدته على الكرسي الذي قعد عليه جيوردانو برونو وغاليليو، ومن الطريف أن الأب بوف بادر بإلقاء التحية على هذا الكرسي وشكر قضاته أن أتاحوا له شرف الجلوس على هذا الكرسي.

ومن العار على الكنيسة أن تدين الرجل بسبب نضاله من أجل المضطهدين ضد الديكتاتوريات في أمريكا اللاتينية.

•••

Scanned by CamScanner

التنبيه الثالث
الحروب الدينية والتوظيف السياسي للدين

لم تشن أوروبا حروبها الصليبية ضد المسلمين وحدهم، وإنما عرفت الصليبيات داخل أوروبا نفسها قبل أن تشن على الشرق الإسلامي، كانت تسيّر بغاية القضاء على الهراطقة المخالفين في الدين وبغاية إدخال الوثنيين في النصرانية دين الخلاص.

وقد كانت تلك الحملات من أكثر العوامل المسببة للنفرة من الدين والحاملة على الازورار عنه بعد محاكم التفتيش، وذلك بسبب حجم الوحشية وكم العنف المترافق معها، إذ لم يكن أمام المغلوبين من النصارى إلا الإبادة أو الرجوع إلى مذهب الغالب وأما الوثنيون فلم يكن أمامهم إلا التنصر أو الذبح.

فشارلمان - على سبيل المثال - نَصَّر السكسون بقوة السيف في حروب طاحنة دموية خاضها ضدهم في الأعوام (774 - 782). كما أعطى البابا بيوس الخامس أمرا بذبح شعب هولندا الذي كان يعُدُّ حوالى ثلاثة ملايين، لأنهم اعتنقوا المذهب البروتستانتي، بيد أن قناة شعب الأراضي الواطئة كانت صلبة فأبدوا مقاومة باسلة لمدة ست سنوات، خصوصا بعد سماعهم بمصير القرى والمدن الأخرى التي استسلمت وكيف تمّ ذبح أهلها عن بكرة أبيهم، ولم يسلم من ذلك حتى الأطفال الرضع والشيوخ الركع.

مذبحة الألبيجينيين Albigensians في عام 1209علامة مخزية في سجل الصليبيات، فقد صدر الأمر بتسيير حملة صليبية بهدف إعدام زهاء مئتي هرطقي في إحدى المدن ولما لم تتمكن الحملة من تمييز الهراطقة من سائر السكان فقد سألوا مندوب البابا الذي أفتاهم بالقول: اقتلوهم جميعا فالرب يعلم من أنصاره، وبهذه الجملة الوجيزة تم ذبح عشرين ألف بريء لئلا ينجو مئتا مهرطق.

من لم يسمع بمذبحة سان بارثلميو Bartholomew في فرنسا؟ فصل آخر من فصول العار في تاريخ الكنيسة. ففي ليلة عيد القديس بارثلميو في ال 24من أغسطس سنة 1572 قام الكاثوليك في أنحاء مختلفة من فرنسا بقتل ألوف البروتستانت تراوحت أعدادهم بين الخمسة آلاف والثلاثين ألفا.

Scanned by CamScanner

وبسبب النزاع الشرس بين الكاثوليك والبروتستانت نشبت في فرنسا سلسلة حروب أهلية طاحنة استمرت زهاء نصف قرن (1547- 1593) وقريب من ذلك حصل في انجلترا، لكن تبقى حرب الثلاثين عاما (1618 - 1648) هي الأشهر والأبقى في الذاكرة والتي انتهت بمعاهدة وستفاليا، وهي سلسلة حروب تورّطت فيها أغلب دول أوروبا الوسطى والغربية وشمال أوروبا، بدأت بذرائع دينية تمثلت في النزاع الكاثوليكي البروتستانتي وانتهت بشكل حرب بين النمسا وفرنسا نزاعا على الأراضي. ولأخذ صورة مقتضبة عن حجم الدمار الذي خلفته تلك الحروب النكدة يكفي أن نشير إلى أن الجيش السويدي قد قام في ألمانيا بتدمير ألفي قلعة وثماني عشرة ألف قرية وخمسمئة مدينة، أي ما يعادل ثلث المدن الألمانية كافة. وقد هبط عدد السكان في ألمانيا من نحو ثلاثين مليونا إلى ثلاثة عشر مليونا ونصف المليون، أي أن أكثر من نصف السكان تمّ إفناؤهم. ووفقا لفولتير فقد قضت تلك الحروب على نحو ثلث سكان أوروبا.

•••

Scanned by CamScanner

التنبيه الرابع
الفلسفة والإصلاح الديني

يمكن القول: إنّ الاقتباسَ من الفلسفات اليونانية والشرقية وتطور الفلسفة المادية بوجه عام، كان من الأسباب الرئيسة للإلحاد. في البداية وقع التصالح بين المسيحية من جهة والأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة من الجهة الأخرى، كما هي الحال في فلسفة القديس أوغسطين، لكن أرسطو اتخذ سبيله إلى العقل الأوروبي الوسيط عبر تسرُّب أفكار ابن سينا وتأثُّر ألبرت الكبير – أستاذ توما الأكويني - بها وأكثر من ذلك عبر تسلل أفكار ابن رشد التي مارست تأثيرها الهائل على توماس الأكويني - رغم إصراره على شجب ابن رشد جحودا ونكرانا – ومعروفةٌ هي الأصول الأرسطية لأفكار ابن سينا وابن رشد، وأما مواضع المؤاخذة من أفكار أرسطو فمتعددة: أولها قول أرسطو بقدم العالم أي بأزليته وبالتالي إنكاره لعقيدة خلق الله للعالم من العدم - العقيدة التي أطبق عليها أتباع الديانات التوحيدية الثلاث - وهو الإنكار الذي شاركه فيه أستاذه أفلاطون، ، كما أن أرسطو – خلافا لافلاطون - ينكر العناية الإلهية باعتقاده أن الله خلق العالم وتركه ليسير نفسه بنفسه واشتغل هو بالتأمل في ذاته، ومن هنا لقي أرسطو مقاومة عنيفة من رجال الدين في العصر الوسيط إلى حد أن ألكسندر نيكام (1157 - 1217) Alexander Neckam نعت فلسفته بأن المسيح الدجال وحده هو من يستطيع فهمها ليستعملها ضد المؤمنين.

وقد يكون من المناسب اللفت إلى أنّ المشكلة ليست في الفلسفة نفسها منهجا لا مذهبا، فليس بالضرورة أن تقف الفلسفة ضد الإيمان، بقدر ما هي في الإيمان حين يصرُّ على طرح نفسه بشكل غير عَقلاني تُضطرُّ معه كلُّ فلسفة عقلانية إلى أن تقف ضدّه، وهذا بالذات ما حصل مع المسيحية.

الإصلاح الديني بدوره انتهى إلى أن كان سبباً من أسباب الإلحاد. فكثرة المذاهب في الدين الواحد وتكفير بعضها بعضاً وتورطها في نزاعات دامية يُضحّى فيها بالحدّ

Scanned by CamScanner

الأدنى من الأخلاقية وقيم الرحمة والتسامح وتقبُّل الآخر بشكل يبرر انتهاك الإنسان: حياته وعرضه وحرياته وممتلكاته ، كل أولئك من شأنه أن يدفع بالناس - ولو بعد حين - دفعاً إلى الارتياب في جدوى الدين وحقيقة رسالته في الحياة، والتساؤل بصدد الإله الذي يرضى بكل هذا التجاوز على الآدمية التي تجد في باطنها ما يحملها على أن تنزع نزوعاً أكثر رحمة ورقيّاً وبالتالي تحتج على إله يبرهن للمرة الألف - عبر مندوبيه ووكلائه من رجال الدين ملّاك الحقيقة المطلقة وحملة مفاتيح الجنة – أنه إله لا يليق بهذه الآدمية التي تفوقه وتعلو عليه.

خاتمة

إن كان ثمة موضع للعبرة- مما جرى في أوروبا - يفيد منه المسلمون فهو أن يدركوا أن الدين ما لم يثبت وباستمرار تفوقه الأخلاقي بإزاء أبعد ما يطمح إليه الإنسان الكوني البارئ من جنون الحصريات العرقية واللغوية والدينية فسيأتي عليه يوم بعد أو قرب – وقد أفلس فلم يعد بمقدوره أن يعد بشيء يستجيب لتطلعات الإنسان، فلا يبقى أمامه إلا أن يستجدي حياته ويستأذن في البقاء في عالم لم يعد يرى نفسه محتاجا إليه في شيء ذي بال.

إنّ درس أوروبا يعلّم أن مقتل الدين يمثُل في انحيازه إلى الطغيان فضلاً عن ممارسته واحتكاره، كما في مجافاة العقل ومعاداة العلم، وأيضا في تمثيل الدين من قبل أناس مهجوسين بالسلطة والتحكم عوض أن يكونوا مسكونين بهَمِّ ترقية الإنسان روحياً بشكل يضفي على وجوده عمقاً لا يوفّره غير تلك الصلة الخاصة بالسماء عبر التجربة الروحية ذات الفرادة والثراء التي تجد ترجمتها في مزيد من الحب للآخرين والرحمة بهم والعمل على خيرهم والشعور بالتكامل معهم ضمن معنى وحدة الآدمية.

•••

Scanned by CamScanner

الجزء الثاني

«برهان النظم»

Scanned by CamScanner

الجزء الثاني

برهان النظم

الباب الأول

إشكالات الملاحدة والجواب عنها

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

مقدمات عامة

المبحث الأول

حول مشروعية البحث

إشكالية توجيه البحث

قبل الشروع في صلب موضوعنا يحسن أن نجيب عن هذا السؤال الذي سلف التنبيه عليه:

من المطالَبُ بالإدلاء ببينته: المؤمن أم الملحد؟

ذلك أن من المؤمنين من اعتاد على مطالبة الملاحدة بالإتيان بدليلهم على نفي وجود الله. وفي الحق أن هذا خلاف القاعدة التي تقضي بأن البينة على من ادعى، كما أن الأصل في الشيء عدم وجوده حتى يثبت وجوده. وقد أسلفنا عن أنطوني فلو[1] أنه قذف بالكرة للمرة الأولى في ملعب المؤمنين وطالبهم بإقامة الدليل على وجود الله بدل مطالبتهم هم الملاحدة بالبرهنة على نفيهم لوجود الله.

ولذلك سنبدأ بطرح براهين الإيمان وفي الأثناء إشكالات الملاحدة وأدلتهم لنجيب عنها.

نظرة من زاوية مختلفة

للفيلسوف الأمريكي الشهير ويليام جيمس[2]، مؤسّس الفلسفة البراغماتية كلام فحواه أن المرء قد تتكافأ بين يديه أحيانا أدلة خيارين ، فيحجم عن البت، وينصرف

1- أنطوني فلو 1923 - 2010، (Antony Flew)، فيلسوف بريطاني، كان من أشرس المدافعين عن الإلحاد إلى سنة 2004 عندما تراجع عن إلحاده وأعلن إيمانه بالله وكان عمره حين إيمانه 81 سنة، ومات على الإيمان بالله.

2-وليام جيمس 1842 - 1910 ، (William James)، فيلسوف أمريكي مؤسس الفلسفة البراجماتية كما يعد موسس علم النفس الأمريكي. من كتبه: إرادة الاعتقاد، مبادئ علم النفس، البراغماتية.

Scanned by CamScanner

عن المسألة برمتها. لكن هذا لا يحدث دائماً فأحياناً يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يبت برأيه، فإن لم تكفِ المبررات المنطقية فزع إلى المرجحات الوجدانية. أي استفتى قلبه بلغة الدين.

هذه القوة تمارس دورها أكثر بكثير مما يُظَنُّ. فمعظمنا يصدر في آرائه وترجيحاته عن العاطفة لا المنطق. والقرآن في موارد حديثه الكثيرة عن القلب يعزو إليه وظيفتين: وظيفة العقل والتدبر من جهة ووظيفة الشعور والوجدان، لفتاً إلى مقدار التعقيد الذي تتسم به المسألة، فالإنسان ليس كائناً منطقياً محضاً أو وجدانياً محضاً، إنما هو كائن مزدوج. ومن السذاجة الظن أن بالامكان مطالبة الإنسان ليتمحض للعقل والمنطق وأن يكون أشبه بصخرة على حد تعبير العالم الإحيائي الكبير تشارلز داروين.

• خيارات ويليام جيمس

وعوداً إلى ويليام جيمس الذي اختار في كتابه (إرادة الاعتقاد) The Will to Believe أن يسمي ترجيح أحد فرضين hypothessis اختياراً an option، ثم نوّع الاختيار أنواعاً، فالاختيار إما:

حيّ أو ميت live or dead

اضطراري أو ممكن التجنب forced or avoidable

مهم أو تافه momentous or trivial وقد دعى جيمس اختياراً حقيقياً ذاك المتصف بالحياة والضرورة والأهمية

• الخيار الحي والميت

وهو الاختيار بين فرضيتين كلتاهما حيتان، أي ممكنتا الصدق، فتخيير فرد غربي بين أن يكون ثيوصوفياً أو مسلماً تخيير ميت، بخلاف، تخييره بين أن يكون مسيحياً أو لا أدرياً وذلك بسبب ما نشأ عليه من ثقافة. وهذا مثلٌ مثّل به جيمس نفسه.

وبتطبيق هذا الكلام على مسألة وجود الله يمكن القول: إن الاختيار بين الإيمان بالله وإنكار وجوده هو اختيار بين فرضيتين حيتين، مع التنبيه على أنّ أولاهما لا تزال أحظى بالحياة بمراحل من الأخرى –التي تشارف الموت في بعض الثقافات – نظرا إلى الثقافات السائدة في معظم المجتمعات البشرية.

Scanned by CamScanner

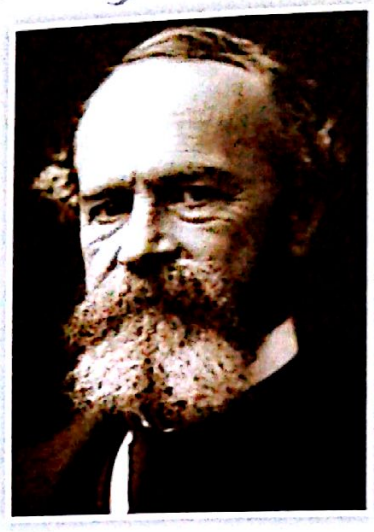

وليام جيمس

أنطوني فلو

• الخيار الاضطراري والخيار الممكن التجنب

و هذه المرة سأضرب مثلاً من عندي: إذا قيل لك: إما أن تشرب الشاي الأخضر بالسكر أو تشربه بغير سكر، فإني لا أعرض عليك خياراً حقيقياً، لأنه ليس اضطراراً بل ممكن التجنب، حيث يسعك تجنبه فتعلن أنك لا تريد شرب الشاي الأخضر أصلا.

لو طبّقنا هذا المعنى على مسألة الإيمان بوجود الله فسنتبين أن التخيير بين الإيمان بالله وعدمه هو من النوع الاضطراري، فلا حالة ثالثة، حتى حالة اللاأدري ينبغي في النهاية أن تُموقعَ في موقع عدم الإيمان.

• الخيار المهم والخيار التافه

والخيار المهم يعني أن ثمة فرصة وحيدة أو نادرة جدا تترتب عليها آثار ذات بال إذا غامرت بتضييعها فاتتك إلى الأبد. فقد يكون الخيار حياً واضطرارياً، لكنه مع ذلك ليس مهماً، وذلك مثل أن تؤثر السكن في بيت على التشرد في الشوارع فهذا خيار حي، وأن تختار السكن في هذا البيت المخصوص لجهة موقعه في المدينة ومواصفاتها الذاتية على بيت آخر في حال كانت إمكاناتك المادية لا تسمح لك بالسكن في أكثر من بيت، إما هذا وإما ذاك، فهذا خيار اضطراري، ومع ذلك فهو لا يمثل فرصة وحيدة غير قابلة للتعويض بدليل أننا نغير أماكن سكنانا كثيرا من غير أن يكون لهذا عواقب كارثية على حياتنا، ما يعني أن هذا الخيار ليس من قبيل الخيارات المهمة.

أما الخيار الحي والاضطراري والمهم فمثل أن تختار كمسلم بين أن تكون مذهبياً أو لامذهبياً، فهذا اختيار بين فرضيتين حيتين لك كمسلم، ثم هو اضطراري غير ممكن

Scanned by CamScanner

التجنب، إذ لا حالة ثالثة بين الحالتين المتاحتين، ثم هو في ظل الثقافة الإسلامية السائدة التي تجنح في عمومها إلى التصنيف اختيار ستترتب عليه نتائج مهمة في حياة صاحبه، صحيح أنها ليست بأهمية الاختيار بين الإيمان وعدم الإيمان الذي يمكن أن يكلف المرء حياته – على الأقل في بعض المجتمعات - في حال اختار عدم الإيمان. ومن الواضح أن الاختيار بين الإيمان والإلحاد اختيار حي واضطراري ومهم، بل يصلح أن يكون المثال النموذجي في عالم المسلمين اليوم.

على مستوى التعليم المدرسي اختيار أن تتعلم أو لا تتعلم، أي تلتحق بالمدرسة أو لا تلتحق بها هو اختيار حي، ثم على مستوى التعليم الثانوي اختيار أن تتجه إلى الفرع العلمي أو الأدبي اختيار اضطراري، وقل مثل ذلك بخصوص تعليمك الجامعي، أما اختيارك بعد التخرج أن تعمل بشهادتك في وظيفة ممتازة معروضة لفترة قصيرة أو تتجه إلى سوق العمل بعيدا عن الوظيفة فهو من باب الاختيارات المهمة.

والآن هل نحتاج كثير تفكير أو مزيد ذكاء لندرك أن الاختيار بين الإيمان وعدم الإيمان هو اختيار حقيقي جداً وتماماً تتوفر فيه كل شروط الاختيار الحقيقي: فهو اختيار حيٌّ، واضطراريّ، ومهم غاية الأهمية.

إذا وضح هذا وضح به ومعه أهمية طرح موضوعنا وإيلائه الاهتمام اللائق، وذلك بصرف النظر عن الفرضية التي يقع عليها اختياري أو اختيارك أكانت الإيمان أم الإلحاد، فهذه قضية أخرى تُشكّل محور هذا البحث الطويل المضني. إن حقيقية هذا الاختيار تسخّف موقف اللاأباليين – وهم من الندرة بحيث لا يُلحظون -الذين يزعمون أن الموضوع لا يعنيهم في قليل أو كثير وأنهم قادرون على تحقيق ذواتهم ومواصلة حياتهم دون أن يلتفتوا إليه أو يقفوا لديه، وعجيب أن يصمت هؤلاء في موضع صدحت فيه أصوات كبار الفلاسفة والشعراء واللاهوتيين والعلماء، إن إقراراً أو إنكاراً!

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

الإطار المعرفي للفكر الإلهي

الواقعية وموقع الإلهيين منها

لقد تمايزت المواقف الفلسفية بخصوص تفسير الوجود. فلدينا أولا الموقف المثالي، وهو إما فلسفي أو أخلاقي.

فالموقف المثالي الفلسفي - وقد آثر بعضهم التعبير عنه بالخيالية أو التصورية - هو الذي لا يُقرُّ بحقيقة واقعية أو خارجية لأي شيء خارج ذهن الإنسان ووعيه، فالموجودات التي اعتدنا على نعتها بالمحسوسة هي مجرد أفكار في عقولنا. وقد عبر باركلي عن هذا المعنى بقوله: إن وجود الشيء هو إدراكه، فأن يوجد معناه أن يدرك esse est percipi والموقف المثالي ليس موقفاً جدياً في التعاطي مع المسألة، فالمثالي مضطر في نهاية المطاف إلى تفسير وجود ذهنه ذاته ووعيه، ولن يقتصر الأمر على ذهنه هو وحده بل سيتعداه إلى سائر الأذهان. وإدراكاً من بعض المثاليين لهذه العقبة لم يتردد في التصريح باعتقاده أن القوى العقلية المدركة للأشياء هي بدورها مجرد صور عقلية.

و في مقابل المثالية تقف الاتجاهات الواقعية على اختلافها، والواقعي يقرّ ويسلم بحقيقة وعينية الأشياء بشكل مستقل عن إدراك من يدركها، وهذا معنى واقعية الأشياء. ولذا يعرّف الواقعيون المعرفة بأنها انعكاس للعالم الخارجي على الذهن أو العقل.

وليس من شرط الملحد أن يكون مثالياً أو واقعياً، وكذلك الحال مع المؤمن، فقد وجد في صفوف المثاليين مؤمنون ووجد بينهم ملاحدة، فبندتو كروشه Bendetto Croce مثلا كان ملحداً مع كونه مثالياً، كما انتظم مؤمنون في سلك الواقعيين انتظام الملاحدة بدورهم.

لكن لما كان معظم الملاحدة ماديين والماديون بدورهم واقعيون كانت الواقعية أحظى

Scanned by CamScanner

بالملاحدة من المثالية. فالماديون يؤمنون- وبحماس كبير - بوجود الأشياء في الواقع الخارجي، ويقولون بأصالة المادة، ويفسرون بها كلّ شيء بما في ذلك العقل والوجدان. ومع إيمان الماديين بضرورة العلل الفاعلية لتفسير الوجود، فإنهم يقصرون تلك العلل على عالم الطبيعة، ولا يتعدونها إلى ما يتجاوز الطبيعة، لأنهم يرون العلل الطبيعية كافية في تفسير الوجود فلم افتراض علل وراءها تخرج عن حدود عالم الطبيعة؟

لكن - في مقابل المادي - هل ينكر الفيلسوف الإلهي واقعية الأشياء المادية؟ وهل ينكر الأسباب المادية؟ كلا، إنه لا ينكرها ولا يرى نفسه مضطراً إلى إنكارها، وبهذا الاعتبار فهو مادي، على أنه يختلف من المادي المحض من حيث أنه لا يقف عند العلل المادية وحدها وإنما يذهب إلى أبعد منها مقرّاً بعلل فوق طبيعية.

إذا وضح هذا أمكن إدراك أن النزعة الغالبة على العلم الحديث هي النزعة المادية المحضة التي تحمله على استنكار أدنى إشارة إلى علل فائقة للطبيعة، ويعُدّ ذلك من باب العلم الزائف، ويرى فيه محاولة لتدمير العلم وتقويض صرحه وشوب منهجه بما ليس منه. ولاشك أن هذا التصميم على غلق قوس منهج العلم بهذا الشكل تعزيز للنزعة العلموية المؤمنة بكفاية العلم في تفسير كل ظاهرة أياً تكن وشجب كل محاولة وسعي للفهم والتفسير خارج حدود العلم، فلا خلاص خارج العلم.

ولكن هل بالعلم وحده يحيا الإنسان؟ وهل يتمكن العلم –حقاً – من تفسير كل الظواهر حتى تلك التي يبدو أنها تنتمي إلى مملكة أخرى بدليل سيرها منذ البداية في نهج يتعارض مع مقتضيات القانون الطبيعي المادي؟ وهل العلم هو أقصى حدود العقل الإنساني؟ أم أنه وجه من وجوه العقل الإنساني وجانب من جوانب الوعي الإنساني وطريقة من الطرق التي اهتدى إليها الإنسان في فهم بعض ما يجري حوله في هذا العالم؟

- خصوصية المسائل الإلهية

يمكن أن تصنف المسائل الخاضعة للبحث والتقصي -لجهة منشأ الصعوبة فيها - في صنفين:

الصنف الأول: مسائل منشأ الصعوبة فيها لا يكمن في تصورها، مثل مسائل الرياضيات، بل تبرز الصعوبة عند محاولة حلها.

الصنف الثاني: وهو على العكس من الصنف الأول، مسائل صعوبتها غير كامنة في حلها، بل في تصورها، فيسهل حلُّها لكن بعد إحسان تصورها.

وليس يخفى أن المسائل الفلسفية تنتمي إلى الصنف الثاني، ذلك أن صعوبتها - والتي قد تستحيل أحيانا إلى معضلات - تكمن في تصورها ومن ثم تصويرها.. ويتضح هذا المعنى جليا في قضية إثبات وجود الله.

ومن الملاحظ في دنيا الفكر: أن الأسئلة التي تطرح ثم تحظى بأجوبة خاطئة عنها، تظل تعاد وتُكرّر، أي لا يكف الناس عن طرحها وطلب الجواب عنها.

كما يمكن القول: إن الأسئلة التي تطرح منذ البداية على نحو غالط ستظل هي الأخرى تطرح باستمرار، ولا نقول: حتى تحظى بالجواب الصحيح عنها، إذ إنها لن تحظى بمثل ذلك الجواب. وعلى سبيل التبسيط فإن سؤالاً من قبيل: لماذا لا تتكاثر الحجارة ما لم يرفض منذ البداية وينبه من يطرحه أنه سؤال بلا معنى، سيظل يكرر ولن يجد جواباً. ومثله سؤال: كم يرث الجار من جاره؟ فإن كل محاولات تعرف نصاب ميراث الجار من جاره ستنتهي إلى الخيبة لأن الجار لا يرث من جاره بعنوان الجوار وحده.

والقاعدة المقررة تنص على أن: الحكم على الشيء هو فرع من تصوره، فتصور الشيء بشكل صحيح ودقيق أمر في غاية الأهمية للنجاح في معالجته.

وإن مسألة إثبات الذات الإلهية من المسائل التي يقع كثير من الناس في الخطأ في تصورها . ولعلنا نقف على نماذج من أخطائهم في هذا.

إلماعة إلى أنواع البراهين على وجود الله

ونلفت هنا إلى أن براهين المؤمنين بوجود الله تتنوع إلى براهين فلسفية وأخرى علمية شبه فلسفية[3]، فضلا عن تلك المستمدة من الخبرة الذاتية كبراهين المتصوفة

3- طبعا هناك أدلة أخرى كدليل الفطرة سنؤخر القول فيه.

Scanned by CamScanner

من أهل الكشف والذوق والمواجيد.

والحقّ أن من الغلط الحديث عن براهين علمية محضة، ذلك أن المعطى العلمي لا يستحيل بمجرده دليلاً، حتى يستعين بالفلسفة فيستحيل بهذا دليلاً علمياً شبه فلسفي. يوضّحه أن العلم بطبيعته ومنهجه يقف عند حد العلل الطبيعية دون أن يتعداها إلى ما وراءها، فإن شاء العالم أو المستدل بحقائق العلم أن يتطرق إلى ما وراء الطبيعة فقد جاوز حدوده وصفته وانقلب عند هذه المرحلة فيلسوفاً أو شبه فيلسوف، فمهما رأيت عالماً يتّكئ على حقائق العلم ليخوض في ما وراء الطبيعة - وكم رأينا من أمثال هؤلاء، نيوتن، آينشتين، آرثر إدينغتون، جيمس جينز، شرودنغر، هايزنبرغ، بول ديفيز، وغايرهم كثير – فاعلَم أنه يتحدث الآن لا بوصف العالم وإنما بوصف الفيلسوف.

وسنبدأ بدليل رآه الكثيرون، عبر العصور[4] أقوى الأدلة وأوضحها في آن؛ فلا يحتاج المرء ليستوعبه إلى أن يكون فيلسوفاً أو عالماً مبرّزاً. ولمكان هذا البرهان من القوة والإحكام لم يكن من السهل البتة معارضته ونقضه كما يتوهم بعض من لم يُحسن تصوره وفهمه، أو بعض من حملتهم إرادة الإلحاد على المباهتة والمكابرة.

•••

4 مثل L´Hermenier الذي أخبرنا عنه بيير بايل Pierre Bayle في معجمه التاريخي والنقدي أنه دحض أربعة براهين من الخمسة التي قدّمها توماس الإكويني على وجود الله في خلاصته اللاهوتية ولكنه أذعن للخامس وهو برهان النظم، وبرتراند رسل الذي رغم دأبه على تناول براهين وجود الله باستخفاف مغرور فإنه اضطر هو الآخر الى الاعتراف بقوة برهان النظم لكنه زعم أن نظرية التطور العضوي تتصدى له. وكذلك أنطوني فلو الذي أعلن في نهاية حياته رجوعه عن الإلحاد وتأييده لبرهان التصميم الذكي الذي هو عبارة عن الصيغة العصرية لبرهان النظم أو البرهان الغائي.

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

نظرة إجمالية على برهان النظم

المبحث الأول

تقديم برهان النظم

تعريف برهان النظم

إنه الدليل المعروف في الأدبيات اللاهوتية - سواء منها علم الكلام الإسلامي أو اللاهوت اليهودي أو النصراني- بدليل العناية -وهي تسمية غير موفقة كما سنرى- أو الدليل الغائي، أو دليل النظم . وقد اتخذ في أواخر القرن العشرين اسماً معاصراً بإيحاءات علمية أكثر منها فلسفية، وهو دليل التصميم الذكي[5]. وسنقف لاحقاً على بعض الفروق الطفيفة التي تميز التصميم عن النظم.

وللإسلاميين كلام معروف حول هذا البرهان تحت اسم برهان العناية أو الدليل الغائي ، وكما سلفت الإشارة كان توما الأكويني – من العالم النصراني - قد اعتمد هذا البرهان خامس أدلته التي طرحها على وجود الله تعالى في الخلاصة اللاهوتية. وفي سنة 1802 نشر اللاهوتي الإنجليزي ويليام بيلي (1743- 1805) William S. Paley كتابه المشهور «اللاهوت الطبيعي» Natural Theology - ويقصد باللاهوت الطبيعي دراسة خطة الله في الخلق عبر دراسة وتأمل عالم الخليقة – وضرب له مثلا قُدّر له أن يصيب حظاً كبيراً من الشهرة والذيوع، إنه مثال الساعة التي يكفي تأمل أجزائها في دقتها وترتيبها وتآزرها في أداء أعمالها في الدلالة على استحالة أن تكون تكونت بطريق الصدفة المحضة وأنه لا مناص من وقوف صانع ذكي وراء صنعها وتركيبها. وقد ظل رجال الدين - من المنافحين عن قضية الإيمان – إلى يومنا

5- Intelligent design argument .

Scanned by CamScanner

هذا يرددون التمثيل بهذا المثال وانضم إليهم مؤخراً المدافعون عن برهان التصميم الذكي.

• الشكل المنطقي لبرهان النظم

وبرهاننا هذا من الناحية الشكلية هو استدلال قياسي بمقدمتين صغرى وكبرى وثالثة وسطى، ونتيجة.

فأما مقدمته الصغرى فحسّية، يتكفّل الحسّ بتزويدنا بها. ولهذا السبب التبس أمر هذا البرهان على بعض الفلاسفة، حتى إن ديفيد هيوم سقط سقوطاً مدوياً في كتابه «محاورات في الدين الطبيعي»، حين ظنّ هذا الدليل من أدلة الحس التي يُسند إلى العلم الطبيعي معالجتها. والبرهان الحسي هو الذي تكون جميع مقدماته مستمدة من الحس، أي مما يدرك بإحدى الحواسّ. والحال أن مقدمة هذا البرهان الصغرى وحدها هي المستمدة من الحس على نحو يسمح للعلم بالتدخل عبر تزويدنا بأمثلة ونماذج هي قوام مقدمتنا هذه. ولنا عودة إلى اعتراضات هيوم لنرد عليها في محله.

والمقدمة الكبرى مقدمة عقلية فلسفية ليست حسية أو تجريبية أو استقرائية أو تمثيلية، تتمثل في الاعتقاد بأن كل نظام لا بد له من مُنَظِّم.

وجواباً عن سؤال محتمل : لماذا وصفنا هذه المقدمة بكونها عقلية فلسفية، ولم نصفها بأنها عقلية منطقية؟ نقول: ذلك لأن مفهوم «العلية» من المعقولات الثانية الفلسفية[6].

6 - تُقسّم المعقولات - وهي المفاهيم الكلية التي وعاؤها الذهن - الى: 1 معقولات أولى و2 معقولات ثانية. فالأولى هي المفاهيم الماهوية المنعكسة عن الخارج مباشرة عن طريق الحس الظاهر أو الباطن، فمثلا حين نتوجه إلى الخارج بحسك الظاهري ترى أشجارا تنتزع مفهوما كليا عاما هو مفهوم الشجرة يصلح للانطباق على كل الاشجار الموجودة في العالم. ومعنى هذا أن مفهوم الشجرة موجود بوجود أفراده الخارجية ومأخوذ منها، ويعد هذا المفهوم الكلي وصفا لمصاديقه الخارجية، وهذا معنى قولهم: أن المفاهيم الأولى عروضها على معروضها في الخارج أي ظرف حملها أو طروئها على موضوعها هو الخارج، واتصاف معروضها به في الخارج أيضا، فاذا قيل: محمد أبيض البشرة. فإن ظرف اتصافه ببياضها هو الخارج كما أن عروض البياض عليه

Scanned by CamScanner

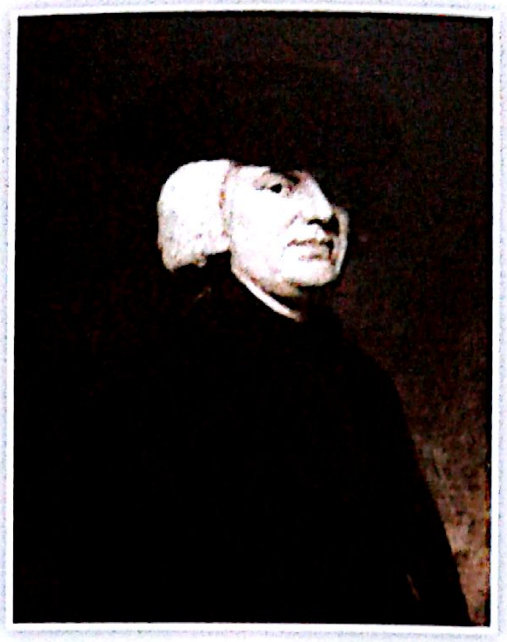

ويليام بيلي

أما المقدمة الوسطى فهي المشترك بين المقدمتين الكبرى والصغرى وهي لفظة النظام.

وهكذا تكون كل المقدمات جاهزة لاستخلاص النتيجة وهي أنه لا بد من منظّم لما نرى من نظام في العالم الطبيعي.

في الخارج. وتنقسم المعقولات الثانية إلى منطقية وفلسفية. فالمعقولات الثانية المنطقية وهي المفاهيم المنطقية كالكلية والجزئية والجنس والنوع والفصل والعرض العام والخاص والقضية والموضوع والمحمول، وهي مفاهيم لا تتصف بها الأعيان الخارجية وإنما المعقولات الأولية، فلا يقال مثلا: سعيد نوع، بل: الإنسان نوع، فالمعقولات الثانية منتزعة من الأولى المأخوذة بدورها من الخارج مباشرة، فلا علاقة للمفاهيم الثانوية بالخارج مباشرة بل عن طريق الأولية ، ومن هنا سنرى أن عروض المفاهيم الثانوية بكلا قسميها لمعروضاتها إنما يكون في الذهن، والافتراق فقط في الاتصاف، فمفهوم الإنسان مثلا معقول أولي يعرض لمصاديقه في الخارج وتتصف به خارجيا، لكن اتصاف هذا المفهوم بأنه مفهوم كلي من باب النوع – فمفهوم «الإنسان» مفهوم كلي والكلي ينقسم إلى جنس ونوع وفصل... إلخ – معقول ثان، فبان بهذا أن المعقول الثاني يرد على المعقول الأول، والمعقول الأول نفسه وعاؤه الذهن، فيكون عروض المعقول الثاني المنطقي على معروضه في الذهن لا في الخارج واتصاف معروضه به في الذهن أيضا لا في الخارج. فمفهوم «الإنسان» له مصاديق خارجية بعدد أفراد بني آدم، لكن مفهوم «النوع» العارض لمفهوم «الانسان» لا مصداق له في الخارج بل في الذهن كمفهوم «انسان» و«فرس» و«ثعبان» ...إلخ. أما المعقولات الثانية الفلسفية فهي المفاهيم الفلسفية كالعلية والإمكان والضرورة والوجوب والإمتناع ...الخ وترد ايضا على المعقولات الأولى، فمفهوم «النار» وهو مفهوم أولي يرد عليه مفهوم العلية، فيقال مثلا: النار علة إحراق الورق، ولما كان مفهوم النار مفهوما كليا أوليا وعاؤه الذهن فإن طروء مفهوم «العلية» عليه أي عروضه له أو حمله عليه إنما يكون في الذهن ضرورة، لكن اتصاف النار بالعلية إنما يكون في الخارج، في حين لا يمكن القول مثلا: زيد كلي أو نوع، فالمعقولات الثانية الفلسفية تفترق عن المنطقية من حيث إن المنطقية لا مصداق لها في الخارج بينما الفلسفية لها مصداق فيه فيصح أن يقال إن هذا سبب هذا أو علته وهذا معلوله . ونختم بتوضيح الفرق بين العروض والاتصاف، فالعلاقة بين الموضوع والمحمول في القضية حين نلاحظها من جهة الموضوع نعبر عنها بالاتصاف، وحين تلاحظ من جهة المحمول نعبر عنها بالعروض. فإذا قلنا مثلا: الشمس منيرة، فالشمس موضوع ومنيرة محمول، فالشمس تتصف بالإنارة والإنارة تعرض للشمس.

Scanned by CamScanner

• رحلة البحث عن المنظم

عند هذه المرحلة تبدأ رحلة البحث عن المنظم: هل هي الطبيعة، أم الصدفة، أم شيء وراء ذلك كله؟

محورية مفهوم العلية

إن المادي والمؤمن كليهما يؤمنان بالعلية، وهي مفهوم عقلي فلسفي، وهما لا يفترقان في العلل المادية والعلل الصورية، لكن يفترقان في العلة الفاعلية .

وهنا من الضروري الاستطراد ببيان معنى هذه الاصطلاحات.

• أنواع العلة

تحدث أرسطو عن أربعة أنواع من العلل: المادية، والصورية، والفاعلية والغائية.

ونضرب مثلا لبيان هذه الاصطلاحات: المنضدة، لها صورة معينة وهذه هي العلة الصورية؛ وهي مصنوعة من الخشب مثلا أو الزجاج أو من معدن ما، وهذه هي العلة المادية؛ وصنعها صانع ما، نجار أو حداد أو سواهما وهي العلة الفاعلية؛ وقد صنعها لتحقيق غرض أو غاية ما كأن تكون لتناول الطعام عليها أو للكتابة أو لأي غرض كان، وهذه هي العلة الغائية.

• من التسلسل إلى خاصية المادة

إن المادي يسلسل العلل الفاعلية إلى ما لا نهاية، فيجعل لكل معلول علة ثم لا يقف عند علة أخيرة هي الأولى غير المسبوقة بعلة. وهذا هو معنى التسلسل الذي هو ترتب علل ومعاليل متناهية من آخرها – أي المتصل بالآن – وغير متناهية من أولها، وهكذا يكون الأخير منها متّصفاً بالمعلولية المحضة بخلاف سائرها التي يكون كل منها معلولاً لما فوقه وعلة لما تحته. والتسلسل مستحيل عقلياً[7]، وذلك أنه يقضي بأن تتسم السلسلة كلها بصفة المعلولية من غير أن يكون فيها ما يتسم بسمة العلية فقط، فكل حلقة في

7 – ذكر الفلاسفة العقليون زهاء عشرة براهين على بطلان التسلسل لا تسلّم كلها لهم بسبب أنها مستمدة من الهندسة التي تجري بطبيعتها في الأمور المتناهية ، ولذلك اعتمدنا على برهان العلية في إبطال التسلسل لأنه برهان فلسفي لا يرد عليه ما يرد على الهندسيات.

Scanned by CamScanner

السلسلة معلولة لما فوقها بلا نهاية، والمركب من المعاليل يكون بدوره معلولاً، فالسلسلة كلها معلولة، ويثور هنا سؤال كبير: لأيّ علة هي معلولة هذه السلسلة، لأن المعلول لا ينفك عن العلة؟ فإن اقترحنا علةً ليست معلولة لغيرها بل هي قائمة بنفسها انقطع التسلسل وهذا خلف، فبان بهذا بطلان التسلسل. إن اجتماع أو تسلسل المعاليل بدون الانتهاء إلى علة غير معلولة هو بمثابة اجتماع أو توالي أصفار لا يُنتج عدداً مهما زدتَ في تلك الأصفار، ما لم يقف عن شمالها عدد صحيح قائم بنفسه بخلافها هي حيث لا تقوم إلا بغيرها. وذكروا في بطلان التسلسل أنه يلزم منه تساوي اللامتساوي وهذا مستحيل، فلو قارنّا بين خطين زمنيين يمتدان من أولهما إلى ما لانهاية وينتهي أحدهما اليوم أما الآخر فانتهى قبل مليار سنة، فبحسب التسلسل يتساويان إذ يتم تعويض نقص أحدهما عن الآخر من جهة النهاية من رصيد البداية اللانهائية ، مع أن العقل قاض بزيادة أحدهما عن الآخر لا محالة، ولا تتبرر هذه الزيادة إلا بتسليم التناهي في البداية وهو خلاف فرض التسلسل.

و بسبب انتباه بعض الماديين إلى هذا الإشكال الفلسفي آثروا التنازل عن التسلسل وعن القول بالصدفة والاتفاق مستعيضين بما لا عوض فيه: نظرية خاصية المادة، وخلاصتها أنّ لكلّ مادة خواصَّ معينة ظاهرة وباطنة، فخاصية النار الإحراق وخاصية السكر الحلاوة، وخواص الماء الميوعة، والسيلان والتجمد ..إلخ وهناك قابلية الذوبان والتبلور وقابلية ذرات الصوديوم للالتحام بذرات الكلور وتكوين ملح الطعام. وتنص نظرية لويس على أن القاعدة هي المادة التي لها قابلية لفقد الزوج الإلكتروني والحمض هو المادة التي لها قابلية اكتساب الزوج الألكتروني وهَلُمَّ جرًّا. وتفاعل المواد بعضها مع بعض وتأثرها هو ما جعل الكون على ما هو عليه، وبهذا المنطق يمكن – في ظنهم وحسب زعمهم – تفسير كل ظاهرة، فتخلّق الجنين في الرحم –مثلا- معلول لخواص الحيوان المنوي وخواص البويضة إذا التقيا. فالمادة بخواصها قادرة على إبراز تصاميم معقدة دقيقة، وبتعبير آخر أصبحت المادة عندهم ذات خصائص إلهية.

Scanned by CamScanner

• أهمية العلة الغائية عند المؤلّه

إن الافتراق الثاني بين المادي والمؤلّه، يتمثل في العلة الغائية. فالمؤلّه يجمع إلى إيمانه بالعلل الفاعلة إيمانه بالعلل الغائية، بمعنى أن العلة الفاعلية تتصف بعلم وإدراك يسمحان لها بإبداع تصاميم تخدم مقاصد وأهدافا معينة. والعلم المادي لا يعترف بالغائية مطلقاً.

ولهذا البحث أهميته عند المعنيين بمسألة إثبات وجود الله؛ حيث لا تفي العلة الفاعلية وحدها بتقديم تبرير للمصنوعات المحكمة الحاملة لبصمات الذكاء والحكمة.

فعلى سبيل المثال هل يتمكن الشخص الأمي من أن يكتب كلاماً دقيقاً معجباً في علم دقيق صعب؟ بداهة كلا، لكن ماذا لو وقعنا على كتابة كهذه؟ حينها سنقطع بأن كاتبها شخص متعلم تعليماً كافياً أهّله لأن يكتب مثل تلك الكتابة.

من هنا يجمع المؤلهة في إيمانهم بين العلتين الفاعلة والغائية، ويأبون التفكيك بين العلة الفاعلية والعلة الغائية، عند محاولتهم تفسير نظام الكون ونشوئه، خلافاً للمادي الذي يأبى الإذعان أصلاً للعلة الغائية.

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني
الخصائص العامة لبرهان النظم

الخاصّية المنطقية لبرهان النظم

إن أول ما يتميز به برهان النظم هو أنه برهان عقلي وليس برهاناً حسياً أو تجريبياً أو استقرائياً أو تمثيلياً.

أدوات المعرفة لدى الإنسان

تتنوع وسائل المعرفة لدى الإنسان إلى:

1 -حسّ و2 - تمثيل و3 - استقراء و4 - تجربة و5 -عقل.

الحس: ويشمل الحس ووسائله المعروفة من السمع والبصر والشم والتذوق واللمس. وإن المعرفة التي ينالها الإنسان بالحس بطبيعتها جزئية، فإذا قرّب النار من القطن لأول مرة فاحترق لم يمكنه استنادا إلى الحس بمجرده أن يعمم فيقضي بأن النار بالمطلق تحرق القطن بالمطلق، بل لا بد من وسيلة أخرى تمكنه من الوصول إلى هذه النتيجة.

والتمثيل: هو المعروف لدى الفقهاء بالقياس، ويقصد به تعدية حكم جزئي إلى جزئي آخر لاشتراكهما في علة الحكم، فإذا علمنا أن علة تحريم الخمر هي الإسكار ثم تحققنا منها في مائع آخر عدّينا إليه حكم الخمر وهو حرمة شربه. والتمثيل من الأدلة الظنية لا اليقينية. وقد يحسن أن نميز بين القياس في المنطق والقياس في أصول الفقه. فالأول برهاني والثاني تمثيلي. قلنا آنفاً: إن القياس الأصولي هو ما يسمى في المنطق بالتمثيل، وعرفناه وضربنا له مثلاً بتحريم الخمر بعلة الإسكار ومن ثم تحريم كل مسكر قياساً، لكن هذا القياس الأصولي يفترق عن القياس المنطقي من حيث أن المقدمة الثانية، أي علة الإسكار ليست تامة، فقد توجد هناك علل أخرى غير الإسكار، ومن هنا ظنية القياس الأصولي في مقابل قطعية القياس المنطقي لأن جميع مقدماته قطعية: مثل، كل إنسان فان، وزيد إنسان، إذن زيد فان.

Scanned by CamScanner

وأما الاستقراء: فهو الانتهاء من ملاحظة جزئيات كثيرة إلى إثبات حكم كلي يعمها، فباستقراء عدد من المعادن المختلفة وجد أن كُلّاً منها يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة ننتهي إلى تعميم ينص على: أن كل معدن يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة.

ونعني بالتجربة: إجراء اختبارات عملية كثيرة في قضية واحدة وبشروط محددة – تعرف في مناهج العلوم – تسمح في النهاية بالخروج بقاعدة عامة، كالتجارب التي تجرى على بعض المركبات اختبارا لخواصها العلاجية أو لمدى تأثيرها في صحة الإنسان أو الحيوان سلباً أو إيجاباً، ويفرق بين التمثيل والاستقراء من جهة وبين التجربة من الجهة الأخرى بأن ملاك الاستنتاج في الأولين هو التشابه بين الجزئيات في وجه واحد أو في بعض الوجوه، لكن ملاكه في التجربة المماثلةُ التامة بين الأفراد، أي الأفراد التي تم تجريبها وتلك التي لم تجرب، فالتجربة المجراة مثلا على عقّار الأسبرين تسمح بتعميم الحكم على كل أفراد هذا العقار لا على أفراد عقار آخر لم يختبر تجريبيا.

أما العقل: فعمله ينحصر في ملاحظة الموضوع نفسه من دون ملاحظة باقي الأفراد الأخرى، فالعقل – مثلا – بحسب مبدأ السببية – يقضي بنفسه بوجود سبب يقف من وراء انهيار مبنى ما بصرف النظر عن كونه على اطلاع كاف على تاريخ وخصائص هذا المبنى أو على غير اطلاع، ويمنع – دون أدنى شك – من اعتقاد انهيار المبنى بلا سبب.

• توضيح القياس في برهان النظم

لقد ظن هيوم ومن تابعه أن برهان النظم من باب التمثيل أو التجريب ، وهو ظن غالط تماماً وقاصر عن فهم جوهر وحقيقة برهان النظم. فقد قرّر هيوم –في محاوراته في الدين الطبيعي على لسان بطله كليانثس – أن برهان النظم من باب القياس ، فنحن نلاحظ أن المصنوعات البشرية المنظمة لا تخلو عن صانع عليم ماهر فنقيس عليها الكون وصنائعه الطبيعية ثم نخلص إلى ضرورة أن يكون لهذا الكون صانع ماهر عليم، أي نبرهن على وجود إله ذي ذكاء مشابه لذكاء البشر.

Scanned by CamScanner

ثم راح هيوم يعترض بأننا وإن جربنا الصنائع البشرية من الساعة والمركبة والسفينة وسائر المخترعات وقطعنا في كل مرة بأنها مفعولات لبشر صنّاع أذكياء، لكننا لم نجرب الكون نفسه الذي لم يتكرر وجوده أمامنا، ولم يتح لنا أن نقايسه بأكوان أخرى كما تيسر لنا ذلك في شأن المصنوعات البشرية، فكيف ساغ لنا إذن أن نزعم أن هذا الكون صُنع إله عليم قدير؟

والحال أن برهان النظم برهان عقلي قياسي، ومفاد القياس فيه أن التصميم المنظّم لا بد له من مصمّم مُنَظِّم، وذلك وفق ما يقضي به العقل بحسب قانون العلية أو السببية. وقياسنا هذا وإن كانت مقدمته الصغرى حسية، لكن يبقى لبّه وجوهره عقلياً محضاً. فالعقل يحكم من خلال ملاحظة ظاهرة ما منظمة بضرورة وقوف منظِّم وراءها من دون قياسها بشيء آخر أو تمثيلها بشيء آخر أو إجراء تجارب عليها، أمّا الحسّ بمجرده فلا يتعدّى ملاحظة الظاهرة وهذا لا يتقوّم به أيُّ استدلال، فالاستدلال أمر وراء الملاحظة.

كفاية الاستقراء الناقص

لقد انتبه علماء الكلام منذ القدم إلى أن برهان النظم لا يحتاج في إثباته إلى تصفّح كل موجودات الكون، أي أنه لا يحتاج إلى استقراء تام بل إن مجرد تصفح بعض هذه الموجودات ولو كان واحدا، أي إجراء استقراء ناقص لها، يكفي لتشكيل مقدمة لهذا البرهان.

ومثلوا بهذا المثال: لو أنّ شخصا ما دخل إلى مكتبة فوقع فيها على عشرة كتب منسوبة إلى كاتب معين، فأخذ يتصفح أحد تلك الكتب فوجده مبوبا مفصلا، ووجد في أبحاثه وتقريراته ما يدل على فهم عميق ونظر ثاقب ومحاججات متينة، فإنه يكتفي بمجرد هذا التصفح ليُصدر حكمه على مؤلف الكتب بأنه رجل مفكّر عالم.

تنبيه حول البراهين الأخرى

وقع الخلط من بعض المتكلمين بين برهان الهداية وبرهان النظم، والحق أنهما

Scanned by CamScanner

برهانان متمايزان رغم تآزرهما ، فالنظم يتعلق بتركيب وبنية الكائن، أما الهداية فتعلقها بسلوكه وتصرفه، لكن يمكن أن يقال: إن اهتداء الكائن إلى ما فيه صلاحه من أسباب التكيف والتخفي والحماية وتحصيل رزقه ...الخ إن أمكن تفسيره ببنيته وتركيبه تفسيراً مقبولاً سائغاً، فيمكن في هذه الحالة إدراج برهان الهداية ضمن برهان النظم، فتكون الهداية صورة من صور النظم بلحاظ الوظيفة من خلال درس التركيب لا بلحاظ التركيب وحده. وإن لم يمكن تفسير مظاهر الهداية وآلياتها بالبنية والتركيب واحتيج إلى افتراض مصدر وراء ذلك كإلهام إلهي كانت الهداية برهانا مستقلا. إن الآيات من مثل﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾(الأعلى: 2) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(الفرقان:2) دالة على النظم. أما الآيات من مثل ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال ...﴾(النحل: 68) و﴿والذي قدر فهدى﴾(الأعلى: 3) فدالة على الهداية. وثمة آيات جمعت بين البرهانين: النظم والهداية، من مثل ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾(طه: 50) و﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾(الشعراء: 78) وقوله ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾(الأعلى:2-3).

•••

Scanned by CamScanner

الباب الثاني

العشوائية والصدفة في الميزان

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

بين النظم والصدفة

المبحث الأول

المنظم والعشوائي

البحث عن بصمات الذكاء

لنفرض أن إنساناً وقع على قطعة حجرية في كهف قديم ، تناولها ثم رمى بها ، ثم لفتت نظره قطعة أخرى إلى جوارها تتضمن كتابة منقوشة عليها تحمل رسالة مفهومة وصوراً ذات دلالات مفهومة. فهل يجد ذلك الشخص نفسه مضطراً إلى التمييز بين القطعتين أم لا؟ حتما سيميز صاحبنا بين الحجرين لجهة التصميم، فعقله يقطع باستحالة أن تكون تلك الكتابة والصور جاءت من تلقاء نفسها أو بطريق الصدفة، ولذلك سيتجه إلى السؤال عن مصمم الحجر الثاني ذي الكتابة والصور.

إنّ الفرقَ بين ما يُعَدّ تصميماً ذكياً وما ليس كذلك أمر مهم لمن يُحاج ببرهان النظم ولكنه ليس يسيرا، والقائلون بالنظم أو التصميم مطالبون بتحديد معايير وملكات التمييز بين التصميم الذكي والعشوائية.

وقد اقترح علماء التصميم الذكي ملاكاً يتمثل في حمل النظام البيولوجي لعلامات تدل على الذكاء بما ينفي احتمال التكون صدفة، وقد اصطلحوا على نعت مثل هذا النظام بالتعقيد المتخصص والتعقيد غير القابل للاختزال. ولا يزال الموضوع بين شد وجذب بين القائلين بالتصميم الذكي والرافضين له.

النظم عند اللاهوتيين

يحدّد علماء الكلام واللاهوتيون أركان النظم بثلاثة:

Scanned by CamScanner

الأول، الاشتمال على أجزاء مختلفة: فالنظام يتكون من أجزاء متعددة يؤدي كل منها دوراً محدداً.

والثاني، الترابط والتناسق الحاصل بين تلك الأجزاء.

الثالث، أن يحكي ذلك هدفية وغائية ما، ففي النهاية يتمخض التركيب والعمل عن نتيجة ما: تحقيق غاية معينة مفهومة.

والتصاميم -كما نعلم - تنقسم إلى صنعية من عمل الإنسان، وأخرى طبيعية. فالطائرة والسفينة والسيارة والساعة والمسدس والغسالة والثلاجة وناطحة السحاب إلى سائر ما أبدع الإنسان من إبرة الخياطة الى سفينة الفضاء ...إلخ كلها أمثلة على تصاميم صناعية. وهذه لا علاقة لها مباشرة ببرهاننا.

أما التصاميم الطبيعية فمن الكثرة بمكان بحيث يستحيل إحصاؤها فكل كائن حي من الإميبيا إلى الإنسان يشكل تصميماً بحاله فضلاً عن أجزاء الكائن كالخلية الحية التي تدهش العقل بتعقيدها ودقتها وتخصص أعمالها ، وبكلمة: الكون غاص بالنظم المعقدة من الذرة إلى المجرة وما احتواه كل منهما.

• الصدفة: من اعتراضات الملحدين

لا يجد الملحد أدنى غضاضة في التسليم بكون كذا أو كذا من الأشياء التي يعج بها العالم تصميماً دقيقاً محكماً، لكنه ينبري ليجادل بأنها مفعول الصدفة لا مفعول إله عليم حكيم قدير أبدعها.

فليت شعري ما المراد بتلك الصدفة التي تقتدر على إبداع كل هذا الجمال والإحكام ؟

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

الصدفة والاصطفاء الطبيعي

أهم التصورات عن الصدفة

يمكن تعريف الصدفة بأنها غياب العلة. ولكن هل المقصود العلة الفاعلية أم العلة الغائية؟

قد أسلفنا أن الملحد والمادي عموماً – شأنه شأن المؤمن - لا يتنكر للعلل الفاعلة ولا ينكر مبدأ العلية، ولكنه يصرّ على الاكتفاء بالعلل الطبيعية منكراً العلل الفائقة للطبيعة، ثم هو مضطر إلى أن يسلسل العلل الفاعلية إلى ما لا نهاية، وهذان الأمران يمثلان الفرق بينه وبين المؤمن، علاوة على أن المادي أو الملحد ينكر العلة الغائية – بخلاف المؤمن – فالمؤمن يعتقد أن فرض وجود علة فاعلية لا يفسر وحده ما نراه في العالم من مظاهر النظم وأنه لا بد من فرض العلة الغائية التي تشترط الفهم والذكاء والحكمة إلى جانب الإرادة والقدرة. ولكن العلل التي يركن المادي إليها علل لا عقل ولا قصد لها، إنها الطبيعة نفسها والمادة العمياء الجامدة، ولذلك هو مضطر إلى الإقرار بأن علله لم تقصد إلى إبداع نظم هادفة تقوم بأعمال محددة لأغراض محددة، بل قصارى الأمر أن الحركات اللاواعية العمياء للمادة عبر ملايين السنين وملايينها تمخض عنها في النهاية نظم رأينا – بوصفنا كائنات عاقلة – فيها دقة وإحكام وهدفية.

فبان بهذا أن الملحد لا ينكر العلة الفاعلة لكن ينكر العلة الغائية، مجازفاً بإسناد ما يزخر به الكون من مظاهر الدقة والإحكام المبهرين - اللذين يميزان شتى النظم - إلى الصدفة. النظام إذن هو ابن الصدفة!

ولعل المثال المفضّل حالياً للملاحدة على هذا المعنى هو «الانتخاب الطبيعي» Natural selection الذي يصفونه بأنه عملية عمياء -نعم- لكنها ليست عشوائية،

Scanned by CamScanner

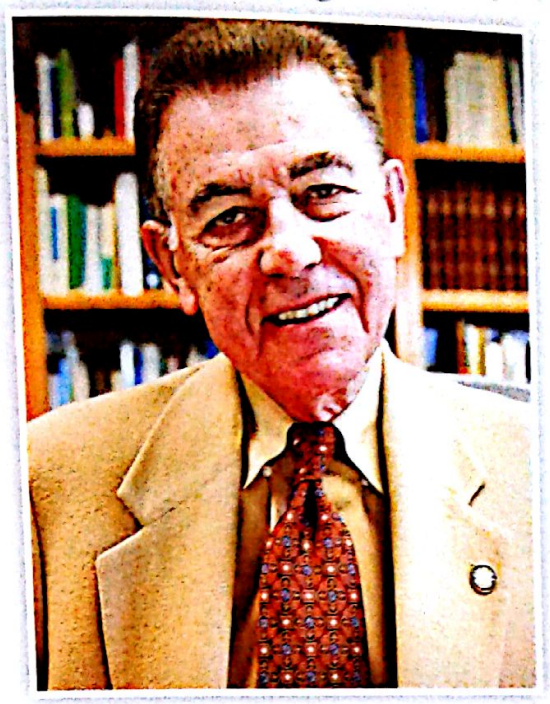

فرانسيسكو أيالا

بمعنى أنه لا يعي ما يقوم به فهو بهذا الاعتبار أعمى، وقد شبهه التطوري الملحد ريتشارد دوكنز بصانع الساعات الأعمى blind watchmaker – وهو اسم كتاب له – أما لماذا ليست هذه العملية عشوائية فلأن ما تبقى عليه من التغيرات الحادثة ليس كما اتفق بل ما يساهم في زيادة تمكين الكائن من التكيف مع بيئته، وهكذا يبقى في النهاية الأكثر تكيفاً ويزول الأقل تكيفاً، المبدأ الذي دعاه عصري داروين «هربرت سبنسر» البقاء للأصلح.

• نظرية الاصطفاء الطبيعي تعزز الصدفة

وفقا لعالم الأحياء الإسباني فرانسيسكو أيالا Francisco J. Ayala[8]: تكمن أعظم إنجازات داروين في إظهار كيفية الوصول إلى تعقيد الكائنات المنظم من دون ذكاء قادر على التصميم. يشير أيالا إلى الآلية الرئيسة للتطور: الانتخاب الطبيعي والذي هو كما وضحنا للتو عملية غير واعية وبلا رؤية مستقبلية، أي بلا أهداف وغايات، تتمخض عن تصاميم أكثر قدرة وأصلح للبقاء.

وتتجلى خطورة هذه الفكرة إذا علمنا أن اللاهوتيين إلى ما قبل دارون – وربما إلى اليوم – لدى من لم يدرك جوهر الاصطفاء الطبيعي -كانوا يحاجون ضدّ الاستناد

8- فرانسيسكو أيالا: ولد 1934، عالم أحياء وفيلسوف إسباني-أمريكي له كتاب «ستة أسئلة عن نظرية التطور»

Scanned by CamScanner

ويليام ديمسكي

إلى الصدفة في تفسير نشوء النظم وعملها بأننا لو سلمنا اعتباطا بنجاح الصدفة في توفير عوامل بناء النظام، فالمرجح أنها بتوفير عامل هدم واحد قد تقوض البناء كله من أساسه. لكن مع طرح داروين لآلية الانتخاب الطبيعي آلية رئيسة للتطور بالمعنى الذي وضحناه آنفا لم يعد ممكنا للاهوتيين أن يستمروا في ترديد حجتهم القديمة دون أن يجيبوا عن احتجاج الملاحدة بآلية الانتخاب الطبيعي.

هنا يجب أن نسجل أن الخطأ في موقف اللاهوتيين يكمن في كونهم لم يكونوا منذ البداية موفقين في الإتيان بحجة متينة لنفي دور الصدفة في النظم.

ولنضرب مثالاً يوضح الفكرة:

لنفرض أن لدينا وعاء فيه عشر قطع مرقمة من 1 إلى 10؛ فإذا أغلقناه وخضضناه خضاً قوياً، فما هو احتمال أن تأتي القطع مترتبة من 1 حتى 10؟

احتمال ضعيف جداً، لكن كلما تمادى الزمان ازداد هذا الاحتمال قوة.

والآن لنفترض أنه بعد ألف سنة من الخض، أتت الأعداد مترتبة من 1 حتى 9. حسن، لكن احتمال أن تهدم الخضة التالية إنجاز الصدفة، لنضطر إلى البداية من جديد هو أقوى بآلاف المرات من أن تأتي بالرقم 10 ليكتمل ترتيب عشرة الأعداد كلها.

لكن مع مبدأ الانتخاب الطبيعي يصبح مثالنا هذا غير وارد. لأن الانتخاب الطبيعي

Scanned by CamScanner

ليس عشوائيا بحيث تضطر الطبيعة أن تعود في كل مرة إلى المربع صفر، فالفاشل يزول والناجح يستمر. وسوف نعود لاحقا لنجيب عن هذه الشبهة.

• نظرية خاصية المادة

أمّا النظرية الأخرى في تبرير الصدفة ونفي العلة الغائية، فهي نظرية خاصية المادة. وقد سبق أن ألمحنا إليها لدى كلامنا عن بطلان التسلسل، ولنا عودة إليها لاحقاً.

وخلاصتها أن للمادة من الخواص ما يمكنها من إبراز نظم دقيقة معقدة بما يجعل الكون ما هو.

•••

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

العشوائية على محك التجربة

المبحث الأول

محاولة فاشلة لإثبات العشوائية

قردة هكسلي وأعمال شكسبير

وفقا للسير جيمس جينز فإن توماس هكسلي(1825 - 1895)Thomas Henry[9] Huxley- عالم الأحياء المعاصر لداروين والذي كان يلقب بكلب داروين Darwins Bulldog لدفاعه المستميت عن نظرية دارون- قام بطرح مثال خيالي[10]، افترض فيه قردا يجلس أمام آلة طباعة، ينقر على أزرارها بشكل عشوائي لمدة غير منتهية، فمن المؤكد أنه في يوم ما سيكون قد نجح – بالطبع دون أن يدري – في كتابة الأعمال الكاملة لشكسبير! ودعيت هذه بمبرهنة القرد غير المنتهية infinite monkey theorem.

وتطبيقاً لفرضية هكسلي، قامت مجموعة من الطلاب بجامعة بليموث بمنحة من المجلس البريطاني للفنون British National Council of Arts بتصميم تجربة محاكاة حاسوبية لاختبار مبرهنة القرد، فوضعوا ستة من قرود macaque المكاك أمام جهاز كمبيوتر في قفص لمدة شهر، في النهاية انتجت القرود خمسين صفحة من الرسائل، لكن بلا كلمة واحدة، فحتى حرف A أو حرف I بفراغ قبله وفراغ بعده يحيله إلى كلمة، لكن هذا لم يحدث، ولما كانت لوحة المفاتيح تحتوي على ثلاثين مفتاحا، ستة وعشرون منها للحروف وأربعة للرموز فإن احتمال الحصول على كلمة

9- كان هكسلي لا أدريا، وهو أول من وضع مصطلح اللا أدرية Agnosticism وكان يسخر من استدلالات الملاحدة العلمية على عدم وجود الله، ويقول بتكافؤ أدلة وجود الله وأدلة عدم وجوده.

10 - تبيّن أن عَزْو جينز -في كتابه الكون الغامض - هذه المبرهنة إلى هكسلي غير صحيح.

Scanned by CamScanner

واحدة مكونة من حرف واحد بطريق الصدفة في كل محاولة يساوي 1/27000 وهو حاصل ضرب ثلاثين في ثلاثين في ثلاثين.

وكان ممن أشار إلى هذه التجربة عالم الكونيات والفيزياء النووية غيرالد شرودر Gerald Schroeder الذي درس مقدار احتمال الحصول على السوناتا الثامنة عشرة لشكسبير بمثل هذه الطريقة العشوائية،أأضاهيك بنهار صيف :Shall I compare thee to a summers day ويبلغ عدد حروفها 488 حرفا، فانتهى إلى أن احتمال ذلك يساوي $1/26^{488}$ أي واحداً مقسوماً على ستة وعشرين مرفوعة للأس 488 وهذا يعادل بدوره 690-10 أي عشرة مرفوعة للأس السالب 690، ولكي نأخذ فكرة عن مدى فخامة هذا الرقم يكفي أن نعلم أن عدد الجسيمات الدقيقة من ألكترونات وبروتونات ونيوترونات في الكون كله يساوي عشرة مرفوعة للأس ثمانين، بل هناك ما هو أعجب وأهول، فلو استحالت كل مادة الكون – التي يقدر وزنها ب 1.45مضروبة في عشرة أس 53 كيلوغرام - إلى رقائق حاسوبية computer chips وزن كل واحدة منها واحد على مليون من الغرام، وافترضنا أن كل رقاقة تستطيع أن تقوم بمليون محاولة في الثانية، فسنصدم بحقيقة أن عدد المحاولات التي يفترض ان تتم في 13.7 مليار سنة – وهو عمر الكون – لا يزيد على عشرة مرفوعة للأس تسعين، ما يعني أننا نحتاج إلى كون أكبر من كوننا بمقدار عشرة أس ستمئة!!!

ثمة مثال آخر بالغ الإثارة: يتكون إنجيل الملك جيمس KJB من 4805563 حرفاً، فما احتمال نجاح قردنا المثابر في انتاج هذا النص بطريق النقر على أزرار الطابعة؟

الجواب هو: $26^{4805563}$ – وتمثل عدد أزرار الطابعة مرفوعة إلى الأس 4805563 أي عدد حروف الإنجيل -و ذلك يساوي 3.8×10^{5032323}، أي 3.8مضروبة في 10 مرفوعة للأس 5032323

ولنتبين كم هو هائل هذا الرقم، فعلينا أن نتخيل مره أخرى مادة الكون كلها - البالغة 45×10^{53} كيلوغرام – وقد استحالت إلى طاقة – وفقا لمعادلة آينشتين الشهيرة $E=m \times c^2$ - بمعدل عشرة ملايين مرة في الثانية وذلك على مدى 20 مليار سنة، واستخدمت هذه الطاقة في إنتاج نص على أقل مستوى طاقة ممكن، لأمكن

Scanned by CamScanner

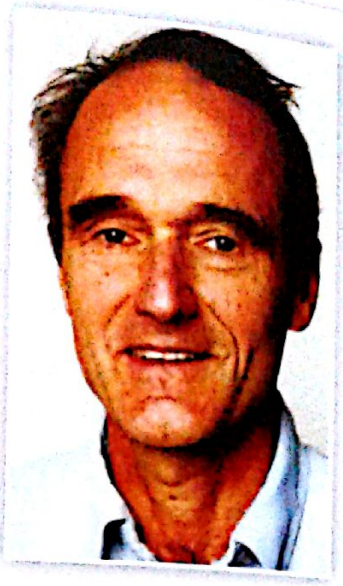

جيرالد شرودر

شكسبير

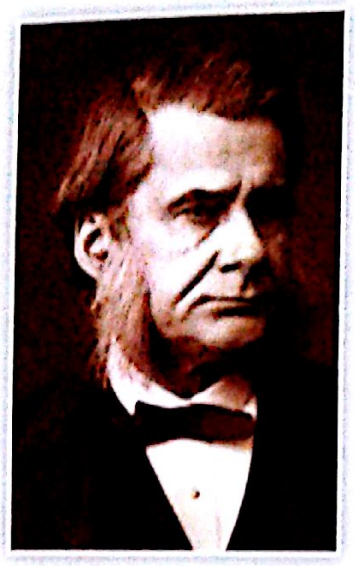

ويليام هاكسلي

إنتاج 10^{88} نصاً بطول إنجيل الملك جيمس. وإذا ضربنا هذا الرقم في عدد الذرات في الكون البالغ 10^{78} كان الحاصل 10^{166} وهو كما ترون لايزال رقما شديد القزامة بالقياس إلى الرقم المطلوب . حسن، إذن فلنحاول مع نص أصغر بكثير من إنجيل الملك جيمس، جملة قصيرة مكونة من 24 حرفا وفراغات أربعة فالمجموع 28 فقط In the beginning God created إنها شطر الآية الأولى من سفر التكوين، ولدينا 26 زرا ومسافة فالمجموع 27، إذن 27^{28} وهذا يساوي 1.20×10^{40} ومع أنه دون رقمنا المهول ذاك بمراحل خيالية، لكنه مع ذلك يشبه البحث عن ذرة حديد واحدة من بين تريليون طن من الحديد، وتريليون طن يساوي 10^{18} غراما (فالترليون 10^{12} والطن بالغرامات يساوي 10^{6}) وكل غرام حديد يحتوي على 1.1×10^{22} ذرة حديد، وعليه فترليون طن من الحديد يحتوي على $10^{18}\times1.1\times10^{22}$ وهذا يساوي 1.1×10^{40} ذرة.

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

نظرية الصدفة تسقط أمام الأرقام

انهيار مبرهنة القرد

تعليقاً على الاحتمال السابق المتناهي الضآلة نقول: إن هناك حداً معيناً إذا جاوزه الاحتمال تصفّر أي صار بمثابة الصفر، وذلك أننا لا نتحرك في زمان مفتوح وشروط مفتوحة وإمكانات مفتوحة، ففي النهاية فإن للكون حجماً وحدوداً - وإن تكن تتسع - كما أن له عمراً محدداً، فالكون محدود زماناً ومكاناً، وكل احتمال يُفرض لا بد أن يكون محكوماً بهذه الحقيقة.

ويليام ديمبسكي[11] فيلسوف ورياضياتي ولاهوتي أمريكي مثير للجدل بأطروحاته حول التصميم الذكي، سكّ مصطلح (حد الاحتمال الكوني) universal probability bound ويساوي (10^{-150}) عشرة أس ناقص مئة وخمسين، ويمثل درجة لا احتمالية وقوع حدث ما في كوننا المعروف، بمعنى أن أي حدث تكون قيمة احتمال وقوعه أقل من عشرة مرفوعة للأس السالب 150 يستحيل وقوعه. وعليه فإن كل حدث يكون احتمال وقوعه أقل من هذا الحد كأن يكون مثلا 1/10 أس 151 أو ½ على 10 أس 150 فلا مناص من اعتباره مستحيلا. فما بالنا إذن ب 1/10 أس 690. وفي المقابل فإن حدثا يبلغ احتمال حدوثه 1 على 10 أس 149 يكون داخلا في نطاق الممكن. وقد أجرى ديمبسكي حساباته اعتبارا بأن:

عدد الجسيمات الأولية في الكون يبلغ 10 أس 80.

العدد الأكبر للعمليات الفيزيائية الممكن حدوثها في الثانية هو 10 أس 45. وهو معكوس زمن بلانك، الذي هو أصغر فترة زمنية ممكنة (10^{-45}) من الثانية الواحدة!

عمر الكون بالثواني منذ الانفجار الكبير إلى اللحظة يساوي 10 أس 25.

11- ألبرت وليام «بيل» ديمبسكي (1960) (William Albert .Bill. Dembski) رياضي وفيلسوف ولاهوتي، أميركي من دعاة التصميم الذكي intelligent design معارض لنظرية التطور من خلال الانتقاء الطبيعي. عضو مرموق في مركز العلم والثقافة التابع لمعهد ديسكفري. مؤلف لعدة كتب عن التصميم الذكي، اللاهوت، والرياضيات. يحمل سبع درجات جامعية بما فيها دكتوراه في الفلسفة من جامعة إلينويز في شيكاغو ودكتوراه في الرياضيات من جامعة شيكاغو. من أهم مؤلفاته كتاب «تصميم الحياة».

Scanned by CamScanner

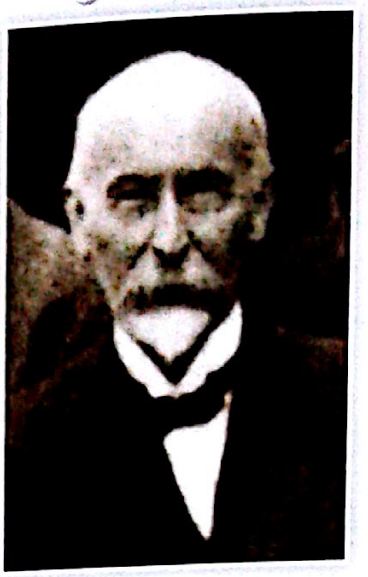

تشارلز أوجين غاي

والآن نضرب هذه الأرقام في بعضها أي: ($10^{45} \times 10^{25} \times 10^{80} = 10^{150}$) فيكون الناتج هو 10 أس 150.

إذن مقصود ديمبسكي من حسابه هذا تحديد الحد الأعلى لعدد العمليات الفيزيائية التي يمكن أن تكون وقعت للجسيمات الأولية كلها من الانفجار العظيم إلى يومنا هذا.

و عليه فإن الاحتمال البالغ واحد من 10^{690} احتمال صفري. مع أنه احتمال ظهور سوناتا مكونة من 480 كلمة بطريق الصدفة، فما بالنا بالكون كله وما يشتمل عليه من مخلوقات بالغة التعقيد والتخصص ؟

يعرّف ديمبسكي المعلومات المعقدة المتخصصة complex specified information CSI بأنها أي شيء يبلغ احتمال حدوثه بطريق الصدفة الطبيعية أقل من $1/10^{150}$. وهذا يعني أن أي حدث مما نجده في كوننا هذا يبلغ احتمال حدوثه بطريق الصدفة أقل من الحد المذكور يستحيل أن يكون وقع بالصدفة ولا مناص من التسليم بوقوعه عن طريق تصميم مصمم ذكي.

لكن ماذا يعني صاحبنا بمفهوم التعقيد المتخصص؟ Specified coplexity يشرح ديمبسكي مراده بالقول: عندما يبدي أي شيء تعقيدا متخصصا فإننا نقول إنه مصمم من قبل مصمم ذكي ولا يسوغ لنا القول إنه ناتج صدفي. إن أحد الأحرف الأبجدية متخصص لكنه ليس معقدا، في حين أن جملة طويلة عشوائية من الأحرف الأبجدية معقدة وليست متخصصة، أما قصيدة لشكسبير فهي تعقيد متخصص. إن الحرف المفرد متخصص لأنه يحمل صوتاً محدداً يعتبر خاصية له، أما الجملة

Scanned by CamScanner

المعقدة غير المتخصصة فهي معقدة لتركبها من عدد من الحروف وغير متخصصة لأنها لا تفيد معنى ما، بقيت قصيدة شكسبير المعقدة المتخصصة لكونها تعطي معنى مفهوماً.

فهل ترى الآن لمبرهنة القرد من باقية؟ في سنة 2004 كان الملحد السابق الفيلسوف أنطوني فلو في مناظرة مع غاير الد شرودر في جامعة نيويورك حول أصل الحياة، وقد عرض شرودر بعض حساباته التي أجراها لتفنيد مبرهنة القرد، وبعد أن استمع فلو إليها علّق مخاطبا شرودر: لقد بينت بشكل مرضٍ وحاسم أن مبرهنة القرد كانت كومة نفاية was a load of rubbish. هذا ما قصه فلو بنفسه في كتابه الذي أعلن فيه رجوعه إلى الإيمان بعد أن قضى عمره المديد في الإلحاد، كتاب: هناك إله There is a God.

- تشارلز أوجين غاي[12] وجزيء البروتين

كتطبيق منا على حد ديمبسكي سنقوم باسترجاع محاولة الفيزيائي السويسري تشارلز أوجين غاي – المذكورة في كتابه «التطور الفيزيوكيميائي» -لحساب احتمال تكون جزيء بروتين واحد بطريق الصدفة

رغم أن جزيء البروتين جزيء عملاق قد يبلغ عدد ذراته 40000 ذرة، فقد آثر غاي أن يقوم بتبسيط أول فاحتسب الذرات 2000 ذرة فقط، ثم قام بتبسيط ثان مكتفياً بنوعين من الذرات مع أن جزيء البروتين يتكون من ذرات الهيدروجين والأوكسجين والكربون والآزوت أو النيتروجين، ثم لجأ إلى تبسيط ثالث فاعتبر الوزن الذري عشرة وسطياً مع أن الوزن الذري للأكسجين 16 وللكربون 12 وللنيتروجين 14 وللهيدروجين 1.

ثم حدد غاي ثلاثة عناصر كشروط لازمة لتولد جزيء بروتين:

12 بالفرنسية(1866 - 1942) Charles-Eugène Guye فيزيائي سويسري، درّس في ورأس معهد الفيزياء التابع لجامعة جنيف، كان أينشتين أحد تلامذته. شارك في مؤتمري سولفاي الخامس والسابع للفيزياء إلى جانب مشاهير فيزيائيي العالم. وهو الذي أكد تجريبيا صحة تنبؤ أينشتين في نسبيته الخاصة حول تغير كتلة الألكترون تبعا لسرعته. له زهاء مئتي ورقة بحثية في الفيزياء وعدد من الكتب في الأسس الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية للتطور.

Scanned by CamScanner

. الاحتمال النظري لتكون هذا الجزيء.
. حجم المادة المطلوبة لتعيين رقم الاحتمال.
. الزمن اللازم.

فوجد أن حجم الكون الذي نحتاج إليه يبلغ ما يقطعه الضوء في 10 أس 164 سنة وهو حجم يفوق الحجم الحالي للكون بسيكستليونات المرات، فحجم كوننا الحالي حوالى 93 مليار سنة ضوئية فقط. وبفرض أن المكونات تمّ خضها بمعدل 500 تريليون مرة في الثانية على مدى زمني يعادل 10 أس 234 سنة – ولنُذّكر بأن عمر الأرض يناهز 4.5 مليار سنة فقط – فإن احتمال ظهور جزيء بروتيني واحد مصادفة لا يتجاوز 1/10مرفوعة للأس 321 وهو احتمال أقل بمراحل مهولة من حد الاحتمال الكوني.

ولنلفت إلى أن هذا كله يدور حول تكون جزيء بروتيني واحد، فما ظنكم بجسم كجسم الإنسان المكون من زهاء 34 تريليون خلية، أي 34×10^{12} – وفي بعض التقديرات 100 تريليون خلية أي 10^{14} - فالكبد السليم في الفرد البالغ يحتوي على زهاء 240 مليار خلية، والخلية الواحدة تشتمل على 300 إلى 500 جزيء بروتيني، بمعنى أن جسم الواحد منا يضم حوالى 34×400 = 13600تريليون جزيء بروتيني!!

وإليكم مدهشة أخرى تتعلق بجزيء الهيموغلوبين، فهذا الجزيء العملاق يحتوي على 539 حمضاً أمينياً تمثل تكراراً للعشرين نوعاً من الحماض الأمينية الموجودة في أجسامنا، وعدد الطرق التي يمكن أن تتراص بها تلك الـ539 حمضاً تبلغ 20^{539} وهذا يساوي 10^{620} ما يعني أن احتمال ترتبها الترتيب الذي هي عليه يساوي 10^{-620} أي واحد من عشرة مرفوعة للأس 620. وليست هذه نهاية القصة، فبعد تراص الأحماض الأمينية لتكوين السلاسل الببتيدية تبرز أهم عملية في تخليق جزيء البروتين والمتمثلة في الطريقة التي تلتف بها هذه السلاسل، وهي عملية بالغة التعقيد والإدهاش، فلو وضعنا المعلومات المطلوبة للفّ سلاسل جزيء بروتيني مكون من 100 حمض أميني فقط في كمبيوتر عملاق ليقوم بهذه العملية عبر محاولات عشوائية فإنه سيستغرق مدة تبلغ 10^{127} سنة، والحال أن هذه العملية تتم في الخلية في كسر ضئيل جدا من الثانية!!

Scanned by CamScanner

• إقرار آخر بوجود خطة ذكية

فريد هويل[13]، الفلكي والرياضي البريطاني الملحد اضطر في النهاية إلى الإقرار بالتصميم، فوفقاً لديفيز لاحظ هويل في ستينيات القرن العشرين أن عنصر الكربون . وهو عنصر أساسي جداً للحياة، حتى إن الكيمياء العضوية تدعى كيمياء الكربون. يتم تخليقه في باطن النجوم، وينطلق منها مع انفجار السوبر نوفا، وقد تملكت الدهشة هويل خلال تقصيه عن خطوات تخلق الكربون، فالتفاعل الأساسي يتم بمحض صدفة مواتية، إذ تصنع نواة الكربون عبر عملية معقدة جدا تلتقي بموجبها ثلاث نوى هليوم ذات سرعات هائلة تلتصق نتيجة ذلك بعضها ببعض، وبسبب ندرة التقاء ثلاث نوى لا يمكن للتفاعل أن يسير بسرعة إلا عند طاقات محددة تدعى تجاوبات، ولحسن الحظ أتى أحد هذه التجاوبات في حدود الطاقة المناسبة لنوع الطاقات التي تملكها نواة الهليوم داخل النجوم الكبيرة. كما أظهرت دراسة مستفيضة أن مصادفات أخرى تقع لم يكن الكربون ليتخلق بدونها في باطن النجوم. لقد تأثر هويل كثيرا بهذه السلسلة من المصادفات فكتب معلقا: بأن الأمر كما لو أن قوانين الفيزياء النووية قد صممت عمدا لتعطي النتائج التي تحدثها داخل النجوم، وأشاع هويل الرأي القائل: بأن العالم يبدو مثل وظيفة مرتبة مسبقا وكأن أحداً ما يتلاعب بقوانين الفيزياء.

وقد انتهى هويل في أخريات أيامه إلى نقد فرضية نشوء الحياة على كوكبنا بشكل تلقائي عشوائي وقدم مع زميله شاندرا ويكراماسينغ Chandra Wickramasinghe نظرية البذرة الفضائية panspermia مقترحين فيها قدوم الحياة من الفضاء الخارجي، ومن المثير أن فرانسيس كريك كان أحد الذين تبنوا هذه النظرية . وفيما يبدو أن هويل . الذي قضى حياته ملحدا . نظر إلى هذه النظرية كطوق إنقاذ من موجبات الإيمان بخالق للحياة، مع أنها لا تزيد في الواقع عن محاولة الهروب من موقع قريب إلى آخر بعيد عبر جناح الفرض المجرد غير القابل . على الأقل في الوقت الحالي. للاختبار ، لأن السؤال بصدد كيفية نشوء الحياة سيظل مطروحاً مع افتراض قدومها من الفضاء الخارجي، وهذا ما لم يفت هويل ملاحظته، فقد كتب يقول في كتابه

13 Fred Hoyle (2001 - 1915) عالم رياضيات وفضاء بريطاني شهير، عارض بشدة نظرية الانفجار الكبير وكان هو الذي أطلق عليها هذا الاسم، وله في مقابلها نظرية الحالة المستقرة التي صاغها مع زميليه توماس غولد وبوندي. من كتبه: طبيعة الكون، ومشارف علم الفلك.

Scanned by CamScanner

المشترك مع ويكراماسينغ (التطور من الفضاء) Evolution from Space: لو تابعنا بشكل مباشر البحث في هذه المسألة دون أن نخشى عواقب مخالفة الرأي العلمي السائد فسنصل إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية بما تحويه من معايير ونظام يجب أن تكون ثمرة تصميم ذكي، وليس ثمة أي احتمالية أخرى يمكنني التفكير فيها. وقد حسب هويل احتمال نشوء مجموعة الأنزيمات اللازمة لتشغيل أبسط خلية حية من غير افتراض البذور الفضائية فوجده لا يزيد على 10^{40000} واحد على عشرة أس أربعين ألفا!! كما شبه هويل انبثاق الحياة بطريق الصدفة هنا على الكوكب بهبوب إعصار هائل نتج عنه تجمع كل الأجزاء المطلوبة لبناء طائرة البوينغ 747 وبنائها بالفعل، هراء من رتبة عالية! هكذا يصف هويل الادعاء بنشوء الحياة بطريق الصدفة على الأرض. ولكن السؤال الذي يثور هنا هو: من الذي يقف وراء ذلك التصميم الذكي؟ لعلها كائنات فضائية متطورة للغاية، ولكن السؤال سيظل بدوره يدور بصدد هذه الكائنات.

تتعلق ملاحظات هويل بالمبدأ الإنساني anthropic principle[14] القاضي بأن كل ما في الكون أتى مناسباً لظهور الحياة العاقلة المتمثلة في الإنسان، بحيث لو تغيرت بعض القيم الدقيقة جداً والضئيلة جدا للجسيمات الأولية أو كانت بعض قوانين الطبيعة على غير ما هي عليه لما تسنى ظهور تلك الحياة العاقلة المؤهلة لرصد الكون ودراسته، إنه المبدأ الذي يربط وجودنا ككائنات عاقلة تراقب الكون بقوانين الكون وأوضاعه. إن ملاحظة تآزر ما يظهر كمحض مصادفات بحيث تتمخض في النهاية عن ظهور الحياة العاقلة في كوننا هذا هو الذي أوحى بفكرة المبدأ الإنساني كما عرضه براندون كارتر وبرنار كار ومارتين ريز، وفي كتابيهما المشترك (مصادفة

14 مبدأ صاغه الفلكي براندون كارتر سنة 1973 بمناسبة مرور 500 سنة على ميلاد كوبرنيكوس، وبعض صياغات هذا المبدأ قابلة للنقاش العلمي والفلسفي في حين تم تصنيف البعض الآخر على أنه من باب العلوم الزائفة. من جهته بلور كارتر صيغتين لهذا المبدأ: الأولى: المبدأ الإنساني الضعيف weak anthropic principle(WAP) وينص على وجوب أن نكون مستعدين للإقرار بأن موقعنا في الكون له بالضرورة أفضلية من حيث كونه يتلاءم مع وجودنا كملاحظين لهذا الكون، مع الأخذ بعين الاعتبار ملاحظة موقعنا في الكون لجهة المكان والزمان معا. والثاني: المبدأ الإنساني القوي strong anthropic principle (SAP) وبقتضاه يجب أن يكون الكون وما فيه من ثوابت أساسية fundamental parameters كما لو أنه موجود ليلائم خلق موجودات داخله مؤهلة لمراقبته في مرحلة ما من تاريخه. وقد أدخل آخرون. خاصة جون بارو وفرانك تبلر. تعديلات على صياغة المبدأ ليس هذا موضع التعرض لها.

Scanned by CamScanner

كونية) Cosmic Coincidence يخلص جون غريبين John Gribben ومارتين ريز Martin Ress إلى أن الظروف في كوننا تبدو حقا مناسبة بشكل استثنائي لظهور أشكال من الحياة كحياتنا نحن البشر.

من الواضح أن المبدأ الإنساني ليس قانوناً علمياً وصياغته ذاتها تقع خارج الاشتغال العلمي، إنه ما يقود إليه العلم والبحث العلمي ولا يستطيع معظم العلماء الفرار من تناوله والانسياق وراءه. وها هو الطبيب النوبلي البريطاني الملحد من أصل لبناني السير بيتر براين مدوّر Sir Peter Brian Medwar يقر بأن الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بالبدايات والنهايات أمر خارج منطقياً عن مقدرة العلم الطبيعي. ولا عجب فعند البحث عن النهايات وأجوبة الأسئلة القصوى يرى العلم نفسه وقد تاخم حدود الميتافيزيقا ليلتقي على رغمه بالفلسفة والدين، كما أشار جورج سموت [15] في كتابه «تجعدات الزمان» Wrinkles in Time قائلا: عندما يقترب البحث من السؤال الأقصى عن وجودنا فإن الخطوط الفاصلة بين علم الكون والفلسفة تكاد تنطمس. إن أينشتين الذي وهب نفسه للتفسير العقلاني للكون قال ذات مرة: إنني أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم؟ أريد أن أعرف أفكاره!

ولكون العلم المجرد لا يفي بحاجة الجواب عن المسائل الكبرى التي تلحُّ على الإنسان بحيث لا يجد بداً من معالجتها فإن كثيراً من العلماء يرون أنفسهم مسوقين رغم أنوفهم إلى الاهتمام بالدين وقضاياه الميتافيزيقية، فها هو فريد هويل يكتب بامتعاض:

ثمة حقيقة رأيت فيها دائماً ما يثير: فبينما يدعي معظم العلماء أنهم يتحاشون الدين إلا أنه يسيطر فعلاً على تفكيرهم أكثر مما يسيطر على تفكير رجال الدين أنفسهم!

15- جورج سموت (George Smoot). مواليد 1945، عالم فيزياء فلكي أمريكي، حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 2006.

Scanned by CamScanner

المبحث الثالث

نظرية الانفجار العظيم ونقض العشوائية

نظرية التطور على محك النقد

برهان النظم ليس معنياً فقط بالموجودات الجزئية، ولكن تمتد عنايته أيضاً إلى مجمل الكون نفسه. ومن جهة ثانية فإن عنايته تمتد بطبيعة الحال إلى القوانين المؤسسة للكون. ولهذا ليس من المفيد – في المرحلة الحالية - الانجرار إلى مناقشة تصميم بعض النظم الجزيئية مع الملاحدة والتطوريين. وسنرجئ الكلام في هذا الموضوع إلى حين نخوض بالتفصيل في نظرية التطور.

أما في هذه المرحلة فسنبدأ من الكون نفسه كمنظومة عظمى، بل هي الأعظم من بين سائر المنظومات. ونسارع إلى تقرير أن مبدأ الاصطفاء الطبيعي لا يعمل على مستوى الكون كله. فلا يعمل في نشوء الكون، إذ ليس لدينا مجال للمقارنة بين كوننا هذا وبين أكوان أخرى مفروضة في مجال أوسع من الجميع يسمح باستبقاء البعض من هذه الأكوان واستبعاد البعض من منظور انتخاب كوني.

فكيف تكون الكون؟ وهل هناك مجال للصدفة في نشوئه؟

- **عرض إجمالي لنظرية الانفجار العظيم Big Bang theory**

سنتحاشى الخوض في تفاصيل نظرية الانفجار العظيم، لأن لدى معظم الناس فكرة عنها، وسنكتفي بعرضها بشكل إجمالي.

كان هذا الكون قبل 13.7 مليار سنة، مضغوطاً في لا حيز يسمى بالشذيذة أو المتفردة singularity، حيث كانت المادة والطاقة شيئاً واحداً، الكثافة لانهائية، وكانت القوى الأربعة - الجاذبية، والكهرومغناطيسية، والنووية الضعيفة والنووية القوية – مندمجة بمثابة قوة واحدة بلا تميز، النسبية العامة لأينشتين لا تسعفنا في التنبؤ بالطريقة التي بدأ بها الكون، لأن ما لدينا هو حيز أصغر من البروتون بملايين المرات، طول بلانك (في حدود 10^{-35} متر) وسائر المعطيات بلانكية، إنه عصر بلانك، ثم وقع الانفجار العظيم لتشرع بعده مباشرة – في حدود لانهائية

Scanned by CamScanner

الصغر تقريباً من الزمن، في 10^{-43} من الثانية – الحرارة في الانخفاض والحجم في الازدياد، وبحسب ألن غوث الذي دعا ما حصل بالانتفاخ inflation فان الفقاعة الكونية أخذت تضاعف قطرها بعامل مقداره 10^{50}كل 10^{-34} من الثانية. ومن الآن – ذاك الآن – سيكون زمان ومكان. وستنشأ الدقائق الذرية أو ما يكونها، المادة، الأجرام، وسيظل الكون يتوسع ويتوسع.

• توازن الكون واحتمال الصدفة

يقول بول ديفيز Paul Davies في كتابه «القوة الخارقة» (Superforce): «الكون متوازن ولا يزال يتوسع تحت تأثير قوتين: الجاذبية والانفجار. لكن هذا التأثير متوازن، وهو الذي يتيح له أن يتوسع بهذه الطريقة». كان يمكن للكون من بلايين السنين أن ينهار وينكمش على نفسه تحت تأثير الجاذبية، أو يتلاشى تحت تأثير قوة الانفجار. لكنه لم يتلاش، لأنه متوازن بين قوتين متضادتين.

ويبين بول ديفيز أن هذا التوازن لو اختل ولو لمدة 10^{-18} ثانية – واحد من مليون مليار من الثانية، أي واحد من كوينتليون quintillion، إسراعاً أو إبطاء، فلن يوجد هذا الكون، فإما كان سينكمش على نفسه ثم ينهار، أو يظل آخذاً في تمدد منفلت وبالتالي سيضمحل ويتلاشى! والعجيب أنه كلما واصل التمدد مسيرته زادت رهافة ودقة هذا التوازن!

أما ستيفن هوكينغ، الفيزيائي ذائع الصيت، صاحب الكتاب الشهير «تاريخ مختصر للزمان» (A Brief History of Time)، فيقول: لو اختلف معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار لمدة 10^{-20} ثانية فقط لانهار الكون على نفسه قبل أن يصل إلى حجمه الحالي!

وقد نشرت مجلة Science المشهورة دراسة جاء فيها: إن كثافة الكون لو كانت اكبرمما هي بجزء يسير جداً لاستحال على الكون أن يتمدد بسبب القوى التجاذبية الهائلة للجسيمات الذرية وعوض ذلك كان سيتقلص لينتهي أخيراً إلى نقطة بالغة الضآلة، وفي المقابل لو كانت كثافته أقل بمقدار يسير جداً لتمدد لكن من غير أن تتجاذب الجسيمات الذرية بعضها نحو بعض وبالتالي لن تتشكل النجوم والمجرات ولم يكن كوننا هذا ليكون. وتبين الحسابات أن فرق الكثافة المشار إليه أقل من واحد

Scanned by CamScanner

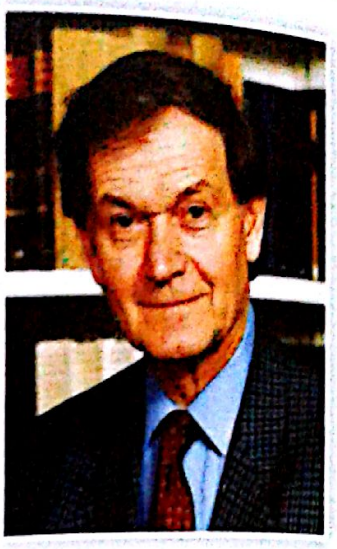

روجر بنروز

ستيفن هوكينغ

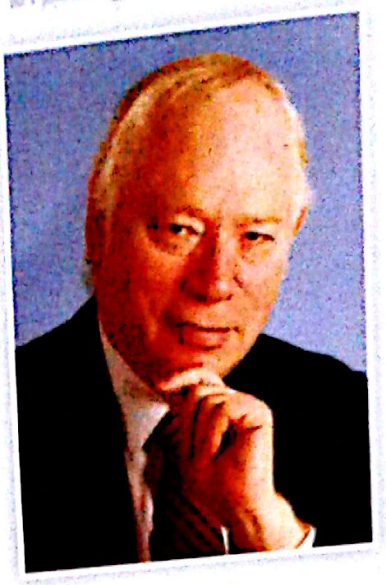

ستيفن واينبرغ

بالمئة من الكوادرليون أي 10^{-20} وهو مقدار بالغ الضآلة يمكن تشبيهه بوضع قلم رصاص في وضعية يقف فيها على سنه لمدة تزيد عن بليون سنة دون أن يسقط.

أما السير روجر بنروز[16] صديق ستيفن هوكينغ ، ففي كتابه «العقل الجديد للإمبراطور» (The Emperor's New Mind)، يعرض علينا رقماً أكثر حراجة ورهافة يبلغ جزءاً من $10^{10^{10^{123}}}$ أي عشرة مرفوعة للأس عشرة مرفوعة للأس عشرة المرفوعة للأس 123!! ثم يعلق قائلاً: وهذا رقم خارق ولا يستطيع إنسان على الأرجح أن يكتبه كاملاً بحسب الترقيم العشري المألوف، لأنه سيكتب 1 وعن يمينها 10^{123} صفرا على التوالي وحتى لو كتبنا صفرا على كل بروتون بمفرده وعلى كل نيوترون بمفرده في الكون كله بل نستطيع بلا مبالغة أن نضيف جميع الجسيمات الأخرى بالغا ما بلغت – لظللنا بعيدين جدا عن كتابة الرقم المطلوب. فمجال الدقة اللازمة لوضع الكون في مجراه أصغر بما لا يقارن من كل مجالات الدقة التي أصبحنا معتادين عليها في معادلات الديناميك الرائعة – معادلات نيوتن وماكسويل وأينشتين – التي تحكم سلوك الأشياء من لحظة إلى أخرى.

فأين حدُّ الاحتمال الكوني (10^{150}) نفسه من هذا الرقم الهائل غير القابل للتصور ؟

يحدثنا علماء الكونيات بصدد بداية الكون أننا إذا رجعنا القهقرى إلى فترة

16- السير روجر بنروز (Roger Penrose)، مواليد 1931 فيزيائي ورياضي بريطاني، حائز على مقعد روز بول للرياضيات في جامعة أكسفورد. اكتسب روجر بنروز شهرة واسعة نتيجة أعماله في النسبية العامة وعلم الكون، وهو أحد المساهمين مع ستيفن هوكينغ في صياغة نظرية الثقوب السوداء، يعرف بنروز بأنه فيلسوف مؤيد للمدرسة الواقعية في الرياضيات.

Scanned by CamScanner

زمن بلانك (10^{-43}) ثانية، وهي الفترة التي تتعطل عندها كل معارفنا ووسائلنا في الإدراك، فإن التوازن بين قوتي الجاذبية والتمدد يبلغ من الدقة والرهافة بحيث لا يحتمل انحرافاً بمقدار جزء واحد من 10^{160} و يشبه بول ديفز دقة التوازن هذه بإصابة هدف مساحته بوصة مربعة فقط يقع على الحافة القصوى للكون!

- عندما تحتمي العشوائية باللجاجة

- هل بقي مجال للَّجاجة؟

مما يدعو للأسف ما يُلمس لدى بعض العلماء من ميل إلى اللجاجة والمراوغة في تقبل الحقيقة، من هؤلاء ستيفن واينبرغ، الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1979 والذي يقول في كتابه «أحلام النظرية النهائية»: «بالنسبة لي، ما يعطي نظرية الحالة المستقرة جاذبية، من منظور فلسفي، هو أنها تجنبنا الوقوع في ورطة تصور بداية للكون!».

فالرجل صريح في إعرابه عن انزعاجه المبدئي من فكرة أن للكون بداية، وهذا مسوغ تفضيله نظرية الحالة المستقرة على نظرية الانفجار العظيم.

ومن قبل كان كارل ماركس يصرح بأنه ملحد لأن الإنسان يجب ألا يدين إلا لنفسه، وقد اكتفى – على ما يبدو – بهذا المبرر السيكولوجي الصرف في تبرير إلحاده السلبي حيث إنه لم يجتهد في طرح مبررات فلسفية لإلحاده كما فعل كثيرون سواه.

يضرب الفيلسوف الكندي المؤمن جون ليزلي John A. Leslie، في كتابه (الأكوان) Universes مثلا تخيليا بشخص محكوم بالإعدام تطلق عليه النيران فرقة إعدام مدربة تتكون من خمسين رجلا لكنه مع ذلك ينجو سالما، ثم يقترح تفسيرا، إما أن ذلك حدث صدفة، وإما أنه عمل مقصود intentional والحكم لكم؟ ينقل جون بولكنغهورن John C. Polkinghorne مثلا آخر ضربه ليزلي ليصور به مدى احتمال أن يكون الكون ظهر بالصدفة، فلو تصورنا أن هناك إمكانية لوجود عدد هائل من الأكوان فما احتمال أن يتوفر بعضها على مثل خصائص كوننا التي سمحت بظهور الحياة العاقلة المتمثلة فينا كبشر؟ يرى ليزلي أن ذلك أشبه بذبابة على حائط كبير

Scanned by CamScanner

ضربت بطلقة نارية، فإما أن قناصاً كان يمارس هوايته في ضرب النار أو أن هناك عدداً كبيراً من الطلقات قد صوبت عليها فأصابتها إحداها بطريق الصدفة. ومن جهته يعلق بولكنغهورن على مثل ليزلي بالتساؤل: كيف حدث ذلك؟ ويقترح علينا أن نفترض أن الهدف لم يكن ذبابة بلا قيمة بل ضاغطاً كهربياً يفتح باب كنز سري حين يصاب بالطلقة، بمعنى أن ما يضفي أهمية على شيء ما ليس مجرد تعقده بل ارتباطه بأمر آخر له قيمته، فوجود كمية من الأحجار على تنظيم معين بطريق الصدفة قد لا يستثير اهتمامنا إذ هناك صور مختلفة يمكن للأحجار أن تتخذها، لكن أن تكون تلك الأحجار مرتبطة مثلا بالشفرة (SOS) Save Our Souls، or; Our Selves أنقذوا أرواحنا أو أنفسنا، فهذا بالتأكيد سيستثير اهتمامنا. فمن حقنا أن نتعجب من كون ذي ملامح غاية في الخصوصية لكي يحتويها، يقول بولكنغهورن.

في الكتاب الثالث من البرنسيبيا Principia (المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية) Philosophiae Naturalis Principia Mathematica يُقرّ نيوتن بأن الانتظام والروعة المتبديين في مجموعتنا الشمسية يعبران ولا بد عن قصد وهدف لرب خالق ومبدع، لا يجوز أن يقال إنه روح الكون، بل هو مالك الكون وكل شيء!

ما الفرق بين كون الله روح الكون وكونه مالك الكون؟

إن كونه روح الكون يعني أنه يعادل الكون، أي هو الكون نفسه، تعبير آخر عن وحدة الوجود. وكونه مالك الكون يعني أنه خالق الكون وهو أكبر منه.

• إدانة قرآنية للجاجة الملاحدة وكبْرهم

لقد لفتنا القرآن العظيم إلى السبب الحقيقي الذي يقف خلف لجاجة نفر من الناس لم يتحرجوا من مباهته البرهان ومناكدة العقل، سبب من طبيعة نفسية لا من طبيعة معرفية، إنه الكبر والاستعلاء: ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾(غافر: 56) ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾(النمل:14)

•••

Scanned by CamScanner

الباب الثالث

شبهات حول برهان النظم
من هيوم إلى دوكينز

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

شبهات ديفيد هيوم

المبحث الأول

شبهتان مردودتان

شبهة هيوم الأولى

طرح العديد من الفلاسفة إشكالات على برهان النظم. ولعل أبرزهم ديفيد هيوم في كتابه (محاورات في الدين الطبيعي). وهي ستة اعتراضات، اثنان منها فقط يتعلقان ببرهان النظم، وسائرها لا علاقة لها به.

وقد أدار هيوم هذه الشبهات على لساني شخصين افتراضيين:

الشخصية الأولى هي «كليانثس» وهو أحد أعلام الرواقيين ولد في سنة 331 ق.م وهو صورة للرواقي في العصر القديم وباركلي في العصر الحديث، يمثل الشخصية الدوغمائية dogmatic(الاعتقادية الوثوقية). وجعله هيوم مدافعاً عن برهان النظم.

والشخصية الثانية هي «فيلون» شخصية شكوكية sceptic وهو فيلون اللأريسي لا فيلون الاسكندري، ولد حوالى 140-148 ق. م من مؤسسي المدرسة الأكاديمية الرابعة من مدارس الشك عند اليونان، له ميول تشابه ميول شيشرون في كتابه عن (طبيعة الآلهة). وصوره هيوم مورداً الشبه والاعتراضات على برهان النظم.

- مفاد الشبهة الأولى

وقد أوردنا من قبل أولى الشبهتين والتي تدور على ظن غالط من هيوم بأن برهان النظم من قبيل البراهين التمثيلية، وذلك بقياسنا المصنوعات الإلهية على المصنوعات البشرية والحكم على الأولى بمثل حكم الأخرى، وهو حكم خاطئ لوجود الفرق بين الإنسان والإله، أو من قبيل البراهين التجريبية، ولكن لئن كنا جربنا

Scanned by CamScanner

المصنوعات البشرية فإنه لم يتح لنا تجريب الكون، فما الذي يمكن استخلاصه من حالة يتيمة؟ بمعنى أن هذا البرهان برهان تجريبي ولكنه لا يفي بشروط البرهان التجريبي. وقد أجبنا في حينه بما يكشف هذه الشبهة وذلك ببيان أن برهان النظم ليس من باب البراهين التمثيلية ولا التجريبية، بل هو برهان عقلي، يتوجه فيه العقل إلى الموضوع من حيث هو من غير تجريب أو تمثيل؛ نعم إن مقدمة البرهان الصغرى مأخوذة من الحس والمشاهدة ولكن ما كان لهذا أن يؤثر على حقيقة كونه برهاناً عقلياً بسبب أن المقدمة الكبرى فيه مقدمة عقلية.

• شبهة هيوم الثانية

ومفاد الشبهة الثانية: «إذا كان النظام السائد في الكون يدل على وجود الخالق المنظم والمصمم، فكيف نفسر وجود الظواهر العشوائية والفوضوية». وقد تطور هذا الإشكال ليأخذ صورة منقحة أكثر تعقيدا في ما يعرف بفيزياء الفوضى، أو الكاوس (Chaos).

ويمكن أن نجيب عن هذه الشبهة بجملة يسيرة ونترك التفصيل فيها إلى محلّه لاحقاً حين الجواب عن شبهة الشر والحديث بالتبع عن الشرور الطبيعية كالزلازل والبراكين والطوفانات وغيرها.

فنقول: ان الكوارث التي تتحدى الإنسان وتزعجه من قبيل الزلازل والبراكين والأعاصير وأمثالها وكذلك ما يطبع موقف الإنسان منها من مركزية وعنصر ذاتي واضح لا تبرر ادعاء أن القاعدة في الكون الذي نقطنه الفوضى والعشوائية، إذ لو كان الأمر كذلك لما قامت للعلم قائمة، فالعلم لا يعمل إلا في كون منظم محكوم بقوانين مضبوطة قابلة للفهم، وقد أشار البرت أينشتين إلى ذي الحقيقة بقوله: إن أكثر شيء غير مفهوم بصدد الكون أنه قابل للفهم! The most incomprehensible thing about the world is that it is comprehensible .

وفيما يبدو لي فإن ستيفن واينبرغ – الفيزيائي الكبير الملحد – قد تقصد أن يعارض عبارة أينشتين هذه لأنها تزعجه بطريقة ما، فقال: كلما ازدادت معرفتنا

Scanned by CamScanner

The more we know of the cosmos، the more meaningless it appears. بالكون بدا بلا معنى.

ومن الجيد أن واينبرغ لم يشأ أن يذهب إلى آخر الشوط فيدعي أن الكون غير قابل للفهم، ففي ذلك انتحار عقلي وأكثر منه علمي فاضح وإعلان بنزع الثقة من كل شيء وأول ذلك كلامه هذا، لكنه اكتفى بادعاء – بنبرة شكوى أو تذمر على ما يبدو – أن الكون فاقد للمعنى، وفي تقديرنا أنه لا بد أن يكون الأمر كذلك من منظور شخص ملحد، فإضفاء معنى على الكون كله بدون افتراض مبدع له، يملكه ويدبره، مسألة مستحيلة استحالة أن تدرك نملة المعنى الماثل في بناء سفينة فضاء، أو في بناء نظرية الكم، وإذا كان الكون كله من منظور واينبرغ لا معنى له – وبشكل متزايد – فكيف لنا أن نثق بأي معنى يقدم لنا كبشر ليضبط سلوكنا وتصرفاتنا بعيدا عن المنظور النفعي الخالص، أي ما يعطينا لمستنا الإنسانية؟ ما أفقرها من حياة وما أفرغه من معنى حين تكون الهيمنة للمنفعة الخالصة بعيدا عن كل القيم التي تغنى بها الإنسان عبر الأعصر.

إن عبارة واينبرغ بعد تفحصها عميقاً تصب في صالح الإيمان لا الإلحاد كما أرادها. وعلى كل حال وبالقطع هي ليست علماً – رغم أن واينبرغ عالم كبير لا شك، لكنها فلسفة خاصة، وإذا كان العلم يتأسس على حقائق محددة فإن للفلسفة الخاصة جذوراً تضرب في تجربة الفرد التي تتسم بقدر كبير من الخصوصية والاستثنائية. وفي المقابل لن تعدم علماء كباراً آخرين يتوفرون على رؤية معاكسة تماماً، فها هو بول ديفيز بعد أن يستهل فقرة في أحد فصول كتابه – عنوانها: إله يلعب النرد- بالقول: أعترف أنه لايستطيع أحد أن يثبت أن العالم عقلاني...يعود فيقول: ومع ذلك فإن نجاح العلم يثبت – حتى عند أدنى الأدلة العرضية قوة – عقلانية العالم. وكأنه يرى أن العلم يضفي على عالمنا عقلانية يعجز العقل المجرد عن تلمسها! وهي فقرة تعاكس عبارة واينبرغ على طول الخط.. ومن اللافت أن ديفيز جعل العنوان الفرعي لكتابه: الأسس العلمية لعقلانية العالم.

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني

شبهة خاصية المادة

مفاد الشبهة ورد إجمالي

• عرض الشبهة

مفاد هذه الشبهة أن المادة ذات خواص تمكنها من إنجاز كل ما يجعل الكون على ما هو عليه!

فالذرة والجزيء والخلية الحيوانية والخلية النباتية كل منها ذات قابلية تمكنها من إنجاز كل ما تنجز.

• تقييم أولي للنظرية

هذه النظرية من حيث تريد أن تفسر لا تفسر في الحقيقة أي شيء، إنها تسلم بالواقع كما هو مكتفية بوصفه ظانة أن ذلك يشكل تفسيرا، إنها تقول بعبارة واضحة: إن السبب في حدوث ما يحدث أنه يحدث على النحو الذي يحدث عليه! ومن الواضح أنها نظرية ممتازة للجهلة والفلاسفة الكسالى لأنها تتيح لمن شاء منهم أن يدعي قدرته على تفسير كل شيء وأي شيء. العالم وحده سيكون عليه عبء إضافي يتمثل في تفحص ما يحدث بدقة ثم وصفه، وهنا ينتهي دوره، فليس مطلوبا منه أن يصدع رأسه بتساؤلات فلسفية صعبة حول العلل والأسباب. وهكذا يتقزم العلم ويفقد روحه وفضوله.

ومن المؤكد أن تفشل هذه النظرية في التعاطي مع مسألة وجود هدف بعيد وغاية للنظم المختلفة تسعى لبلوغها، وذلك لسبب يخصها بطبيعة طروحاتها علاوة على تنكر العلم الحديث عموماً لمفهوم الغائية. كما أنهاستفشل في التعاطي مع حقيقة ما بين البنى والنظم المختلفة من تنسيق وتآزر يتمخضان عن منظومات أوسع وأكثر تعقيداً بنيوياً ووظيفياً. لأن المفروض في خاصية المادة أنها قادرة على تفسير كيف تتركب العناصر والمركبات فقط، وما وراء ذلك غير داخل في مهمتها لأنها لم تشأ أن تلتفت إليه أصلاً.

Scanned by CamScanner

• نقض أول بمثال تخصص الخلايا

في البدن الإنساني زهاء 34 تريليون – وقيل بل مئة تريليون - خلية، وباستثناء الخلايا الجنسية، والخلايا الدموية، فإن سائر الخلايا تحتوي على جينومات كاملة. ويشتمل جينوم الإنسان على زهاء 24 ألف جين، هي التي تحدد ما يعرف بالنمط الظاهري للإنسان phenotype.

و نظريا فإن كل خلية من هذه الخلايا قادرة على أن تقوم بكل وظائف الجسم لأنها تحتوي على الجينوم كاملاً. لكن عملياً فإن لكل خلية وظيفة معينة تضطلع بالقيام بها.

فالخلية الكبدية مثلا تشتغل فيها جينات معينة، وباقي الجينات ترقد في سبات خلوي. لماذا؟

هنا تعجز نظرية خاصية المادة تماما، فلدى الخلية القدرة على القيام بوظائف سائر الخلايا إلى جانب قيامها بوظيفتها، فلماذا تخصصت في وظيفة دون سائر الوظائف؟ أياً كان السبب الذي يقف وراء هذا الترتيب والتوزيع للمهام فإنه لا بد من التسليم بأن الوعي الذي لديه يفوق حتماً وعي كل جهاز منفصل في الجسم فضلا عن وعي كل خلية مفردة، فما عساه يكون ذاك السبب الواعي الذي يهيمن على عمل لا خلية أو خلايا منفردة بل على عمل الجسم كله، بمعنى أن لديه الخطة الكاملة لهذا الجسم من ناحية الباطن ومن جهة الظاهر، إنه وعي يتسلط على البدن من خارجه، يلقي نظرة مفارقة، بعبارة مباشرة: وعي خالق مصمم لديه فكرة مكتملة عما يريد إنجازه.

وتوخياً لمزيد من الإيضاح والتبسيط نسوق مثلاً:

لنفرض أن هناك مليون قطعة حجر، مكومة على بعضها، وإلى جانبها غير بعيد مليون مثلها لكنها منظمة بشكل أحالها إلى قصر منيف، فما الفرق بين المجموعتين؟ في الحالة الأولى ليس ثمة أي مخطط؛ أما في الحالة الثانية فهناك مخطط تم

Scanned by CamScanner

تنفيذه أخذ بموجبه كل حجر مكاناً ما بكيفية ما، مع أن كلاً منها كان يمكن أن يكون في موضع آخر غير الذي وضع فيه، فهذا الحجر في السقف كان يمكن أن يكون حول النافذة، والعكس صحيح وبافتراض أن لدى كل حجر قابلية للالتحام بالحجارة الأخرى فهذه القابلية بمجردها تعجز عن تفسير البناء الكلي في شكله النهائي، بدليل أن بناء مفروضاً كان يمكن أن يكون غيره تماما، الأمر الذي يضطرنا إلى افتراض وجود مفارق للبناء وهو المهندس المسؤول عن اختيار تصميم ما دون سواه، واستعمال الحجارة مادة لإخراج التصميم من أفق الوعي إلى أفق الواقع، ولا يعقل بتة أن يكون حجر مفرد من مجموع الحجارة هو المسؤول عن اختيار التصميم الكلي بدليل أن استبدال أي حجر بآخر هو أمر ممكن على الدوام لا يلزم منه أي محظور، كما لا يعقل افتراض أن يكون مجموع الحجارة هو المسؤول عن اختيار التصميم بدليل أن استبدال بعض هذا المجموع ببعض آخر لا يغير من الأمر شيئاً.

و قل الشيء نفسه عن خلايا البدن الإنساني، أو ماشئت من أجسام الحيوانات؛ كل خلية يمكنها نظريا أن تنجز مهام الخلايا الأخرى فما الذي طوعها لتلتزم بمهمة دون سواها؟ وفي الأوقات كلها، لا في وقت دون وقت، وإلا لصار البدن كابوسا على حامله أو غابة مسحورة تغير أشجارها أماكنها كل حين.

• هل هي مشكلة تسمية؟

و السؤال المطروح آنفاً يطرح بصدد سائر النظم في الكون؛ فما هو السر وراء ذاك التنسيق الدقيق المدهش بين كل الظواهر الكونية،

وإذا كان الملاحدة فرحين بالانتخاب الطبيعي لأنه يمثل – فيما يرون – طريقة للجواب عن مثل سؤالنا هذا بخصوص النظم الحيوية على ظهر الكوكب، مع أنه عند التدقيق طريقة لتفسير نجاح نوع دون آخر في صراع البقاء، وليس طريقة لتفسير كيف يترجم النمط الجيني genotype نفسه – وإن بالتفاعل مع البيئة – في شكل نمط ظاهري phenotype مع توفر كل خلية على حدة على كامل الجينوم؟ وبافتراض نجاح الانتخاب الطبيعي في الجواب عن هذا السؤال كما يزعم التطوريون فما هم قائلون بخصوص النظم غير الحيوية في أرضنا وعلى مستوى الكون الوسيع؟

Scanned by CamScanner

هل خاصية المادة هي من يقف وراء هذا كله؟ فما الذي يفضُل به الإله هذه المادةَ إذن؟ أتراهم آمنوا بالله، لكنهم غلطوا في تسميته فسموه المادة؟ أم عكسوا الآية فآمنوا بالمادة وأسندوا إليها كل ما يسنده المؤمن إلى ربه من صفات العلم والقدرة والخلق والحكمة، فإذا هي إلهٌ بكل صفات الإله لكن بدون اسمه؟ قد يلجّ بعضهم في طغيانه فيقول: إن أراحكم هذا فلا بأس به، فلتكن المادة إلهنا الذي نؤمن به، لكنه على كل حال إله محسوس ملموس لا يُعيينا الإيمان به كإلهكم الغائب الذي لا ترونه ولا تسمعونه ولا تحسونه. ويغفل هؤلاء عن حقيقة أن الههم المادي هذا أو مادتهم المؤلهة تعجز أمام العقل نفسه – الذي هو من كائنات هذا العالم ولا يدعى فيه الألوهية – عن تفسير أمور كثيرة لا تزال تحير الإنسان وتقلقه ثم عن أي مادة يتحدث هؤلاء؟ عن جزء متعين منها هنا أو هناك من الواضح أنه لا يصلح بالمرة لتسنم مسؤولية تصميم سائر الوجود المادي؟ أم عن مجموع المادة، الذي يشهد العلم نفسه بأنه خضع لتطور هائل بدءا من الانفجار العظيم – حين لم يكن هناك مادة بالمعنى المعروف لدينا – إلى يوم الناس هذا، والمثير أن المادة خضعت في تطورها ذاك –الذي نجم عنه ظهورنا ككائنات عاقلة تطرح هكذا قضايا وتتجادل حولها – لقوانين في منتهى الدقة والإحكام لا مناص من التساؤل بصدد مصدرها، قوانين ما كان لشيء مما حدث أن يحدث بدونها على النحو الذي حصل، ما يعني أن المادة – من حين – حينَ لا حين – لم تكن مادةً إلى حيننا هذا– بغير تلك القوانين مجرد كمٍّ خامل تماما غير قابل للتطور والتفاعل بأي شكل من الأشكال. إذن صار المعوّل على محض وعيٍ ما أو عقلٍ ما أو خطةٍ ما لا على المادة!.

- حول تفسير التناسق

بين أيدينا ثلاثة فروض لتفسير ظاهرة التناسق المذكورة آنفاً:

أولاً: أن يكون هذا التناسق خاصية كل مادة على حدة.

ثانياً: أن يكون هذا التناسق خاصية اجتماع هذه المواد بعضها مع بعض.

ثالثاً: أن يكون هذا التناسق إثر اجتماع هذه المواد لكن على نحو خاص ينجز خطة سابقة.

Scanned by CamScanner

• تقييم أوليّ للفرضيات الثلاث

الفرضية الأولى ساقطة، ولم يقل بها أحد على الإطلاق، لأن المادة وحدها أعجز من أن تكون نظاماً ما. فجملة: (نص حكيم قاطع له سرّ) – وهي جملة مؤلفة من الأحرف المقطعة الموجودة في أوائل بعض سور القرآن - نظم هادف له معنى ولكنه حتما ليس مسبباً عن مجرد خواصّ كل حرف من الأحرف المكونة لها، بدليل أنه يمكن تأليف جملة مختلفة من الحروف ذاتها مثل ما يردد الشيعة: (صراط عليّ حق نمسكه) أو ما ردّ به أهل السنة عليهم:(صحّ طريقك مع السنة)، فمن البيّن أنه لا يوجد في خواص الحروف ما يجعلها تنتظم بطريقة تنتج معها مثل هذه الجمل المفيدة، أي لا يوجد فيها ما يقوم بالتنسيق والترتيب الدقيق الهادف. لا مناص من الإقرار بوجود إرادة واعية مهيمنة على أجزاء وشروط ما سيصير نظاماً وبالتالي سابقة على ظهور النظام هي التي اختارت ظهوره على نحو معقول مفهوم لما ينطوي عليه من تناسق وتآزر هادف، تماماً كما نقر بوجود الناظم الذي نظم تلك الجمل المفهومة من تلك الحروف المحددة.

والفرضية الثانية أيضاً غير ممكنة، لأن مجرد الاجتماع لا يتسبب عنه التنسيق والنظم، ولأنه بدون خطة سابقة تهيمن عليه سيكون اجتماعاً عشوائياً وفوضوياً، كالخلايا التي لا تتكاثر بنظم بل بعشوائية فتتحول إلى خلايا سرطانية تحارب الحياة في خطتها وتسبب الموت.

أما الفرضية الثالثة، أي اجتماع المواد على نحو خاص هو الذي نتج عنه النظم المعين، فهي مجرد وصف ساذج للواقع عار عن التفسير، إذ سيَرِدُ عليه: فلم تمّ اختيار هذا النحو من بين أنحاء كثيرة جدا كان يمكن أن تجتمع عليه ولو اجتمعت على أي منها باستثناء النحو الذي اجتمعت عليه ما أفلحت في ان تكون نظاماً منتجاً لآثار دقيقة، اي منتجا لغاية معقولة؟ يعني أنها اجتمعت على هيئة محددة وكان يمكن أن تجتمع على غيرها من ملايين الأشكال الأخرى مما لا يفي أي منها بتأليف نظام منتج هادف كالحاصل من ذياك الاجتماع. وذاك النحو من الاجتماع ليس ضرورياً بذاته، فما الذي رجحه وأناله فرصة العمل دون سواه؟ ولنتذكر مثال الأحرف المقطعة في أوائل السور والجمل الثلاث المكونة منها، والعهد به غير بعيد.

Scanned by CamScanner

• شبهة متفرعة عن الشبهة الثالثة

ثمة فرضية أخرى تعرف بالقابلية أو الألفة الكيماوية chemical affinity، وهي كما يبدو من اسمها فرع من نظرية خاصية المادة، وبتعبير أدق تنويع عليها. وتنتج هذه الألفة من خواص إلكترونية تمكّن المواد غير المتشابهة من تكوين مركبات كيميائية، كما يحدث بين الصوديوم والكلور فينتج ملح الطعام أي كلوريد الصوديوم NaCl. وقد كتب إيليا بريغوجين Illya Prigogine الكيميائي النوبلي: جميع التفاعلات الكيميائية توجه الحالة إلى توازن كيميائي تختفي عنده الألفة الكيميائية للتفاعل. وقد سحب القائلون بهذه الفرضية ما يلاحظ من انجذاب بعض المواد غير العضوية بعضها إلى بعض على المواد العضوية، فافترضوا وجود ألفة كيميائية للأحماض الأمينية لأن تتجمع وتكون بروتينات وكذلك افترضوا في القواعد النيتروجينية – الأدونين والسيتوزين والتايمين والغوانين – قابلية لتكوين الأحماض النووية بنوعيها DNA، RNA.

وبغاية التوضيح نذكر أن جزيء «الدي أن أيه» تركيبه بسيط جداً:أربع قواعد نيتروجينية –A،T،C،G – وسكر ريبوزي منزوع الأكسجين deoxiribose sugar وزمرة فوسفات، كما يظهر في الصورة أدناه والتي تشتمل على قطعة من «الدي أن أيه» طولها 4 جزيئات قاعدية. ويرتبط الشريطان ببعضهما بواسطة الروابط الهيدروجينية الموجودة بين الأسس (القواعد) ويلاحظ أن الروابط بين السيتوزين والغوانين ثلاثية، وبين الأدونين والتايمين ثنائية، وتتابع هذه القواعد في الجينوم – مثلا التتابع الظاهر في الصورة هو A-T-C-G-T-A-G-C يؤلف كتاب الحياة الذي يحتوي على 3،3 مليار زوج من النيكليوتايدات nucleotides – والنيكليوتايد عبارة عن قاعدة نيتروجينية وسكر خماسي ومجموعة فوسفات – تمثل حروف هذا الكتاب، تختلف في طريقة ترتيبها وتتابعها من إنسان إلى آخر.

Scanned by CamScanner

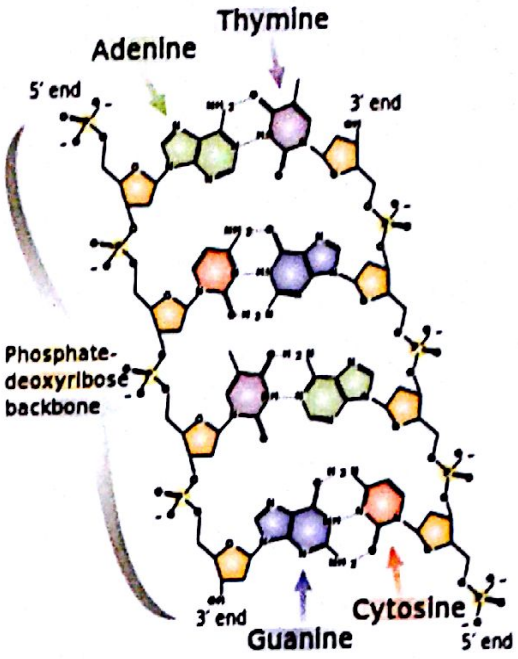

قطعة من الدنا طولها أربع جزيئات قاعدية نيكليوتيدة

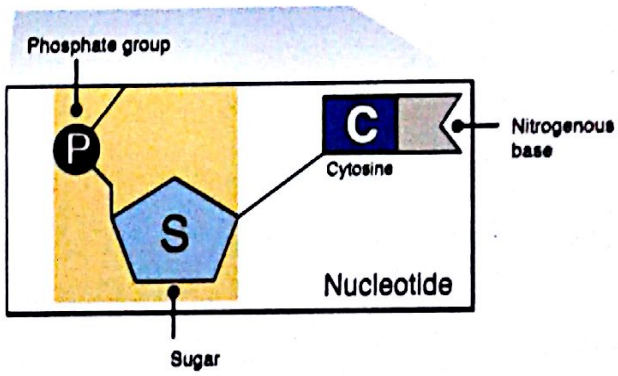

وكان من أشهر الذين تبنوا فرضية القابلية الكيميائية عالم الأحياء الأمريكي وأحد كبار المتخصصين في نشأة الحياة دين كينيون 1939 (Dean Kenyon) وقد ألف في سنة 1969 كتابا بالاشتراك مع Gary Steinman بعنوان (القدر البيوكيميائي) Biochemical Predestination يؤيد فيه فرضية القابلية الكيميائية، ويجادل فيه بأن بعض الأحماض الأمينية تتسم بخاصية جذب متاصلة لأحماض أمينية أخرى، من دون الحاجة إلى الترميز الجيني، ولكن علماء آخرين ممن تفحصوا الفرضية

جيدا وجدوا أن هناك جزيئات أخرى لمواد ليست أحماضاً أمينية لديها قابلية تقارب وانجذاب للأحماض الأمنية تفوق تلك التي بين الأحماض الأمينية نفسها، وبدراسة 250 نوعاً من البروتينات عثروا على دليل حاسم هو أن تسلسل الأحماض الأمينية لا علاقة له بتاتاً بالقابلية الكيميائية، وإزاء هذه المعطيات الجديدة لم يجد كينيون بدّاً من أن يتبرأ من فرضية القابلية الكيميائية ومن سائر النظريات الأخرى التي تفترض نشوء الحياة بطريق الصدفة. وقد أعلن في سنة 1982 أنه لم يعد مقتنعا بالأدلة التي أوردها في كتابه ذاك والتي تؤيد التطور. وشارك بعد ذلك في سنة 1989 في تأليف كتاب (من الباندا والناس) Of Pandas and People الى جانب Percival Davis وهو كتاب يقدم حججاً تؤيد التصميم الذكي، الذي يؤكد أن الحياة تطورت لا عشوائياً أو صدفياً بل بفعل مصمم ذكي.

يفصح كينيون عن سبب رفضه لتفسير تكون جزيء «الدي أن أيه» بالقابلية الكيميائية فيقول:

إن دور القابلية الكيميائية في نشأة سلسلتي جزيء «الدي أن أيه» يقف عند تقابل القواعد النيتروجينية: الأدونين مقابل التايمين، والسيتوزين مقابل الغوانين، أما تتابع هذه القواعد في السلسلة الواحدة – وهو التتابع المسؤول عن تشفير المعلومات – فلا دور للقابلية الكيميائية فيه، إذ إن القابلية الكيميائية ستنتج نمطاً مكرراً يشبه بلّورات ملح الطعام، وسيكون ذلك بمثابة تتابع حروف أربعة في رسالة أو كتاب على نحو لا ينتج أي كلمة مفهومة. يشير كينيون إلى أن الكيفية التي تتتابع بها القواعد النيتروجينية في الدنا هي التي تنتج معلومة محددة بمنزلة أمر قابل للتنفيذ فيما يعرف بالجين[17]. ولولا ذلك التتابع لما أمكن تشفير أي معلومة بطريقة هادفة، وواضح جدا أن القابلية الكيميائية لا علاقة لها بالمرة بكيفية التتابع لكونه وراء مجرد انجذاب

17 – و الجين عبارة عن مجموعة من أزواج القواعد النيتروجينية ويقاس طوله بعدد هذه الأزواج، ويبلغ متوسط طول الجين البشري نحو 3000 زوج من القواعد وإن كان هناك جين اسمه dystrophin يصل طوله إلى 2.4 مليون زوج من القواعد. ويحمل الجين المعلومات في صورة كودونات codons والكودون عبارة عن 3 قواعد متتابعة تشفر لاختيار حمض أميني واحد، وتتراص الأحماض الأمينية بترتيب يناظر ترتيب الكودونات بالدنا المشفر لها، لتكون ما يعرف بالسلسلة الببتيدية وما البروتين إلا مجموعة من هذه السلاسل.

Scanned by CamScanner

القواعد بعضها إلى بعض، فالأدنين ينجذب للتايمين والسيتوزين ينجذب للغوانين.

ولنختم هذه الفقرة بهذه الجملة المنقولة عن السيرة الذاتية لمؤسس نظرية التطور تشارلز داروين: «من الصعب، بل المستحيل، أن نصف هذا الكون الهائل والعجيب، بما فيه الإنسان بقابلياته للتحسب لمصالحه ومنافعه، بأنه وليد الصدفة العمياء».

ترى لو أن داروين نُشر من قبره واطلع على بعض ما مرّ بنا من أرقام مذهلة تتعلق بمدى الدقة والإحكام النافيين للصدفة والعشوائية في الوجود ونظمه المختلفة هل كان سيصير من دعاة الإيمان واليقين أم سيصر على لا أدريته وتردده؟

•••

Scanned by CamScanner

المبحث الثالث

شبهات حول أكملية النظم والناظم

شبهات ثلاث حول الأكملية

الشبهات الرابعة والخامسة والسادسة التي طرحها هيوم لا تستهدف برهان النظم، ولكنها تتناول قضية الأكملية: أكملية النظم الموجود وأكملية ناظمه.

• الشبهة الرابعة

يقول هيوم: كيف يتسنى لنا أن نثبت أن هذا النظام السائد هو النظام الأكمل وليس بين أيدينا نظم أخرى نقارنه بها.

• الشبهة الخامسة

يقول: حتى لو سلمنا تنازلاً بأن هذا الكون يدل على الله هو خالقه لكنه لا يدلّ على صفات الله الكمالية من عدل ورحمة وكرم مما اعتاد أتباع الأديان وصفه بها.

• الشبهة السادسة

قال: ما يدرينا؟ فلعل الله حين أراد أن يبدع هذا الكون جرّب مراراً قبل أن يهتدي إلى النظام الحالي للكون.

• صمود برهان النظم وصعوده

من الواضح أن الشبهات الثلاث الأخيرة لا علاقة لها ببرهان النظم. برهان النظم يحمل على عاتقه مسؤولية شيء واحد: إثبات أن هذا الوجود لم يأت صدفة وأنّ له خالقاً، وذلك استناداً إلى مظاهر النظام والدقة والإحكام في العالم التي تحكي هدفية وقصدية وتنفي الاعتباط والعشوائية.

أما أن هذا النظام السائد في الكون هو الأكمل فبرهان النظم لا يتعرض لهذه

Scanned by CamScanner

المسألة ويكتفي - وهو كاف - بالتأكيد على وجود نظام دقيق محكم يتطلب في نهاية التحليل منظماً. وكذلك لا يتعرض برهان النظم لكل صفات المنظم ولكنه يكتفي منها بما له علاقة بالنظام كالعلم والقدرة والخلق والتقدير الدقيق...إلخ وأما سائر صفاته فتطلب أدلتها من أمور أخرى.

ونشير هنا إلى أن الحامل لنا على سرد شبهات هيوم خصوصاً هو أن معظم الشبهات التي لا يزال الملاحدة يلوكونها هي مجرد ترديد وتحوير لشبهات هيوم.

وقد ألجأت شبهات هيوم وبعدها نظرية داروين اللاهوتيين الغربيين إلى التخلي ملحوظة عن برهان النظم .

لكن في العقدين الأخيرين من القرن العشرين جرى استحياء برهان النظم وبعثه من جديد في نسخة منقحة تحت عنوان: برهان التصميم الذكي.

وقد حظي هذا البرهان باهتمام طائفة من العلماء والمفكرين والفلاسفة. وفي سنة 1994 تأسس في الولايات المتحدة سياتل واشنطن معهد ديسكفري لدعم الأبحاث والدراسات التي تؤيد التصميم الذكي المناهض للتطور، وللمعهد موقع على الشبكة، وهو discovery.org. ومن أبرز الكتب التي تؤيد التصميم الذكي كتاب (صندوق داروين الأسود) Darwin`s Black Box الصادر في سنة 1996 والذي وصفته الناشيونال ريفيو بأنه أهم كتاب غير قصصي صدر في القرن العشرين، لعالم الكيمياء الحيوية الأمريكي مايكل بيهي Michael Behe مطور مصطلح التعقيد غير القابل للاختزال irreducible complexity (IC) بيّن فيه أن بعض البنى البيوكيميائية من التعقيد غير القابل لأن يكون نتج عن تطور، وبالتالي لا مناص من افتراض أنها نتيجة مصمم ذكي. وكتاب (تصميم الحياة) لوليام ديمبسكي – الذي سبق تعرفنا عليه – وفي تقريظه للكتاب قال مايكل بيهي: عندما يعد المفكرون في المستقبل الكتب التي أطاحت نظرية داروين فإن كتاب تصميم الحياة سيكون في رأسها.

Scanned by CamScanner

• تعليق على تعدد العوالم

وبمناسبة تساؤل هيوم عما إذا كان الله قبل أن يخلق هذا الكون قد جرّب خلق عوالم أخرى لم تُرُقّ له ثم انتهى إلى خلق هذا العالم نورد هذه التعليقة العجلى:

إذا كان جيوردانو برونو قد أحرق بالنار لقوله بتعدد العوالم فإن القرآن صرّح في مواضع كثيرة بتعدد العوالم، فأول آية في الفاتحة بعد البسملة (الحمد لله رب العالمين) وفي سورة الطلاق (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن)، فمبدئيا – من زاوية قرآنية – لا محظور في القول بتعدد العوالم. ومن الواضح أن الله قد اختار لنا كنوع إنساني عالمنا هذا الذي يضمّنا ونحيا فيه، فهذا ضرب من الاختيار. ولكننا مع هذا نختلف مع هيوم حين ذهب يتساؤل: ما يدرينا أن الله قبل أن يبدع عالمنا هذا قد جرّب مرارا وتكرارا حتى اهتدى إلى نظام عالمنا هذا فصاغه على وفقه؟

فالتأمُّل في أسلوب الله في الخلق – إن جاز التعبير – يدل على اعتماد آلية الاصطفاء (الله يصطفي) (إن الله اصطفاك) (واصطفاه) (الذين اصطفينا من عبادنا) ، والاصطفاء يقوم على الغنى والسعة (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء) كما يختار من بين زهاء 400 مليون حيوان منوي واحدا فقط ليلقّح . ويختار من بين الملائكة الكثيرين ملكاً واحداً ليكون سفيره إلى نبيه وكما يختار من بين ملايين الناس واحداً ينبئه ويوحي إليه (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس)؛(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران)؛(يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي)؛ (و لقد اصطفيناه في الدنيا) ويصطفي من يجعله صديقاً (يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) وكذلك يصطفي أمة من الأمم يورثها الكتاب (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) ويصطفي ديناً ومنهجاً لأمة من الناس (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين) ويصطفي من يجعله قائدا لقبيل من الناس (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم). ولكن ينبغي التنبه إلى أن الاصطفاء بحدّ ذاته كما يدلّ على الغنى والسعة يدل على بطلان التجريب، فالتجريب يقتضي إهلاك كل ما لم يتوفر على شرط الوفاء بالمواصفات المطلوبة للخالق في صنعته، أما وقد وقع الاصطفاء والمفاضلة

Scanned by CamScanner

فلا مناص من التسليم بكون الجميع مراداً مقصوداً للخالق الذي بنى خطته في تنويع الخلق وتدريجه على ما يحقق إمكان الاصطفاء.

• خلق آدم والاصطفاء

وبمناسبة اصطفاء آدم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ادَمَ﴾ (آل عمران: 33)فإن من المثير أن يُذكر الاصطفاء في معرض خلق آدم، إذ إن الاصطفاء يقتضي تعدد المصطفى منه، فهل هي إشارة إلى مسبوقية آدم بخلق آخر من جنسه أو شبيه به؟ خصوصا أن لدينا أثرا منسوبا إلى النبي في مصادر الصوفية والإمامية : «قبل آدم، ألف آدم». ولعل في تساؤل الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(البقرة: 30) ما يشير من طرف خفي إلى هذا المعنى.

علماء الدين المسلمون ومن قبلهم رجال الدين اليهود والنصارى يذهبون إلى أن عمر البشرية من آدم إلى أيامنا هذه لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين استنادا إلى فهم وتفسير نصوص الكتاب المقدس، أما المسلمون فتابعوا أهل الكتاب في هذا من غير الاستناد إلى نصوص قرآنية أو نبوية.

في سنة 1994 في تلّ عفار بإثيوبيا تم العثور على المستحاثة الشهيرة (آردي) Ardi وهو اختصار ل (أرديبيتيكوس راميدوس) Ardipithecus ramidus، وعمرها 4.5 مليون سنة، وهي منتصبة على قدميها ولها كف وقدم والإبهام مفصولة عن سائر الأصابع تتمكن بها من القبض على الأشياء.

فإذا ثبت أن آدم عمره بضعة آلاف أو عشرات آلاف من السنين فقط، فلا مناص من افتراض مسبوقيته بأوادم آخرين والله أعلم.

لقد أعربنا آنفا عن رأينا في كون هذه الشبهة بمعزل عن برهان النظم، ونزيد هنا أن البحث في مسألة هل خلق الله هذا العالم إبداعاً من غير تجريب أو اهتداء بعد تجريب لا تؤثر على حقيقة أنه خالق هذا العالم عند من يطرح السؤال، بل في السؤال تسليم بكونه تعالى خالق هذا العالم، والآن عالمٌ بهذه الدقة والإحكام اللذين

Scanned by CamScanner

تكفّل العلمُ بالكشف عن طرف يسير منهما، مدهش غاية الإدهاش، كما حكت الأرقام التي عرضنا لنمط يسير منها، ينبغي أن يقرر مبدئياً تفوقه الماحق على الإنسان وإمكاناته التي يقيس إليها ويحاكم بها قدرة الخالق، وعليه فالعقل يقضي بأرجحية احتمال قدرة الخالق على الإبداع الكامل ابتداء من غير تجريب على احتمال التجريب أرجحية مطلقة، لأن إلهاً مضطراً إلى التجريب ومعاناة الفشل مرات وكرات سيعجز حتما عن بلوغ خلق كون كهذا الكون المدهش الرائع، إن الكون لينادي بأن خالقه أكبر منه، فكل ما يبديه لنا الكون من دقة وإحكام هو مجرد قطرة من قدرة مبدعه، وهذا بحد ذاته يحملنا على اعتقاد إبداعه الكمالَ من غير تجريب.

ولفلاسفة الإسلام بحث خاص في مسألة علم الله وهل هو فعلي فقط أم هو قوة (إمكان) وفعل (تحقق)، ولتوضيح المراد بالقوة والفعل نضرب مثلا بالبذرة والشجرة، فقبل أن تصير الشجرة ما هي عليه كانت في بدايتها مجرد بذرة، لكن تلك البذرة مشتملة على المخطط الكامل للشجرة، فيقال: إن البذرة شجرة بالقوة، أي بالإمكان، بحيث إذا هُيئت لها الظروفُ المناسبةُ لاستنباتها، أي استخراجها من بذرتها، خرجت من القوة إلى الفعل فصارت شجرة. ومن البيّن أن علم الإنسان يتسم بكونه مزدوجاً، يمرّ من القوة إلى الفعل، ولذا تعتريه مظاهر النقص والتطور والتغير والاختلاط، وتؤثر فيه التجربة فتعدله سلباً وإيجاباً، فضلاً عن كونها مصدراً مهما من مصادره. فإذا وضح هذا حقَّ السؤالُ: وهل كذلك علم الله تعالى؟ والجواب أنه ليس كذلك، بل هو علم فعلي لا مدخلية للإمكان فيه بوجه من الوجوه، وقد قال الفلاسفة الإسلاميون: واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات، ولهم براهين على رأيهم هذا تطلب من مظانها. فاستبان أن التجريب غير وارد في حق الله تعالى، لفعلية علمه وبراءته من الإمكانية.

• شهادة بول ديفيز

أعرب الفيزيائي البريطاني بول ديفيز في كتابه «عقل الله» The Mind of God عن اعتقاده في أن تصور عدد لانهائي من العوالم غير المرئية وغير القابلة للرؤية لا

Scanned by CamScanner

لشيء الا لتفسير العالم الذي نراه يبدو أشبه ما يكون بمن يحمل مزيداً من المتاع حتى نهاية الشوط، فمن الأسهل تصور إله واحد غير مرئي، ثم ذكر أن هذا هو الاستنتاج الذي توصّل إليه الفيلسوف ريتشارد سوينبرن (1934) Richard Swinburne المتخصص في فلسفة العلم وفلسفة الدين، فقد ذكر سوينبرن: أن التسليم بإله هو التسليم بكيان من نوع بسيط، أما التسليم بوجود حقيقي لعدد لا نهائي من العوالم بحيث تستغرق بينها كل الإمكانات المنطقية فهو التسليم بالتعقيد والمصادفة غير المدبرة مسبقا بين أبعاد لا نهاية لها ولا يمكن للعقل أن يؤمن بها أو يتصورها.

•••

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني
شبهات أخرى وردود

الشبهة الأولى: نظرية التطور الكيميائي
Chemical evolution

• التطور الكيميائي وحلقته المفرغة

ليس كل تطوري ملحداً بالضرورة، بل إن الكثيرين من رجال الدين القائلين بالتطور والكثيرين من علماء التطور يرون أن مبدأ التطور لا يتناقض مع الإقرار بعقيدة الخالقية وأنه يكشف عن أسلوب الله في الخلق ليس إلا.

دارون نفسه في رسالة وجهها إلى أسا غراي Asa Gray . أكبر علماء النبات الأميريكيين في وقته. كتب يقول: إن عقلي يقضي بأن من الصعب جداً بل من المستحيل تصور هذا الكون الهائل المعجب بما فيه الإنسان ذي الأهلية لتقدير مصالحه، على أنه نتيجة الصدفة العمياء أو الضرورة اللازبة. من أجل هذا أجدني مضطرا إلى النظر إلى العلة الأولى على أنها ذات عقل ذكي يشبه بمعنى ما عقل الإنسان ، وبهذا المعنى استحق أن أنعت بأنني مؤله (يؤمن بالله)[18].

وهروباً من هذه المصالحة الممكنة والمزعجة نحت التطوريون الملاحدة مصطلحاً جديداً هو مصطلح التطور الكيميائي.

• معنى التطور الكيميائي

تصف نظرية التطور الكيميائي التغيرات الكيميائية على الأرض البدائية والتي أدت في نهاية الأمر إلى ظهور أول أشكال الحياة، مفترضة أن الانتخاب الطبيعي أخذ

18 - Darwin. C. The Autobiography of Charles Darwin 1809- 1882. pp. 92-93.

Scanned by CamScanner

سبيله إلى العمل قبل ظهور الحياة نفسها ممثلة في الخلية الأولى، وذلك باستبقاء الطفرات العشوائية التي هيأت لأحسن انتظام للقواعد النيتروجينية في ما سيصير لاحقا جزيء دنا DNA وهذا ما دعي ب (الانتخاب الطبيعي قبل البيولوجي) prebiological natural selection وهو مجرد تقنيع للعناد الرافض لأي إذعان لاحتمال وجود خالق مصمم من جهة، وللجهل بكيفية نشوء الحياة من الجهة الثانية، فالانتخاب الطبيعي يشترط وجود أفراد عديدة تتصارع على البقاء في بيئة معزولة لا تتسع للجميع، وكلها شروط لا أثر لها بتة في موضوع جزيء الدنا. فالانتخاب الطبيعي يعتمد أساساً على الانتقاء من بين عدد من الأفراد المتشابهين لكن المتنافسين، وكما يصبح غير ذي موضوع اذا تعلق الأمر بالجزيء الأولي للحياة فإنه غير ذي موضوع حين يجري الحديث عن الشروط الابتدائية لكوننا هذا وقوانينه الطبيعية، ذلك أنها فريدة تماماً ويتيمة لا يشاركها في الميدان قوانين وشروط أخرى يجري التنافس معها ليتم انتخاب أصلحها في النهاية.

• أسبقية المعلومات وإشكال الحلقة المفرغة

اقترح أحد الفيزيائيين مازحاً أن يعطى أرسطو جائزة نوبل للوراثة، لأنه حقق سبقاً بألفين وثلاثمائة سنة حين قال: المعلومات أولاً، وذلك عند معالجته لمفارقة الدجاجة والبيضة، وانتهى إلى الجواب بأن البيضة هي الأسبق، وذلك أن المعلومات تأتي أولا. وهذا هو جوهر علم الوراثة.

إن الحكاية هي حكاية التخطيط والتصميم الموجود في شيفرات الحمض النووي.

ومن المعلوم أن الشيفرة الوراثية لكي تعمل، تحتاج إلى أنزيمات، ولكن الأنزيمات بدورها نوع من البروتين. وبناء البروتين يحتاج إلى شيفرة وراثية. وهكذا ندور في حلقة مفرغة. فما الحل يا ترى؟

• محاولة كسر الحلقة المفرغة

حاول بعضهم طرح فرضية لعلها تحل هذا الدور، فقالوا بأصالة حمض الرنا (RNA) فيما عرف بفرضية الرنا اولا RNA first hypothesis؛ وخلاصتها أن

Scanned by CamScanner

الحياة بدأت بكائنات بسيطة جداً لديها شيفرات وراثية محمولة في حمض الرنا، والذي هو أكثر بساطة من الدنا. ثم بمحض صدفة سعيدة. لم يتعبوا أنفسهم بحساب مقدار احتمالها. التحمت سلسلة الرنا بسلسلة أخرى مثلها، ليظهر نتيجة ذلك جزيء الدنا (DNA) الممثل للشفرة الكاملة للحياة. وقد قام علماء آخرون بحساب احتمال وجود جزيء رنا مشابه جمعت الصدفة بينه وبين جزيئنا ليشكلا معاً جزيء دنا فإذا هو لا يزيد عن 10^{-73} أي واحد من عشرة مرفوعة للأس ثلاثة وسبعين.

يبدو أن الحياة ضيف جديد تماماً على الوجود كما أن الوجود ضيف جديد على العدم، على حد تعبير أنطونيو لازكانو[19].

• نكتة مغفول عنها

ينبغي أن نلتفت هنا إلى ملاحظة بيولوجية تتمثل في أن الفرق بين الرنا والدنا هو أن حمض الرنا يختلف في أحد القواعد النيتروجينية عن الدنا، إذ يحتوي على يوراسين عوضاً عن التايمين. وهذه النكتة لم يتعرض لها أصحاب فرضية الرنا أولا، فهم مطالبون بتقديم تفسير مقنع لتحول اليوراسين إلى تايمين. ثم إن جزيء الرنا ضعيف غير مستقر وبالتالي غير قادر على الصمود في وجه التغيرات العنيفة التي كانت تجتاح وجه الأرض في بداياتها السحيقة، ويبقى السؤال الأكثر إلحاحا وصعوبة يدور حول مصدر المعلومات المشفرة في جزيء الرنا: من أين جاءت تلك المعلومات؟ ولم كانت بتلك الكيفية التي تؤهلها للتشفير لحياة معقدة وذكية.

• دوكينز والهروب إلى الأمام

إدراكا منه لمدى المأزق الذي يعلق فيه الملحد حين يطالب بتقديم تفسير معقول لنشأة الحياة فإن دوكينز لم يشأ أن يشغل نفسه كثيرا بهذه المسألة، فمر سريعا عليها ليظهر براعته في تفسير الانتخاب الطبيعي على نحو لا تبقى معه حاجة إلى افتراض وجود خالق قدير للأنواع. وسوف نرى مدى براعته في المسألتين،

19- Antonio Lazcano (-1950) عالم أحياء تطوري مكسيكي تخصص في دراسة نشأة الحياة لأكثر من خمس وثلاثين سنة. وهو عضو في ناسا في معهد الأحياء الفلكية. من كتبه (أصل الحياة) The Origion of Life.

Scanned by CamScanner

في لقائه مع بن شتاين (1944) Ben Stein ـ الممثل والكاتب والقانوني والمعلق السياسي والاقتصادي الأمريكي ـ كما في وثائقي (مطرودون) Expelled صرح دوكينز بعدم اقتناعه بأي فرضية حول نشوء الحياة على كوكبنا، رغم اعترافه بأنه ليس لديه أدنى فكرة عن كيفية بدء الحياة فإنه اقترح أن يعزى أصل الحياة إلى جزيء ذاتي الاستنساخ self replicating molecule ، وهي الحيلة المستهلكة التي ابتذلها الملاحدة والمعاندون في عصرنا هذا: سمّه! Give it a name وسرعان ما تفتضح هذه الحيلة بمجرد طرح السؤال: كيف تم تركيب ذلك الجزيء أصلاً؟ ما هو مصدر المعلومات المشفرة فيه؟ ثم إن جزيء دوكينز السحري هذا ليتم استنساخه يحتاج الى جزيئات أخرى لا تعمل إلا بإنزيمات ولا شيء من هذا كله !

ولأنه مدرك للهراء الذي ينضح به كلامه فإنه لا يلبث أن يستنجد بنظرية البذور الفضائية panspermia التي سبق إليها ألفريد هويل فيقترح أنه ربما تكون هناك حضارة ما تطورت في وقت مبكر من عمر الكون إلى شكل أكثر رقياً من ناحية تقنية وذلك بالطرق الداروينية ـ وكأنما هذه الطرق طرق عابرة للكوكب صالحة للاشتغال على مستوى ما لا دراية لنا به من الكون السحيق. وقد نجحت تلك الحضارة المفروضة في تصميم شكل من أشكال الحياة عملت على بذره في كوكبنا .

والمثير أن الرجل يقر بحقيقة تصميم جزيئات الحياة لكنه يفضل أن ينسبها إلى حضارة متطورة في أعماق الكون لم تُكتشف ولم يدلّ على وجودها أدنى دليل عوض أن ينسبها إلى (الله) تعالى، إشفاقا على إلحاده أن يتحطم ويتهاوى. وقد واجهه بهذه النتيجة بن شتاين قائلاً: تقبل إذن فكرة التصميم الذكي لكنك ترفض أن يكون المصمم هو الله!

وهل فات دوكينز أن فرضية البذور الفضائية ستُواجَه بدورها بالسؤال الملحّ عينه: كيف نشأت الحياة العاقلة في ذلك الصقيع البعيد في كوننا العميق؟

ومن هنا تبقى كل محاولات ملاحدة الدراونة لمداورة المشكلة الحقيقية هذه ـ بالإمعان في الحديث المزوق عن آلية الانتخاب الطبيعي ـ مكشوفة خائبة، وذلك كما عبر الفيلسوف ريتشارد سوينبرن بالقول: تصور الداروينية الكون باعتباره مصنعاً

Scanned by CamScanner

لإنتاج كل هذه الكائنات المتنوعة، لكننا ما زلنا في حاجة إلى تفسير كيف نشأ هذا المصنع وكيف يدار؟

لكن لا بأس، فلنر كيف حاول دوكينز أن يقنعنا بكفاية الانتخاب الطبيعي وحلوله محل الإله في تفسير تطور الأنواع الحية. لقد أبدع هذه المرة اصطلاح الانتقاء التراكمي Cumulative selection والذي يشبه عمله بعمل غربال يغربل حبيبات حصى متباينة الأحجام، ففي أول غربلة سنحصل على كومتين من الحصى إحداهما أكبر من أختها، فكل ما هو أكبر من ثقوب الغربال يبقى فيه والأصغر ينزل منه، ولو أخذنا ناتج الغربلة وغربلناه بغرابيل متدرجة الثقوب اتساعاً فسنحصل في النهاية على كومات مختلفة الأحجام، وهكذا ففي عملية الانتخاب التراكمي يتم الفرز بين أجيال كثيرة متعاقبة. ثمة فرق بين الانتخاب بخطوة واحدة والذي تكون فيه كل محاولة جديدة تماماً، وبين الانتخاب التراكمي الذي يتم كما رأينا على خطوات ومراحل متتالية.

في كتابه المشهور (صانع الساعات الأعمى) ضرب لنا دوكينز مثلا أشعره بالنصر، تنويع على مبرهنة القرد.

يعترف دوكينز بأن عمر الكون كله لا يكفي للنجاح في كتابة جملة واحدة من أعمال شكسبير بطريقة عشوائية، جملة هاملت مثلا: يبدو لي شبيهاً بابن عرس methinks it is like a weasel ، بل إننا سنحتاج إلى 10^{30} سنة وهو زمن أطول من عمر كوننا بمليون مليون مليون مرة!!

لقد صمم دوكينز برنامجاً حاسوبياً يقوم بمثل عمل قرد هكسلي: الضرب على الكيبورد عشوائياً، وقرنه ببرنامج آخر يتبع نموذجا داروينيا لطباعة الكلمات بطريقة الانتخاب التراكمي. في أسفل الشاشة يجري تتابع الحروف عشوائياً ويستمر كذلك والمحصلة لا شيء، وفي وسط الشاشة إن حدث وظهر حرف من حروف عبارة هاملت يتم الاحتفاظ به مع تغيير جملته لإنتاج جمل جديدة وهكذا كلما ظهر حرف جديد مطابق تم الاحتفاظ به بالطريقة ذاتها، وهكذا سينحو السطر الأوسط تباعا وتراكميا progressively and cumulatively نحو مطابقة الجملة المرادة، وبعد

Scanned by CamScanner

أن عمل حاسوب دوكينز البسيط وقتها لدقيقتين فقط كان لدينا كلمة methinks وكلمة weasel.

ويعترف دوكينز بما يتضمنه نموذجه هذا من غش، لأن البرنامج مصمم للوصول إلى هدف مستقبلي أما عملية التطور فعمياء لا ترى المستقبل، لكن دوكينز يجادل بأنها ليست عشوائية رغم كونها عمياء غير عاقلة ولا ترى المستقبل، وذلك لأنها تستبقي الأصلح وهو الأفضل تكيفاً وتلاؤماً، ففي عملية التطور لا مكان للعشوائية لكن للتراكم، هذا رغم الدور الكبير الذي أسنده داروين والتطوريون من بعده للطفرة والتي هي عشوائية بطبيعتها.

يمكن توجيه نقد صميمي لنموذج دوكينز باللفت إلى أن تراكميته وان سُلّم لها بدور ضمن صراع متعضيات في بيئة معزولة لكن لا يمكن تصور معنى أو دور لها على مستوى الخلايا الأولى التي مهّدت لظهور المتعضي فضلاً عن الفترة السابقة التي مهدت لظهور الخلية نفسها.

•••

Scanned by CamScanner

الشبهة الثانية

التكيف المسبق ex - adaptation

ويقصد به ظهور تغيرات بيولوجية معينة، في مرحلة ما، لا تخدم هدفاً راهناً، لكنها ستستغل في مرحلة تالية للقيام بوظيفة جديدة.

وبديهي أن يفشل الانتخاب الطبيعي في تفسير هذه التغيرات ، فالانتخاب الطبيعي انتخاب غير مصمم، في حين أن التكيف المسبق عبارة عن تصميم هادف.

يقدم جهازنا الصوتي مثالا بليغا على التكيف المسبق، فالكلام يحتاج إلى مركز دماغاي متخصص وممر صوتي vocal tract . مكون من الحنجرة وحبالها الصوتية والبلعوم ثم اللسان والشفتين . يستجيب لتعاليم الدماغ بالشكل المطلوب. وفي إنسان نياندرتال والقردة العليا كما في الأطفال حديثي الولادة يكون وضع الحنجرة مرتفعا في الرقبة، ما يجعل البلعوم قصيراً، الأمر الذي يقلل إمكانيات تعديل الأصوات المنطوقة، لكن مع نمو الطفل الإنساني تتحرك الحنجرة إلى الأسفل فيزداد طول البلعوم. وقد أظهرت الحفريات أن أشباه الإنسان قد اكتسبت الممر الصوتي القادر على إحداث الكلام الواضح قبل زهاء نصف مليون سنة،أي قبل أن يصبح أسلافنا قادرين على ممارسة اللغة والتكلم. فهل كان الانتخاب الطبيعي على دراية مسبقة بضرورة الكلام للإنسان والمفروض أن الانتخاب أعمى لا نظر له إلى المستقبل؟ إذن ما الذي يقف وراء هذا الإعداد المسبق والتصميم الناظر إلى المستقبل؟

ذكاؤنا البشري يقدم مثالاً آخر ذا دلالة خاصة على التصميم الهادف. فداروين من جهته عزا الذكاء البشري إلى الانتخاب الطبيعي، لكن معاصره التطوري الآخر الفرد رسل والاس 1823 - 1913(Alfred Russel Wallace) تحدث عن ما أسماه الذكاء الكامن potential intelligence والذي يعني أننا كأفراد للنوع الإنساني مزودون بذكاء يفوق بمراحل بعيدة ما يلزمنا من الذكاء لتدبر أمر بقائنا، وعرف هذا بمفارقة والاس Wallace's paradox : كيف يمكن أن يؤدي الانتخاب الطبيعي إلى ظهور ملكات لا تستخدم ينقرض الأفراد الذين لا يتوفرون عليها رغم أنها غير

Scanned by CamScanner

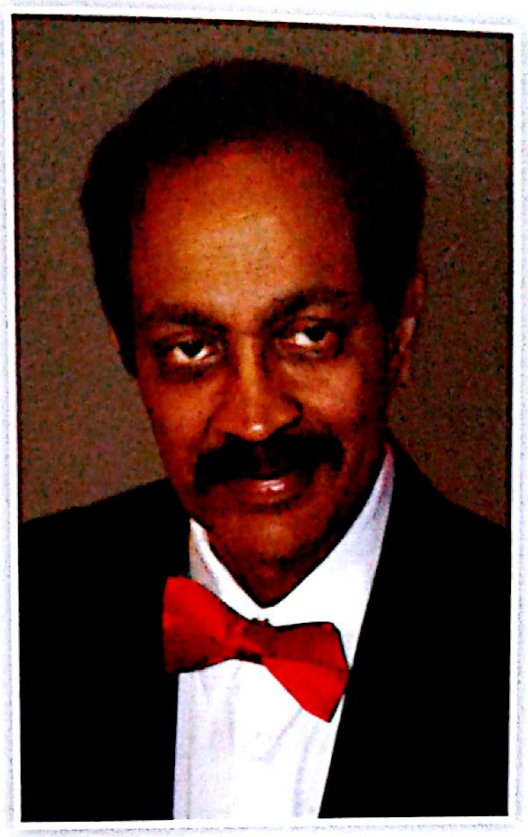

فيليانور راماشاندران

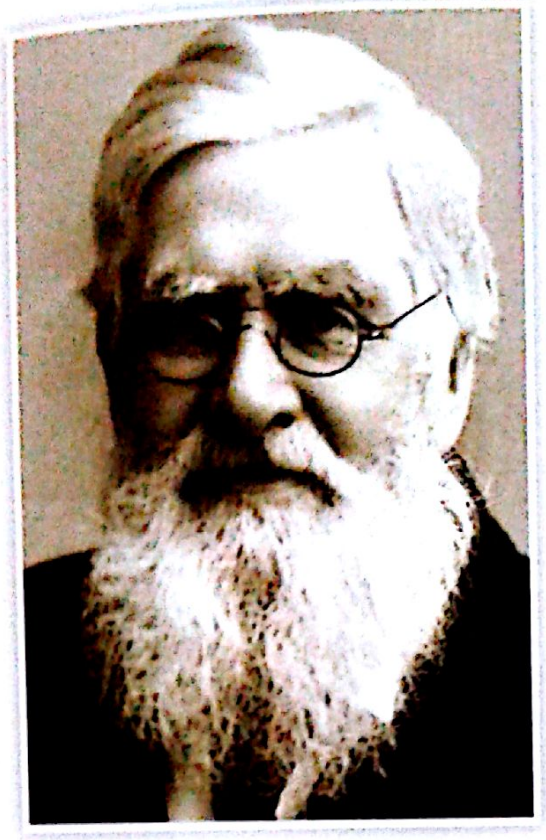

الفرد راسل والاس

ضرورية للبقاء راهناً، فما هي الحاجة لتطوير جينات لا تستخدم ولا عمل لها في الوقت الحالي؟ والاس لم يتردد في الإعراب عن اعتقاده بأن ذكاءنا الفائض عن حاجتنا منحة إلهية، أما الداروينيون فقدموا اقتراحاً يستند إلى ما دعوه الذكاء العام general intelligence والذي هو نتاج تراكم قدرات الدماغ بعد كبر حجمه وازدياد تعقيده طوال ثلاثة ملايين من السنين، ويضربون لهذا مثلاً باستخدام الإنسان يده في الصيد والإمساك بفروع الأشجار لكنه استخدمها بعد ذلك عند الحاجة في الكتابة والرسم والعزف على الآلات الموسيقية وما شاكل ذلك من دقيق الأعمال.

ولكن اقتراحهم هذا جوبه بجملة اعتراضات منها: أن مخ إنسان نياندرتال أكبر حجما من مخنا بحوالي عشرة في المئة فلم لم يتمتع بذكاء كذكائنا سمح له بالبقاء والتطور؟ من جهته عبر عالم المخ والأعصاب الشهير عالمياً راما شاندران[20] عن اعتراضه على مفهوم الذكاء العام باستبعاده تماماً أن يكون الذكاء اللازم لتسديد حربة إلى طريدة كذاك اللازم للتعاطي مع حساب المثلثات والرياضيات المتقدمة.

20- راما شاندران Vilayanur Subramanian Ramachandran، مواليد 1951، عالم أعصاب أمريكي من أصل هندي، أستاذ في جامعة كاليفورنيا في سان ديغو.

Scanned by CamScanner

بمعنى أن الذكاء الذي تم انتخابه بطريق الانتخاب الطبيعي كان صالحاً لإنجاز مهام بدائية سهلة لكنه هو عينه ظل صالحاً للقيام بمهام في منتهى التعقيد والصعوبة، وهذا ما يعجز الانتخاب الطبيعي عن تفسيره، ذلك أنه - بحكم كونه غير واع ولا بصير بالمستقبل - إنما يستبقي من التغيرات ما يصلح لمواجهة التحديات الراهنة لا تلك التي ستبرز بعد ألوف ألوف السنين.

•••

Scanned by CamScanner

الشبهة الثالثة

فرضية الإسقاط البشري

عقلانية الوجود وسفسطة الملاحدة

سبق أن أسلفنا عن آينشتين قوله: إن أكثر شيء غير مفهوم بصدد الكون أنه قابل للفهم! بمعنى أن افتراض كون الكون قابلا للفهم مع افتراض أنه أتى بطريق الصدفة من غير تصميم هادف هو افتراض عبثي، ومن هنا كان آينشتين ـ في معرض تأكيده على ثقته بنسبيته وكونها أمتن من أن تتهاوى في أول مواجهة ـ يردد أن الخالق قد يكون غامضا لكنه ليس شريراً God may be sophisticated. but not malicious في إشارة إلى عبارة ديكارت الشهيرة التي نفى فيها الشرية عن الله، وبالتالي إرادته تضليلنا، ومن هنا قابلية الكون للفهم ولياقتنا لإنجاز مهمة الفهم هذه.

وقد عبر غير واحد من قادة العلم والفكر في القرن العشرين عن حقيقة عقلانية الوجود بطرق مختلفة، فالسير آرثر إدينغتون[21] Sir Arthur Eddington يقول: إن مادة العالم مادة عقلية mind stuff، كما يقول: أتصور أن فكرة التدخل الإلهي في الكون فكرة عادلة ومنطقية تماماً طبقاً للمعطيات التي وفّرها العلم. ويكتب جون سوليفان John Sullivan: أن الطبيعة النهائية للكون طبيعة عقلية. أما السير جيمس جينز Sir James Jeans فيسهب في إيضاح هذا المعنى مقرراً: إذا كان الكون كونا فكريا فلا بد أن خلقه كان عملاً فكرياً أيضاً. ثم يستتلي: توجد اليوم أدلة قوية تضطر علم الطبيعة إلى قبول الحقيقة القائلة بأن نهر العلم ينساب نحو حقيقة غير ميكانيكية. إن الكون أشبه بفكر عظيم منه بماكينة عظيمة. إن الذهن لم يدخل إلى

21- أرثر أدينغتون (Sir Arthur Stanley Eddington(1882 - 1944، فيزيائي وفلكي بريطاني، أولع منذ وقت مبكر بنظام الكون وبحركة النجوم وتكوينها الداخلي. وانتهى في عام 1916م إلى أن الضغط الإشعاعي عامل رئيس من عوامل الحفاظ على توازن النجم، إلى جانب الجاذبية وضغط الغاز. بعد ذلك وضّح العلاقة بين الكتلة وضوء النجم. كان أول من لاحظ تجريبيا انحراف الضوء بوساطة مجال الجاذبية الشمسية كما تنبأت بذلك النسبية العامة لألبرت أينشتين. من كتبه: بناء الكون عام (١٩١٤م)؛ البناء الداخلي للكواكب (1926م)؛ طبيعة العالم (1928م).

Scanned by CamScanner

جيمس جينس

آرثر ادينغتون

هذا العالم كأجنبي عنه، ونحن نصل الآن إلى مكان يجدر بنا فيه استقبال الذهن كخالق لهذا الكون وحاكم له، إن هذا الذهن بلا شك ليس كأذهاننا البشرية، لكنه ذهن خلق الذهن الإنساني، وكل شيء كان موجوداً في ذلك الذهن الكوني في صورة برنامج معد مسبقاً...لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة مصممة أو مهيمنة desighning or controlling power وهي تشبه أذهاننا إلى حد كبير، لا من جهة العواطف والأحاسيس، لكن من جهة النهج الفكري الذي يمكننا تسميته بالذهن الرياضي!

ويقول الفيزيائي الأميريكي جورج إيرل ديفيس George Earl Davis: لو كان للكون أن يخلق نفسه لعنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحالة سنضطر إلى الإيمان بأن الكون نفسه هو الإله. لا يوجد مبرر لتحول الملحد إلى مؤمن إلا الاعتراف بالعجز عن استيعاب كون بدون إله. إنني أفضل إلهاً حاكماً مدبراً على تبني مثل هذه الخزعبلات!

باروخ اسبينوزا عادل بين قوانين الوجود وبين الله، وقد كان آينشتين أحد أقوى المتأثرين بهذه الفلسفة الوحدوية، كما كان ستيفن هوكنغ أعلن قبل إلحاده أو بالأحرى لاأدريته أن الإله يعادل القوانين الحاكمة في الكون. تيخو براهه، يوهانس كبلر، ديكارت، ولاحقا نيوتن، كانوا يعتقدون أنهم بدراستهم لسيرورات العالم المنظمة إنما يكشفون عن التصميم العقلاني لله مبدع الوجود. بغرور الإنسان نعت كبلر ومن ورائه

Scanned by CamScanner

جيمس جينز الرب بأنه رياضي، كما نعته نيوتن بأنه ماهر جدا في الميكانيك، مع أن الرياضيات والميكانيك هي طرقنا لفهم كيف يعمل الرب، فالرب يبدع ويخلق ونحن كبشر نحاول أن نفهم ليس إلا.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن (العقل) - بالمعنى الأعم الشامل للخطة الإلهية في الخلق- لا يمكن أن يفسر بحد ذاته العالم إلا إذا جعلناه مبدأ العالم.

وبإزاء هذه المقررات لكبار العلماء والمفكرين عن عقلانية الوجود يطل الملحد برأسه مشككاً: من أين لي أن عقلي يفكر على نحو مطابق بحيث يعكس واقعية الأشياء؟ ولم لا يكون الانتظام البادي لنا في الكون من صنع عقلنا الذي أسقطه على الكون لا العكس؟ بمعنى أن معنى الوجود مسقط عليه لا منعكس منه!

وهو كلام يساوي القول بأن القصر المشيد الرائع بهندسته وتصميمه لا فرق بينه وبين والحجارة التي بني بها حين كانت مجرد أكوام مكدسة بعضها فوق بعض كيفما اتفق.

ثم إن التشكيك في موضوعية النظام في الكون، يعني القضاء على سائغية العلم وإهدار كل ما يبرره، والقضاء على كل إمكانية استدلال، فالعلم قائم أصلاً على التسليم بوجود النظام والقانون، والاستدلال لا معنى له بغير التسليم بمقدمات صالحة لإنتاج توالي مستلة منها استنادا إلى الروح المنطقية السارية في الوجود.

ثمة دليل - أشار اليه بول ديفز - من الصعب نقضه يدل على أن عقلانية القوانين ليست إسقاطاً بشرياً. يتمثل هذا الدليل في حقيقة أن القوانين الطبيعية تساعدنا أحيانا على اكتشاف ظواهر لم يسبق لنا أبداً أن خامرنا الظن بوجودها، بل إن علامة القانون القوي هي أنه يمضي بنا إلى أبعد من الوصف الأمين للظاهرة الأصلية التي أوحت به. فقانون نيوتن في الجاذبية مثلا لم يزودنا بوصف دقيق لحركة الكواكب فقط، وإنما فسر أيضاً ظواهر مد المحيط وجزره وشكل الأرض وحركة السفن الفضائية وغيرها. فقوانين الطبيعة الأساسية الصحيحة تثبت روابط بين سيرورات فيزيائية مختلفة.

وجدير بأصحاب هذه الشكوك أن ينعتوا بالسفسطائيين المعاصرين. ولئن قيل عن

Scanned by CamScanner

أرسطو بحق: إن جودة ميتافيزيائه لا يعادلها إلا رداءة فيزيائه، فحري بمن يتبنى مثل هذه الشكوك من علماء العصر أن يقال في حقه: إن جودة علمهم لا يعدلها إلا رداءة فلسفتهم!

لو كان كلام هؤلاء السفسطائيين الجدد صحيحاً، لأمكن في دنيا العلم أن نقارب أي ظاهرة من ظواهر الطبيعة بأي فرضية مهما تكن. وهذا ما تكذبه مسيرة العلم المضنية.

• رد شبهة الإسقاط

ونقول للذين ينكرون موضوعية النظام وواقعيته ويرونه مجرد إسقاط: ولم لا تفهمون هذا الإسقاط على أنه تجاوب بين العقل والوجود، بمعنى أن المنطق الساري في الوجود هو عينه العامل في العقل ومن هنا قدرتنا على مراكمة فهمنا للعالم ووقوفنا شيئا فشيئا على قوانينه الحاكمة ونجاحنا المتتالي في فك مغاليقه وكشف أسراره. ولو كان هذا الإسقاط مجرد إسقاط لبنية العقل التي لا رابط بينها وبين بنية العالم لما نجحنا بالمرة في إقامة صرح العلم وفهم العالم.

وهذه بعض الأمثلة التي تساعد على تحقيق هذا المعنى:

الجدول الدوري لمندلييف[22] periodic chart:

عندما رتب مندلييف هذا الجدول حسب آليته المعروفة، وبعد وضع العناصر المكتشفة حينها في مكانها في الجدول اعتمادا على السلوك الدوري للخصائص الكيميائية للعناصر، ترك خانات فارغة لعناصر لم تكن موجودة حينها. لكن مندلييف قال بإنه يجب أن يكون ثمة عناصر في الطبيعة غير مكتشفة بعد لتأخذ مكانها في تلك الخانات الفارغة في الجدول. فالجدول ليس إلا تصويراً للنظام الطبيعي للعناصر. وهذا ما حصل بالفعل، فقد نجح العلماء في اكتشاف العناصر الناقصة لاحقا.

22- ديميتري إيفانوفيتش مندليف (Dmitri Ivanovich Mendeleyev) كيميائي روسي (1834–1907) اشتهر بوضعه الجدول الدوري للعناصر. وعلى عكس الذين ساهموا في فكرة الجدول الدوري، استطاع مندليف توقع الخواص الكيميائية للعناصر التي لم تكتشف في وقتها.

Scanned by CamScanner

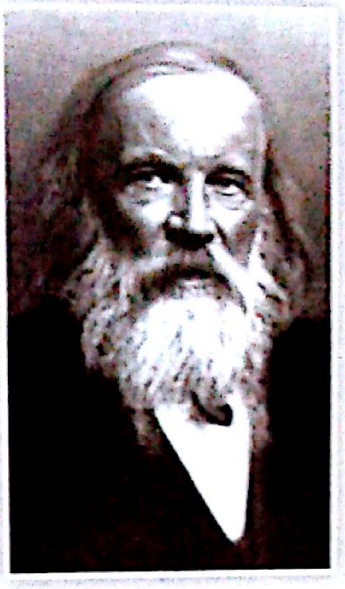

مندليف

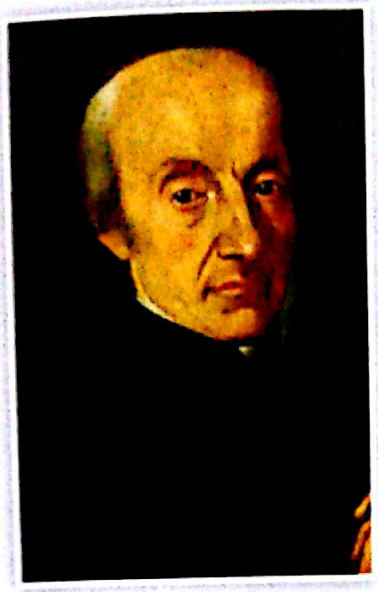

جيوزيبه بيازي

أبعاد كواكب مجموعتنا الشمسية عن الشمس:

في القرن الثامن عشر تمكن الألماني يوهان بوده Johan Bode من التوصل إلى تحديد أبعاد سيارات مجموعتنا الشمسية، إذ أدرك أنها ليست اعتباطية بل تحكمها متوالية حسابية تبدأ بالصفر ثم الرقم 3 ومضاعفاته ويتم جمع المضاعف مع الرقم 4 ويقسم الناتج على 10 والحاصل يمثل بعد الكوكب عن الشمس بالوحدة الفلكية. التي تساوي 150 مليون كيلومتر. وهكذا فإن عطارد يبتعد عن الشمس بـ صفر +4 أي 4من عشرة من الوحدة الفلكية أي 4/10 ×150 ويساوي 60 مليون كم. والزهرة 3-4/10 يساوي 7من عشرة من الوحدة الفلكية أي 105 مليون كم. الارض 6-4/10 يساوي وحدة فلكية تامة. المريخ 12+4/10 ...فإذا بلغنا المشتري برزت مشكلة فالمشتري لا يبعد عن الشمس بمقدار 24 + 10/4 بل بمقدار 48 + 10/4 ولم تجد هذه المشكلة حلها إلا بافتراض وجود كوكب سيار بين المريخ والمشتري. وبالفعل اكتشف الإيطالي جوزيبه بياتزي Giuseppe Piazzi في ليلة عيد الميلاد من سنة 1801 جرماً سماوياً تبين لاحقاً أنه أصغر من أن يسمى كوكبا فسمي كويكباً asteroid وأعطي اسم سيرس ceres ويبلغ قطره حوالى 1000كم، ثم توالت الاكتشافات للكويكبات حتى بلغ عددها الآلاف. وتم بهذا سد الفراغ الذي أشارت إليه تنبؤات قاعدة بوده ليعود الاعتراف الجاد بتلك القاعدة التي تنجح في تحديد أبعاد سائر كواكب مجموعتنا الشمسية بدقة مثيرة. زحل. أورانوس، نبتون، بلوتو.

Scanned by CamScanner

أوربان لوفيرييه

اكتشاف كوكب نبتون:

بعد اكتشاف كوكب أورانوس سنة1781 على يد الفلكي الإنكليزي ويليام هرشل ووضع الخرائط التي توضح مساره بين النجوم، وجد العلماء أن المسار الفعلي للكوكب مختلف عما توقعوه نظرياً، فاقترح الفلكي هسي Hussey وجود كوكب آخر خارج مسار اورانوس يؤثر في مساره.

وفي سنة 1845 قدم الفلكي الإنجليزي جون كوش آدامز[23] John Couch Adams حسابات تبين بعد الجرم المفترض وكتلته، وقد اعتبر ذلك الجرم كوكبا ثامنا وتوقع وجوده في برج الدلو. ومن أسف أن دراسة آدمز ـ الذي كان حينها في السادسة والعشرين من عمره ـ قوبلت بالرفض والإنكار.

و قد قُدر أن يظهر في فرنسا عالم يدعى لوفيرييه[24] قدم هو الآخر حسابات مشابهة جداً لتلك التي قدمها آدمز ـ دون أن يطلع على حسابات هذا الأخير. وأن يجابه هو أيضاً بالإنكار والرفض من علماء بلده، فيضطر إلى توجيه رسالة إلى مدير معهد برلين للرصد في ألمانيا يوهان إنكه Johan Encke الذي باشر بتكليف فلكيين ألمانيين

23- جون كوش آدامز (1819 - 1892) وهو عالم رياضيات وفلكي بريطاني. من أبرز اكتشافاته تنبأ وجود موقع كوكب نبتون بالاعتماد على الحساب فقط. وارتكز على ذلك بإبراز الفارق الموجود بين مدار كوكب أورانوس وقوانين كبلر ونيوتن.

24-أوربان جان جوزيف لوفيرييه (1811 - 1877) (Urbain Jean Joseph Le Verrier) رياضي وعالم فلك فرنسي،عمل في مرصد باريس معظم حياته.

Scanned by CamScanner

أرنو ألان بنزياس

هما: يوهان غالّه Johan Galle[25] وهاينريخ دِأريست Heinrich d`Arrest بإعادة النظر في الدراسة والحسابات، فبدآ بالعمل في 23 سبتمبر لسنة 1846 وسريعا أفلح غاله في تحديد بعد الكوكب الغريب بخطأ لم يبلغ درجة واحدة عن الموقع الذي حدده لوفيرييه.

ولما أعلن ويليام هرشل نبأ اكتشاف الكوكب الجديد تنازع الإنجليز والفرنسيون شرف الاكتشاف، وانتهى النزاع بتقاسم آدمز ولوفيرييه فخر الاكتشاف.

ومن المثير أن غاليليو كان في 22 من شهر يناير لسنة 1613 قد رصد إلى جوار المشتري ما ظنه وقتها نجماً ورسمه، ولم يعلم لا هو ولا غيره حينها أنه كوكب سيدعى لاحقا (نبتون).

أحسب أن ملاحظة هذه الأمثلة - والتي يتوافر المئات منها - كافية لتهز القناعة الملتبسة بأن ما يبديه الكون لنا من مظاهر النظام والمعقولية لا يخرج عن كونه مجرد إسقاط بشري مضلل.

لقد تساءل السير إسحاق نيوتن لما اكتشف قانون الجاذبية عن سبب وجود هذه الخاصية في الأجسام، ومعلقاً على هذا التساؤل يكتب ألفريد نورث هوايتهيد[26]:

25- يوهان غوتفريد غالّه (1812 - 1910) هو عالم ألماني في الفلك من العلماء البارزين الذين عملوا في مرصاد برلين.

26- ألفريد نورث وايتهيد (1861 - 1947) Alfred North Whitehead، فيلسوف وعالم رياضيات إنكليزي، أشرف على أطروحة الدكتوراه لبرتراند راسل وشاركه في وضع كتاب مبادئ الرياضيات.

Scanned by CamScanner

«لقد كشف نيوتن حين سلّم بهذا عن حقيقة فلسفية عظيمة، وهي أن الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها كما أن الشخص الميت لا يستطيع أن يحكي لنا واقعا. إن جميع التفسيرات المنطقية والواقعية لم تزد أخيرا عن أن تكون إظهارا لهدف، لأن الميت لا يمكن أن يكون حامل أهداف».

يقول أرنو بينزياس[27]:

«إن علم الفلك يقودنا إلى معادلات مبهرة. هذا الكون الذي نشأ فجأة من لا شيء، من ذا الذي كان يملي كل هذه المقاييس والمعايير المذهلة؟ من الذي كان يملك خطة مسبقة للخلق؟!».

والخلاصة: إذا ثبت بالقطع أو حتى ترجّح أن العالم عقلاني، فلا مناص من البحث عن مصدر هذه العقلانية.

•••

27- أرنو ألان بنزياس (Arno Allan Penzias)، مواليد 1933 بميونيخ، عالم فيزياء أمريكي من أصل ألماني. حصل على جائزة نوبل للفيزياء عام 1978 عن «اكتشافه لأشعة الخلفية الكونية». وشاركه في الجائزة زميله في هذا الاكتشاف روبرت ويلسون، وقد أتى كشفهما هذا تأييدا قويا لنظرية الانفجار الكبير.

Scanned by CamScanner

الشبهة الرابعة

شبهة الإدراك بأثر رجعي

Hindsight

وهي شبهة قريبة من شبهة الإسقاط، تقوم على إظهار تحيز يقع فيه الكثيرون دون أن يفطنوا إليه، وهو تحيز الإدراك بأثر رجعي، أو الإدراك المتأخر، ومن أمثلته ما يجنح إليه بعض المؤرخين من النظر إلى أحداث الماضي كما لو كان يمكن التنبؤ بها، ويزعم الكثير منا أنهم حدسوا وقوع ما وقع ولكن دائما بعد وقوعه لا قبل وقوعه.

يحاول بعض الملاحدة إقناعنا بأن ما نظنه تعقيداً يدل على تصميم ذكي وهادف فيما نراه ونلمسه في مختلف البنى الحيوية والطبيعية ليس إلا من قبيل تحيز الإدراك بأثر رجعي، بمعنى أن المؤمنين ألفوا أمامهم بنىً شتى فزعموا أنها تنطوي على تعقيد هادف، والحال أنهم لم يقعوا على سواها، وبفرض أنهم وجدوا بنى تناقضها تماماً على طول الخط فإنهم أيضاً كانوا سيزعمون أنها معقدة تعقيداً هادفاً يدل على مصمم ذكي حكيم. إن النظام الذي يرونه ليس أكثر من وهم صدقوه لأن لديهم إرادة أن يصدقوه، والحال أن كل ما حدث إنما حدث بمحض الصدفة لا غير!

ويضربون هذا المثل:

لو نثرنا جذاذات معدنية كثيرة في الهواء فإنها حتماً ستقع على الأرض متخذة شكلاً ما، وحين يعاد نثرها من جديد فإنّ إمكان أن تتخذ الشكل ذاته هو إمكان ضعيف جداً يقرب من الصفر، ومع ذلك من منا يجهل أن الشكل الأول كان نتاج صدفة محضة لا يسوغ لأحد من الناس معها ادعاء أنه شكل مصمم هادف ودال على تصميم ذكي؟ في الحقيقة لا أحد.

يظهر مدى تهافت هذه المحاجة وخداعها بالتنبه إلى أن العبرة ليست في مجرد تعقيد ما غير قابل للتكرار، لكن في تعقيد وظيفي عامل ومحكوم بقانون يمكن الكشف عنه واستثماره في التنبؤ وبالتالي الاستدلال به على مصمم هادف ذي رؤية يقف وراءه.

Scanned by CamScanner

من منا لا يدرك الفرق بين هاتين الحالتين: حالة يقذف فيها بقطع معدنية مكتوب على كل منها حرف من حروف الأبجدية، ووقوعها على الأرض مشكلة جملة لا معنى لها بتة، لكنها في كل الأحوال جملة من شبه المستحيل أن نراها مرة ثانية مهما قذفنا بتلك القطع في الهواء لتسقط على الأرض متخذة ترتيباً ما، وحالة يقذف فيها بتلك القطع فتقع على الأرض مشكلة هذه المرة هذا البيت من الشعر لأبي العلاء

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

إن الألوف من الترتيبات الأولى يجمعها عامل مشترك واحد، إنه الاعتباطية.أما هذا الترتب فيخلو قطعاً من الاعتباطية ويحكي قدرة وتصميماً ورؤية.

لكن. مرة أخرى. يمكن التشكيك في جوابنا هذا بشرط التشكيك في واقعية النظم في الكون والزعم بأنها مجرد إسقاط بشري، الأمر الذي يلزم منه في النهاية التشكيك في صلاح العقل الإنساني لفهم العالم، وبالتالي التشكيك في العلم والفكر بكل صوره والوقوع في عدمية فكرية لا لشيء إلا لإنكار وجود الخالق وإنقاذ إلحاد عنيد ينحر العقل باسم العقل المزعوم! عقل الإلحاد.

•••

Scanned by CamScanner

الشبهة الخامسة

إله الفجوات؟

• وهم تعارض القوانين مع عمل الله تعالى

لقد تورط الفكر الأوروبي ولا يزال في خطأ فادح حين ظن أن عمل الله تعالى يقع في عرض عمل القوانين الطبيعية. وعلى هذا فكلّ ما ينجح العلم في تقديم تفسير مقنع له ترتفع الحاجة إلى إسناده إلى عمل الله، والعكس صحيح.

في القرن التاسع عشر يكتب توماس هاكسلي: «كل ما ينجح العلم في تفسيره، فبالضرورة لا دور لله فيه».

و في القرن العشرين، يكتب ستيفن واينبرغ في «أحلام النظرية النهائية»:

«كان الناس إلى غاية القرن العشرين يؤمنون بالله مستندين إلى براهين من جنس أن الأجرام السماوية أجرام خالدة وبسيطة ومكونة من مادة أخرى، ويستدلون بهذا على الله الذي خلقها وعلى جماله. أما اليوم فالناس يرون فيها أشياء من الناحية التكوينية كالتي على الأرض تماما».

ويبدو أن منشأ هذه الفكرة الساذجة هو سذاجة المتدينين أنفسهم، خاصة في العصور الوسطى، السذاجة التي حملتهم على تفسير كل ظاهرة بإسنادها إلى الفعل المباشر لله، وقد ألمحنا قبلاً إلى أن الفكر الديني الوسيط كان يرفض النظر إلى الظواهر الكونية والمخلوقات المختلفة على أنها دلائل على الخالق تحكي شيئا من صفاته. وفي الضفة الأخرى ظل العلم يواصل انتصاراته بإثبات مقدرته على تفسير الظواهر المختلفة بقوانين مفهومة يعبّر عنها بصيغ رياضية محكمة تمكّن الإنسان من استثمار الكون والتنبؤ بما لم يحدث بعد بناء على مقتضيات القانون نفسه.

نظرية طولية القوانين عند المسلمين

لكن الحال مختلفة تماماً في التصور الإسلامي للقضية، فآيات القرآن الكثيرة شكلت أساساً صلباً وواضحاً للاعتقاد بأن كل ما في الوجود يمثل آيات على الخالق

Scanned by CamScanner

المبدع يحكي صفاته ويدل عليه بغير وجه وطريقة، إنه البرهان الآيوي: إن العالم كله يمثل علامة على موجده، وما اشتمل عليه من صنوف الكائنات وظواهر الطبيعة آيات دالة عليه تعزز الإيمان وتشد اليقين. فالمسلم لا يرى أدنى تناف بين انفراد الله بالخلق والتكوين وبين فاعلية الأسباب الكونية على اختلافها، بل ينظر إليها على أنها أسباب مجعولة من الله لتنتج مسبباتها بإذنه، وبتعبير عصري إنها تمثل أسلوب الله في الخلق والتكوين.

فالله عند المؤلهة المسلمين لا يعمل بأسلوب مباشر، بل عبر الأسباب التي خلقها والعلل التي أعدها. لكن لماذا شاء أن يكون الأمر على هذا النحو مع قدرته على أن يفعل ما يريد بذاته دونما توسيط أي أسباب كانت؟

الجواب أن الأمر لو لم يكن على هذا النحو لما أمكن لأحد أن يستدل على الله تعالى، ففي القلب من الاستدلال - كل استدلال - تمثل السببية.

فالقوانين إذن في التصور الإسلامي لا تقع في عرض عمل الله، بل تقع في طوله. تماما كما يقع ملك صبي صغير للعبة أهداه إياها والده في طول ملك والده لها لا في عرضه.

ووفق هذا التصور فإن كل نجاح ينجزه العلم بالكشف عن قانون ما وتفسير ظاهرة ما إنما يساهم في الكشف عن آلية عمل الله في الكون (مما عملت أيدينا) وبالتالي في زيادة معرفتنا به سبحانه زيادة تقربنا إليه. إن العلم يساهم في تعريفنا بالله على مستويات تتعدى التسليم الساذج المستند غالباً إلى التقليد والوراثة، مستويات تطمح إلى الكشف عن ما يمكن تسميته مجازاً (أفكار الله)، (طريقته في العمل)، (خطته الخفية)، الأمر الذي كان يطمح إليه ألبرت آينشتين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

•••

Scanned by CamScanner

هذا الكتاب

ما كان لهذا الكتاب قبل ربع قرن أن يُحمل على محمل الجد من قِبَل جماهير مسلمة لم يخامرها أدنى ريب في صحة دينها واستقامة صراطها. أما اليوم فراهنيةُ مثل كتابنا هذا مستمدَّةٌ من عشرات المواقع الإلكترونية العربية التي تُروِّجُ للإلحاد، كما من ألوف الشباب المسلم – الآخذ عددُهم في الازدياد – الذين عصفت الشكوك بإيمانهم أعلنوا إلحادَهم وانبروا يجادلون عن اعتقادهم النافي لوجود الذات الإلهية.

فما هو الإلحاد؟ وما هي جذوره التاريخية؟ وما العوامل التي ساهمت فيه وعملت على استحالته مذهباً قائماً برأسه؟ ومن هم أبرز رموزه ومحاميه عبر التاريخ؟ ما هو برهان النظم أو التصميم الذكي الذي يُعدُّ أقوى البراهين على وجود الذات الإلهيه، وما هي أشهر وأقوى الشبهات التي تُورد عليه؟

هذه الأسئلة وغيرها يتصدى لمعالجتها والجواب عنها، بشكل واضح ميسور، هذا الكتاب الذي يمكن اعتباره مدخلاً سهلاً قريباً للموضوع القديم الجديد والذي لم يَعُدْ ممكنا تجاهلُه أو التعاطي معه باستخفاف واستسهال.

•••

2014

Scanned by CamScanner